بوعلام بسّايح

أعلام المقاومة الجزائرية ضدّ الإحتلال الفرنسي

بالسّيف والقلم 1830 - 1954

الجزائر 2007
عاصمة الثقافة العربية

مكتبة المهتدين الإسلامية

بوعلام بسايح. من مواليد البيّض بالجزائر.
دكتور في الآداب والعلوم الإنسانية. رئيس المجلس الدستوري الجزائري حاليا. سفير ووزير للثقافة ثم للشؤون الخارجية سابقا.

له عدة أعمال أدبية وتاريخية (باللغة الفرنسية):

- راية محظورة أشعار الحرب والحب لمحمد بلخير.
تقديم جاك بيرك، دار سندباد، باريس 1976.
- من الأمير عبد القادر إلى الإمام شميل.
بطل الشيشان والقوقاز. دار دحلب 1997.
ط2 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 2001.
- الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا.. من لويس فيليب إلى نابليون الثالث. ط1 المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الجزائر 2002.
- جذور الأصالة. المقاومة بالسيّف أو القلم.
المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 2002.
- عبد الله بن كرّيو. شاعر الأغواط والصحراء
منشورات الجنوب. باريس 2003.
- الجزائر.. الجميلة الثائرة. من يوغرطا إلى نوفمبر (شعر).
تقديم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة.
المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. الجزائر 2004.
- سيناريو فيلم: ملحمة الشيخ بوعمامة.
الجزائر 1984.

Bibliotheca Alexandrina
0645697

ISBN 978-9947-24-266-7
9 789947 242667

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

أعلام المقاومة الجزائرية
ضدّ الإحتلال الفرنسي
بالسّيف والقلم 1830-1954

http://www.al-maktabeh.com

- الكتاب: أعلام المقاومة الجزائرية
ضدّ الإحتلال الفرنسي بالسّيف والقلم 1830-1954
- المؤلف: الدكتور بُوعلام بسّايح
- الغلاف والإخراج: SIMPLE Production
- ردمك:978-9947-24-266-7
- الإيداع القانوني :2495-2007

حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

مكتبة المهتدين الإسلامية

بوعلام بسّايح

أعلام المقاومة الجزائرية ضدّ الإحتلال الفرنسي

بالسّيف والقلم 1830 - 1954

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفهرس

مقدمة الطبعة الفرنسية	9
مقدمة الطبعة العربية	17
1- الجزائر. الإحتلال والمقاومة (1830 – 1954)	19
2- الأمير عبد القادر	49
– لالة مغنية ومعاهدة طنجة	51
– وقف القتال بالتفاوض	59
– عبد القادر في بسو	73
– عبد القادر في أمبواز وإطلاق سراحه	87
– استقبال عبد القادر في باريس	99
– عبد القادر في دمشق وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي	109
– المقابلة بين عبد القار وبيجو	129
– الأمير عبد القادر شاعرا	135
3- فاطمة نسومر، المرأة المتمردة	151
4- المقراني، المقاومة بصيغة الجمع	163
5- بوعمامة، من طوماسين إلى ليوتي	187

http://www.al-maktabeh.com

6- محمد بلخير، شاعر الهوى والوغى	205
7- الأمـــير خالد، حفيد عبد القادر المـــيراث الخـــالـــد	221
8- عبد الحميد بن باديس الرائـــد المفكرالفـــذ	247
9- البشير الإبراهيمي، الـــمصلح البليغ الـــمناضل	271

مكتبة المهتدين الإسلامية

مقدمة الطبعة الفرنسية

ترددت طويلا، في تقبل الفكرة التي طرحها علي المدير العام للمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ENAG، بجمع المقالات المخصصة للوجوه البارزة أثناء المقاومة الجزائرية ضد الإحتلال الأجنبي، وطبعها في كتاب واحد، وقد سبق نشرها خلال سنوات الثمانينيات من القرن الماضي، في جرائد ومجلات وطنية مختلفة.

وعلى الرغم من أنني خصصت للأمير عبد القادر كتابا كاملا، مصحوبا بدراسة مقارنة بينه وبين معاصره بالقوقاز، الإمام شميل، بطل الشيشان، فقد ارتأيت أنه من غير اللائق أن تغيب شخصية الأمير عبد القادر عن هذا الكتاب، الذي يتناول بعض الشخصيات الرائدة في تاريخ المقاومة الوطنية، التي أبلت البلاء الحسن بالقول والفعل، خلال سنوات طويلة، سنوات الجمر والقهر والتحدي، التي عاشها شعبنا العظيم صامدا صابرا منذ أن وطأت أقدام الغزاة الظالمين هذه الأرض الطيبة في الخامس من جويلية 1830.

وحتى لا تظل هذه الشخصية (الأمير) الكاريزمية اللامعة، غائبة عن هذا الكتاب، فقد عملت بمقترح مسؤول دار النشر، أي تقديم صورة موجزة عن حياة الأمير وكفاحه، وذلك بالتوقف عند المحطات الهامة والمعالم البارزة في مسيرته الطويلة، منذ إعلان البيعة في 1832 إلى أحداث دمشق الشهيرة في 1860 قبل أن يُتوفى طيب الله ثراه في 26 ماي 1883.

http://www.al-maktabeh.com

ليس من مقاصد هذا الكتاب ولا من طموحاته، أن يكون مؤلفا جامعا لأعلام المقاومة ورجال الوطنية، وهم في تاريخ هذه البلاد كثيرون والحمد لله. إنما هو قراءة موجزة في مسيرة بعض الشخصيات الرائدة، التي استوقفتني في مراحل ومناسبات مختلفة، فكتبت عنها إنصافا وإعجابا، شغفا بالتاريخ وحبا للوطن.

ولا يعني غياب شخصيات أخرى كثيرة ولامعة في تاريخ المقاومة الوطنية الباسلة، مثل الشريف بوبغلة، أحمد بوزيان، الشيخ الحداد، الشيخ آمود بن مختار، مبارك الميلي، العربي التبسي، الطيب العقبي وغيرهم، أمرا مقصودا، إهمالا لها أو انتقاصا من قيمتها ومكانتها السامية المحفوظة في نفسي وفي الذاكرة الجماعية على السواء. إنما هي مشاغل الدنيا التي لا تتيح للإنسان دائما، الظروف المواتية لينجز الكثير مما يتمناه من مشاريع بحث وكتابة.

علما أني قد كتبت عن بعض هذه الشخصيات، شعرا، في كتابي (الجزائر الجميلة الثائرة، من يوغرطا إلى نوفمبر) [(1)]، آملا أن تسعفني الأيام لأكتب عنها وعن غيرها نثرا في المستقبل. مُؤدِّيا بذلك بعض الواجب، واجب الضمير والذاكرة، ومستكملا إسهامي المتواضع في تخليد التاريخ الوطني، ومآثر النِّساء / الرِّجال الأفذاذ الذين صنعوا أمجاده.

1- (الجزائر، الجميلة الثائرة، من يوغرطا إلى نوفمبر) تقديم: الرئيس عبد العزيز بوتفليقة ، ط 1 المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2004، صدر بمناسبة الذكرى الخمسين لاندلاع ثورة أول نوفمبر 1954.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كما أننا نلاحظ بلا ريب غياب وجوه وطنية بارزة أخرى. وهنا، أنا أتحدث عن الأموات لا الأحياء. أعني بذلك مثلا مصالي الحاج وفرحات عباس رحمهما الله، وهما وجهان بارزان من الحركة الوطنية الجزائرية. وقد سبق أن كان كل منهما لأسباب مختلفة محل نقد، وأحكام متطرفة في بعض الأحيان، أملتها ظروف معينة، غير أنه لم تتم العودة إلى هذه الإنتقادات أو الأحكام بعد مرور الزمن لمراجعتها وتصحيحها.

لم يكتب لي الشرف أو الحظ للتعرف على مصالي الحاج عملاق الحركة الوطنية. ومهما تكن انتقادات متهميه أو حجج معارضيه،فلقد كان أحد أوائل مؤسسي الحركة الوطنية الجزائرية، والوريث الروحي للأمير خالد على رأس حزب نجم شمال إفريقيا. ولو اكتفينا بذلك فقط، لوجب علينا ذكره بالتقدير و العرفان.

وسوف يتأتى لباحثينا ومؤرخينا، بعد نفض الغبار على الأرشيف الوطني والإطلاع على الشهادات الأصيلة، أن يخصِّصوا لكل واحد منهما دراسات مستفيضة، تبرز محاسنهما بصفتهما رائدين من رواد الحركة الوطنية، جديرين بالإنصاف الصحيح أمام الملأ.

وقد كان لي الحظ في التعرف على فرحات عبّاس عن قرب، عندما كان رئيسا للحكومة المؤقتة. فقد كان مساره مغايرا تماما، وشخصيته قد تطورت تماشيا مع تطور التاريخ. كان وطنيا حقا، في إحساسه الوطني الحاد ورؤيته الوطنية التي لا شك فيها، إذ كتب قبل اندلاع ثورة نوفمبر في جريدته (الجمهورية

http://www.al-maktabeh.com

الجزائرية): « إن العدد يصنع البشر.أما العقيدة السياسية التي يتم تدريسها ونشرها، فهي التي تصنع الشعب ».

كان يحمل الجزائر في أعماق قلبه إلى آخر نَفَس. وكان مريضا متألما بهموم الجزائر، مثلما كان يقول الشاعر الإيطالي جبرابيل دانونزيو Gabriel Danunzio وهو يتألم من الحرب الأهلية بإسبانيا: « أنا مريض من إسبانيا ».

قبل وفاته ببضعة أشهر، تلقيت رسالة مكتوبة بيده من مدينة نيس Nice الفرنسية حيث كان يقيم، لازلت أحتفظ بها إلى اليوم، ختمها رحمه الله، بقوله: « بالأمس كنت متقدما في السّن، واليوم فقد بلغت الشيخوخة »، مفرقا بين مفهوم البشر العادي ومفهوم الشعب الواعي، مذكرا من خلال ذلك بمسيرته السيـــاسية الطويلة.

لو أردنا عن يقين أو نوع من الطرافة الفكرية أن نقارن بين ثورة 1789 الفرنسية وثورة أول نوفمبر 1954، لما تتّسمان بـــه من طابع عالمي، وما تحمله كل واحدة منهما من قيَم إنسانية كالحرية والعدالة. وما تمثله ثورة أول نوفمبر من آمال وانتصارات لشعوب العالم الثالث، لوجدنا أوجه تشابه معتبرة مع الحفاظ على الخصوصيات. فقد كان فرحات عبّـــاس يشبه ميرابو Mirabeau، كما كان كاتب ياســين يُذكّرنا بـــ فيكتور هيجو Victor Hugo.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كتبتُ هذه المقالات على مدى سنوات متفرقة، مولعًا شغوفًا بعشق التاريخ، وشدّة الإعجاب والتقدير للرجال، الذين كافحوا بالكلمة أو القلم أو البندقية. ذلك الكفاح الذي لم يكن ليتحقق، لو لا تلاحم الشعب الجزائري وتعبئته واستعداده الدائـــم للنضـــال والكفـــاح.

فإنْ وصلتْ هذه الرسالة إلى شباب بلادي، أولئك الذين منعتهم سنٌّ مبكرة أو حرمهم ميلاد متأخِّرٌ من شرف المشاركة في حرب استعادة الإستقلال الوطني، سأكون قد بلغتُ منتهى طموحي. وإلى الجمهور الفرنسي، والشباب الفرنسي، أولئك الذين لم يعرفوا شيئا عن حرب الجزائر، إلا ما نُقِل إليهم صدْقا أو بهتانا، أبتغي بمناسبة فعاليات سنة الجزائر في فرنسا، أن أزفّ إليهم رسالة صداقة ووئام. (1)

****

لقد كُتِب للجزائر وفرنسا أن يعيشا حقبة صعبة من التاريخ، تاريخ متداخل ومشحون، حافل برفاهية الغزاة المنتصرين، ومعاناة الأهالي المغلوبين. ذاق فيها الشعب الجزائري الويلات والمحن القاسية، تحت نير القوّة والقهر. فاندلعت المقاومة الشعبية ضد الإحتلال تحت راية الأمير عبد القادر. وشهدت البلاد طوال سنين الجمر والنار، عبر مراحل متداخلة أو متعاقبة، انتفاضات متوالية، تحول فيها الغضب إلى مواجهة، ثم إلى مقاومة في نواحي

1- صدرت الطبعة الفرنسية من هذا الكتاب، بمناسبة سنة الجزائر في فرنسا 2003 .

http://www.al-maktabeh.com

عدة من الوطن، إلى أن تجلّى الوعد الحق، واشتعل لهيب الثورة الوطنية المجيدة في كل المناطق، في الفاتح من شهر نوفمبر1954، ليرسم ملحمة خالدة من البطولات والتضحيات، تُوجَت باسترجاع الحرية والسِّيادة والإستقلال الوطني المبارك، في الخامس من جويلية 1962.

أليس من الحق الطبيعي أن ينتزع بلد استقلاله بالسلاح، بعد أن فشل في بلوغه بالنضال السياسي؟ أليس من العدل والإنصاف والبديهي، أيضا، أن يعتبر شعب، فقد مليون ونصف مليون من الرجال والنساء، (فقط خلال سبع سنوات ونصف إبَّان ثورة أول نوفمبر) أن نسيان الذاكرة هو إهانة للذات وشتم للضمير؟

وبالمقابل، إذا كانت صفحات التاريخ مليئة بالتعسف والظلم، على نحو لا يمكن تمزيقها، فإنه ينبغي طي هذه الصفحات المظلمة الدموية، وتركها على حالها حتى تهدأ الفتنة، ويمكن - إن حسنت النَّوايا وصدقت الإرادة، وتحررت الذهنيات من رواسب وعقد الإيديولوجيات الكولونيالية البائدة - عندئذ فقط يمكن فتح صفحات أخرى واعدة بمستقبل جديد مغاير، يُشيَّد بأيدي الجميع بلا ضغينة وأحقاد.

إن نداء الفرنسيات والفرنسيين من أجل قيام جزائر حرَّة، والتزامهم الملموس لصالح القضية الجزائرية، والأخطار التي اقتحمها (حاملو الحقائب)، وأقلام الصحفيين وأصوات

مكتبة المهتدين الإسلامية

المثقفين، الذين نادوا باستقلال بلادي، كل ذلك من شأنه أن يشكّل معالـــم إيجابية لمصالحة منشودة في آخر المطاف، لفائدة الشعبين الجزائري والفرنسي.

لقد تعالت أصوات مواطنات ومواطنين في كلا الضفّتين، منذ سنين طوال، منادية بذلك في كنف الإحترام المتبادل للسيادة والثقافات، والتوازن المنصف للمصالح. أما أنا، فقد كتبت مقالا في سنة 1985 (هؤلاء النساء اللواتي هن إخوة لنا في الكفاح) « Ces femmes qui sont nos frères de combat »، بعد أن شاهدت حصة تلفزيونية عن النساء المعتقلات في السجون الإستعمارية بالجزائر أثناء حرب التحرير، وكان من بينهن نساء فرنسيـــات.

فهؤلاء النساء اللائي قدمن من فرنسا، جاكلين وأخريات، متجلْببات بالشجاعة، والذكيات القلوب، يوقّعن بأسمائهن وهن يخاطرن بحياتهن، تلك الحقيقة الكبرى المتمثلة في أن الحرية لا تعرف الحدود، والتضامن لا يحده مدى، وأن ليس للإنسانية حاجز ولا حاجب. يا لها من لحظة تاريخية حافلة للتوفيق بين الناس والتقريب بين الشعوب.

وعلى الرغم من كل هذه الحمّى والآلام، وهذا المسلسل من المكابدة والمعاناة، ظلت هؤلاء النساء يتزين بأقلام الحبر ويتجملن بـــه، أملا في أن يبقين جميلات، استعدادا لأعراس غير محققة. وربما لملاقاة الأهل والأصدقاء في يوم من الأيام، وهن متحليات بالشرف والفضيلة والكرامة، لا بالحلي والمجوهرات.

http://www.al-maktabeh.com

والحقيقة أنّهن كن في تلك الليلة جميلات، حتى أن بناتنا اليوم تودّ التشبّه بهنَّ. وفوق كل هذا الجمال، كم من دموع محتبسة وكم من زفرات مكتومة ؟ وفي الأخير تفقد إحداهن صبرها، فتنحدر دموع من الألماس، وتسيل على خدِّهـــا تحية إكبـــار إلى الحريـــة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مقدمة الطبعة العربية

هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبتُها ونشرتُها خلال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، تأريخًا وتمجيدًا لفصول من ملحمة المقاومة الجزائرية، ومآثر قادهٰا ورجالاتها الأفذاذ، الذين استلهموا بصدق روح أمة عظيمة عريقة، وجسَّدوا إرادة شعبها الصامد المخلص، المتشبِّث دوما بهُويته وأصالته وشخصيته الحضارية، المدافع بشجاعة وشهامة عن حريته وسيادته وكرامته، الذي برهن عبر محن التاريخ الطويل، التي ابتُلِي بها فخرج منها قويا ظافرا، أنه شعب أصيل يأبَى الإستكانة والذُّل، شعب ثائر لا يخضع أبدا لظالم أو محتل.

كما كان احتلال الجزائر مشروع استدْمار شامل، استهدف القضاء على كل شيء.استهدف العباد والبلاد،في أرضها وخيراتها، عقيدتها ولغتها وثقافتها وذاكرتها وتقاليدها..، بعبارة أخرى، حاول بكل ما أُوتِي من قوة وجبروت، مكر وتشويه، تخريب وتغريب، محو هوية وشخصية الجزائر - الأمة والدَّولة، وإلحاقها عنوة وقهرا بقوة غريبة غازية.

وبقدر ما كان الفعل الإستدماري عنيفا بشعا، كان ردُّ الفعل الوطني قويا صلبا، مقاومة شاملة وشاقة، بكل ما أُوتي الشعب الجزائري، من إيمان راسخ ووعي متقد وتضحيات بطولية غالية، وأسلحة كفاح متعددة، متطورة عبر اختلاف الأمكنة والأزمنة.

كانت المقاومة بكل الأشكال والوسائل الممكنة، ببلاغة القول. والكلمة، بحد السيف ودوي البارود. كانت رسالة ثقيلة تحملتها

http://www.al-maktabeh.com

شخصيات رائدة، وأمانة مقدسة توارثتها أجيال بعد أجيال، فسلكت بها دروب التضحية والشرف، من أجل حرية البلاد واسترجاع الإستقلال الوطني.

هذا الكتاب، مرآة عاكسة لبعض ما في نفسي من شغف مستمر مخلص للتاريخ الوطني، ومن احترام وإكبار لأبطاله المخلدين.مرآة مضيئة لجوانب ومحطات من تاريخ المقاومة وقادتها الكبار، رجال عـــلم وإصلاح، أو نضال سياسي ومواقف وطنية مشهودة، أو رجال حرب ودولة. جميعهم ساهموا وأبلوا فصنعوا ملحمة الكفاح والنصر، ملحمة شعب وتاريخ أمة حافل بالأحداث والدلالات، الجديرة بالقراءة والتمعن والتقدير.

وإذ صدر هذا الكتاب، في طبعته الأولى باللغة الفرنسية، بمناسبة فعاليات (سنة الجزائر في فرنسا، عام 2003). فإنه يسعدني أن تصدر طبعته باللغة العربية، متزامنة مع انطلاق فعاليات (الجزائر عاصمة للثقافة العربية عام 2007)، التي أتمنى أن تكون جسر تواصل وتفاعل إيجابي مستمر، واعد بالنجاح والتطور، فيما بين الثقافة الجزائرية والثقافة والعربية، من جهة. وفيما بين الثقافة الجزائرية - العربية والثقافة العالمية، من جهة أخرى.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الجزائر- الإحتلال والمقاومة
1830 - 1954

من الرجال، رجال يُؤثّرون في زمنهم، يدفعهم إلى ذلك نبوغهم. ومن الشعوب، شعوب تصنع التاريخ ،تحملها على ذلك عظمتها، ومنها شعب الجزائر. كما علمنا التاريخ، أن الحرية لا تبتسم إلا للنساء والرجال - للشعوب التي تكتوي بنار التضحية، وتدفع ضريبة الدم الغالي المفدى.

لكل شعب حاجة إلى أساطير، لا تلك الأساطير التي تُرْوَى للأطفال ليلا، لإشاعة السّكينة في نفوسهم وجلْب النوم إلى جفونهم، وهدهدة أحلامهم فحسب. بل الأسطورة التي لا إسم لها، أسطورة شعب تعرض للعدوان في جسده وأرضه، ثقافته وخيراته، فانطلق في وثبة جماعية، يرفع للحرية نصُبًا في كل جبل من جباله الشاهقة.

لقد كان الفاتح من نوفمبر 1954، بالنسبة إلى التاريخ، ردّا على الخامس من يوليو 1830.

لم تكد تمضي أربعون سنة على ثورة 1789، وإعلان الجمهورية بشعاراتها المطالبة بحقوق الإنسان وحرية الشعوب، حتى زج الملك شارل العاشر Charles X بفرنسا في مغامرة عسكرية هي من صميم الأساليب الإستعمارية.

كانت فرنسا مع ذلك منهكة القوى، من جراء الحروب الأوروبية التي خاضها الإمبراطور نابليون بونابارت

http://www.al-maktabeh.com

Napoléon Bonaparte ومتعبة بسبب الإضطرابات السياسية الداخلية.فقد انتقلت من جمهورية إلى مجلس حكام Directoire، ومن هذا الأسلوب في الحكم إلى إمبراطورية، ومن إقبال أسرة بوربون Bourbon المالكة إلى إحياء السلالة الملكية، فسمحت لنفسها على غير مألوف وعادة، ببعث النظام الملكي من جديد في شخص شارل العاشر. وفي خضم هذه السلسلة من التغيرات الطارئة، ظل رجل من رجال فرنسا مقترنا بالقرارات المصيرية، ألا وهو تاليراند Talleyrand. ولا بد من الحديث عنه، لأن اسمه قد اقترن بغزو الجزائر.

لقد خلع تاليراند أسقف (أوتان Autun) جبة الكاهن ليستبدل بها بزة صاحب المقام العالي في الدولة، فجاء إلى السلطة عندما خرج منها روبسبيارRobespierre، وشارك في صياغة إعلان حقوق الإنسان، وكان وزيرا للشؤون الخارجية في عهد مجلس الحكام، فالإمبراطور، ثم شارل العاشر.وهتف للجنرال بونابارت المنتصر على إيطاليا آنذاك، وشجعه على إعلان الإمبراطورية، وأنكر في صمت تلك الحرب التي كان بونابارت يخوضها في إسبانيا، ودفعه إلى اغتيال الدوق انغيان Le Duc d'Enghien لتصفية أسرة "بوربون" المالكة، ثم جاء "شارل العاشر" فأجلسه على عرش فرنسا.

كان شغوفا بالسلطة، وكان مغرما بالنساء، شريطة أن يكن على حظ وافر من الجمال والذكاء، وذوات نفوذ وثراء. فقد وجد لدى السيِّدة دو ستايل Mme De Stael مُتَع المضجع

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولذائذه. ولقيَ لديها الدَّعم السياسي قبل أن ينفيها نابليون.لكن ابنة نيكر Necker لم تغفر له طلاقته، فرسمت صورته في كتابها (كورين Corinn). وقد علم ذلك وتظاهر بالجهل.كما أهانه شاتوبريان Chateaubriand وقسًا عليه بلسانه وقلمه. لأن الناس جميعا كانوا يعلمون أنه مولَع بالمال والنساء من أجل السياسة، ومُغرَم بالسياسة لذاتها، وفي سبيل المال.

إننا لنذكر اليهوديين كوهـــين - بكاري، وبوشناق اللـــذين كانا يحتكران تجارة الحبوب في ولاية الجزائر. وقد أمضى لهما تاليـــراند إفادة تسمح لهما بتَسلُم الدَّيْن الذي اقترضته فرنسا لدى داي الجزائر، على أن يكون الفرق بين المبْلَغين قسمة بينهما وبين تاليراند. وتدخَّل هذا الأخير لفائدتهما، فتسلَّما مبلغ سبعة ملايين فرنك. وهو مبلغ كان وزير المالية يعتقد أنه كاف للوفاء بالدَّيْن. وبقيت بقية كبيرة. وبعد مدة عثر شارل العاشر على ملف كوهين - بكري الذي كان سبب الخلاف مع الجزائر.

كُلِفَ تاليراند مرة أخرى بمعالجة هذه القضية. فهو الذي أوفد القنصل ديفال Duval لاستفزاز الداي وإثارة ضربة المروحة، التي كان لابد منها لتحقيق "الثأر والإنتقام لكرامة فرنسا وشرفها". ومع ذلك، فقد انساق إلى الإعتقاد عند قراءة مذكراته، أنه كان مناهضا للنزعة التوسعية وخصما لها: "لقد تعلمنا أن جميع التوسّعات الإقليمية، وجميع أعمال الغضب التي تتم بالقوة أو بالحذق والبراعة، ليست سوى أعمال قاسية من أعمال الغباوة، وحسابات خاطئة من حسابات السلطة، نتيجتها رفع نفقات

http://www.al-maktabeh.com

الإدارة ووقوع هذه الأخيرة في حرج، والإنتقاص من سعادة المحكومين ومن أمنهم، خدمة لمصلحة الحكام العابرة أو لخيلائهم وكبريائهم".

غير أنه إذا لم يكن تاليراند حريصا على أن يرى التُّراب الفرنسي قد اتّسَعت رقعته، فذلك دون ريب، لكي لا تُبْتَر الأراضي الأوروبية، لأنه كان يؤمن بالوفاق الأوروبي وبوئامه، أما الجزائر فإنها أمر آخر، فضلا عن كونها مَجْلَبَة للخيرات. هذا هو السبب الذي جعل الجيوش الفرنسية تنزل في سيدي فرج.

كان الإحتلال طويلا وشاقا، وكانت المقاومة طويلة وشاقة أيضا. فقد دافع الأمير عبد القادر ببسالة وضراوة عن الأمة، وعن الراية طوال خمسة عشر عاما. يمكننا أن نتحدث ونستطرد في سرد المعارك والوقائع الحربية، إلا أننا نسجل، إذا كان الأمير عبد القادر قد اضطر إلى الإستسلام سنة 1847، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن لقّن العدو دروسا في الإستراتيجية العسكرية، وترك للأحفاد في مدينة معسكر وفي غيرها من المدن، رسالة الكفاح والبطولة والشجاعة التي سينتفعون بها فيما بعد .

* * *

لقد نقل إلينا أوجين فرومنتان Eugène Fromentin (رسّام وكاتب فرنسي) بقلمه السيّال وريشته البارعة،كيف شاهد مدينة الأغواط سنة 1852 والدخان ما يزال يتصاعد من أنقاض الحرب. ثم جاء دور أولاد سيدي الشيّخ سنة 1864، وأعقبهم المقراني في مكان آخر بشرق البلاد سنة 1871.ثم استأنف أولاد سيدي

مكتبة المهتدين الإسلامية

الشّيخ القتال مرَّة أخرى سنة 1881.وكلما كانت القوات الفرنسية تتوغل في الجنوب كانت المقاومة تشتد وتزداد تنظيما.

كان رجال البدو، وهم على صهوات جيادهم، مسلحين بالسيوف وببنادق جاءت من تونس، يقاومون جيشا سحقته الشمس، لكنه كان مزودا بالمدافع. ولو اتفق وشاءت مصادفات التاريخ أن تجمع كفاح عبد القادر وانتفاضة أولاد سيدي الشّيخ وثورة المقراني في زمن واحد لما استطاعت فرنسا أن تغزو مستعمرات لها في إفريقيا. إلا أن للتاريخ نزوات وتقلبات لا يعرفها العقل.

كيف جرى ذلك؟ لقد تصور الملك لويس فيليب خليفة شارل العاشر متابعة عملية الإستعمار، كما لو كانت في آن واحد، تركة يجب تسلُمَها وأمانة يجب الإضطلاع بها، وكما لوكانت مهمة تفيد النظام الملكي غاية الفائدة.

كان عهد لـــويس فيليب من سنة 1830 إلى سنة 1848 يتميز بثابتتين اثنتين: ضرورة القيام بعملية استعمـــار، وُصِفَت بأنها محدودة، أي مقصورة على شمال الجزائر تتخللها فترات هدنة في القتال وآجال سياسية.وتصميم الملك على أن يجعل من الإحتلال قضية شبه شخصية، بإرساله إلى ميادين القتال بالجزائر أبنائه الأربعة: الدوق دو أورليانDuc d'Orleans، الـــدوق دومال Duc d'Aumale،الدوق دو نمورس Duc de Nemours، الدوق دو جوانفيل Duc de Jouinville.

http://www.al-maktabeh.com

وقد رافق أحدهم، وهو الدوق دو نمورس الجنرال كلوزيل Clauzel في الحملة التي قادها هذا الأخير للإستيلاء على قسنطينة أو تدميرها.لكن أحمـــد باي وهو بطل آخر من أبطال الأمـــة، لم يكتف بمواجهة المهاجمين ومقاومتهم فحسب،بل أجبرهم على الإسراع بالانسحاب.وكان هذا الفشل الذريع معدودا في الجزائر بمثابة هزيمة عسكرية، وفي فرنسا بمثابة كارثة سياسية (1836).

كما صادف عهد لويس فيليب، مع فارق زمني قصير، عهد مقاومة الأمير عبد القادر. كانت المعارك دامية وأشد قساوة باستثناء سنوات مابين (1837 – 1839)، حيث كانت الهدنة تبدو أمرا مأمولا من الطرفين على إثر (معاهدة التَّافْنَا بين الأمير والجنرال Bugeaud بيجو في 30 ماي 1837) قصد التفرغ لمزيد من تنظيم قواهما دون شك. وكانت معاهدة التافنا هذه تعترف لعبد القادر بلقب أمير المؤمنين، وبسيادته على جزء من الإقليم يبدأ من المدية وينتهي بتلمسان، بما في ذلك المدينة ذاتها.وهو ما تسبَّبَ من قبل، في تعرض الجنرال دوميشال Desmichels الذي أمضى إتفاقية دوميشال (26 فيفري 1834) لمعاملة قاسية جدا من الأوساط السياسية الفرنسية.

كان البعض يرى في ذلك الإعتراف، تثبيتا لسلطة الأمير في نظر الرأي العام الجزائري، وكذا في نظر البلاط المغربي وباي تونس. بينما كان البعض الآخر يتوجس من ذلك خطر انضمام قبائل الجنوب نهائيا (التي لم تخضع بعد لفرنسا) إلى قضية عبد القادر، مما يمكنه من نشر ألوية جديدة للقتال.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عندما استأنف الأمير القتال سنة 1839، بعد أن اتّخَذ من (تاغدمت) مقرا لقيادته العامة، وسك النقود وصنع الأسلحة، وجد أمامه الجنرال بيجو، وقد استخدم هذا الجنرال الذي كانت حاسته الحادة في مجال الإستراتيجية الحربية، تضاف إلى حاسة أشد وأخطر تتمثل في حدة بصره البسيكولوجية، كل ما لديه من إمكانيات لمحاولة اعتراض مناوشات الأمير وهجوماته المكثفة. وحذا حَذْو الأمير عبد القادر في تنظيمه الإقليمي، وقام بتنفيذ خطة استعمارية شيطانية تتمثل في تدمير المحاصيل الزراعية تدميرا كليا لطرد السكان إلى الجنوب، وكانت هذه الخطة متبوعة بتوطين معمرين، تم استقدام عدد كبير منهم، مع وعدهم وعدا قاطعا بتوفير الحماية لهم.

أثار الإستيلاء على مدينة تلمسان سنة 1834 حماس البلاط المغربي وسكان المغرب، وكان الأمير قد صار رمزا للجهاد والكفاح في سبيل الاستقلال.وقد تلقى إمدادات من القمح والشعير والأسلحة والذخيرة، بل وحتى مبالغ كبيرة من المال . وكان يضاعف من اتصالاته بشخصيات الشرق الأوسط، وكانت تربطه علاقات ودية بالقصر الملكي في بريطانيا، كما أن سفيره يمده بمعلومات ثمينة عما كان يجري وراء الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، بفضل تواطؤ جنرال فرنسي متقاعد، وتعاون هذا الأخير معه.

كما حدثت عمليات تبادل للأسرى متكررة، وكانت أكبر تلك العمليات، عملية قام بها الأسقف أنطوان دوبوش A.Dupuch

http://www.al-maktabeh.com

الذي اتصل مباشرة بالأمير، فعمد دون استشارة بيجو إلى مبادلة سيدي مبارك،مائة وتسع خمسين جزائريا مقابـــل مائـــة وثمانيـــن فرنسيا.

كانوا يدمرون المدن والقرى، ويخططون لبناء مدن أخرى يكون لها من مقومات الأمن، ما يجعلها أقدر على تنظيم دفاعها بنفسها. بل قد ذهبوا بموافقة من باريس، إلى درجة تصور بناء جدار يزيد ارتفاعه على ثلاثة أمتار وطول قدره مئة كيلومتر، قصد حماية الشمال أو جزء منه على الأقل.وكان الخبراء في التخطيط الحربي يظنون أنهم بذلك "يوحون" إلى العرب بأنه ربما من اليسير الدخول إلى مكان تحميه الأسوار، لكنه من المستحيل الخروج منـــه.

غير أن المشروع الذي تم تحقيقه بالفعل في هذا المجال سنة 1843،كان هو تشييد المدينة الحامية في(أوريانفيل) (الأصنام – الشلف حاليا) التي أطلق عليها هذا الإسم تخليدا لذكرى نجل لويس فيليب، الدوق دو أورليان، الذي توفي قبل سنة من ذلك في حادث بباريس.

وللوصول إلى هذا الموقف، كانت القيادات العسكرية بالجزائر والدوائر السياسية والبرلمانية بفرنسا، تتابع بقلق بالغ تطورات العملية الإستيطانية وتقلباتها. وكان الأمير عبد القادر قد استطاع في داخل البلاد أن يُؤلِّب أغلبية القبائـــل والعشـــائر على العـــدو المحتـــل.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان اختيار مدينة الشلف قد تحدد لأسباب طوبوغرافية مرتبطة بالإستراتيجية، ولموقعها القريب من ميناء (تنس) خاصة. لكن المدينة قد بنيت على عجل وبوسائل هائلة، وقد بلغت قساوة التدمير إلى حد إزالة وتقويض بقايا المباني الرومانية. وقد تعرضت هذه الأرض لمهالك وكوارث كثيرة، إذ تعاقب فيها، زيادة على وحشية الناس، عنف الطبيعة مرتين بما شهدته من زلزالين رهيبين سنة 1954 وسنة 1980.

بعد معركتي سيدي إبراهيم وسيدي موسى، جَرَّ الأمير جحافل الأسرى وراءه لِيَعرضهم بازدهاء القائد الظافر على السُّكان الذين امتلأت نفوسهم اعجابا بذلك.؟

غير أن معركة وادي (إيسْلي Isly) 14 أوت 1844، التي أرسل فيها الجنرال بيجو قواته لاختراق الحدود الجزائرية المغربية ومقاتلة رجال "الحركة" الملكية، كانت منعطفا حاسما في تاريخ المقاومة. لقد كان لها صـــدى واسع بفضل مشاركة الأمـــير الـــدوق دو جوانفيل فيها، وكانت متبوعة بـــ(معاهدة طنجة) التي أبرمت في 10 سبتمبر سنة 1844، وبـــ (اتفاقية لالة مَغْنِية) المبرمة في 18 مارس سنة 1845.

لقد رسمت دبلوماسية المدافع لنفسها هدفا يتمثل في الحصول من سلطان المغرب على قرار يمنع رعاياه من تقديم أي عون للأمير أو منحه أي ملجأ في المغرب. وهكذا اضطرَّ الأمير إلى الكفِّ عن القتال بعد أن بات معزولا عن قاعدة خلفية ضرورية،

http://www.al-maktabeh.com

ومضايقات من كل جانب، ومفتقِرا إلى الوسائل وساحبا وراءه (الزَّمَالة – عاصمته المتنقلة) ثقيلة الحمل وعاجزة عن الردِّ، وأثبت الجنرال لاموريسيير Lamoricière باسم الحكومة الفرنسية،ثم الدوق دومال للأمير أن طلبه مقبول بالإنسحاب إلى الشرق الأوسط، وإلى الإسكندريـــة بالذات.كـــان ذلك في 23 ديسمبر 1847.

وبعد سنة، حل الأمير لويس نابوليون Louis Napoléon الذي أصبح رئيسا للجمهورية محل لويس فيليب في الحكم. ثم أن الأمير الرئيس عمد بواسطة انقلاب، لم تكد تضفى عليه صبغة شرعية في الثاني من ديسمبر 1852، إلى تنظيم استفتاء شعبي صوت عليه فيه سبعة ملايين ونصف مليون من الناخبين باسم الإمبراطور لويس نابوليون الثالث.وهنا عرفت "تهدئة" الجزائر أسلوب جديدا. فإذا كان لويس فيليب قد اعتبر الجزائر عبئا ثقيلا، لكنه مفيد ونافع، فإن نابوليون الثالث كانت له نظرة أخرى، نظرة تعطيه تصورا "إمبرياليا" للإستعمار عندما تخيل في حدود سنة 1860، لا سيما بعد زيارته الأولى للجزائر، فكرته الشهيرة المتعلقة بإنشاء "مـــملكة عربية".

كان للإمبراطور مترجم اسمه (إيربان)، وكان مُولَّدا من أم غويانية، وقد درس اللغة العربية دراسة جادة في القاهرة فأتقنها وأجادها، وأسلم فأسمى نفسه إسماعيل. وكان من المؤكد أن له تأثيرا على نابوليون الثالث، لأنه كان يحمل مشاعر موالية للعرب، وكتاباته دليل على ذلك.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت (المملكة العربية) التي كان نابوليون يحلم بها في قرارة نفسه، مملكة أوسع تمثل الجزائر فيها حقلا تجريبيا، ومثلا يُحتذى في آن واحد، بل وقد كان الإمبراطور يفكر في بلاد الأهرام (مصر). فحيث أخفق بونابرت على الرغم من مدافعه، كان في استطاعته هو أن يفلح بدبلوماسيته.كان له مسلكان في مجال الدبلوماسية: أحدهما عن طريق وزيره للشؤون الخارجية، ويُعَوِل فيه على المساندة الرسمية لتركيا.والآخر خفي صامت،هدفه تقويض أركان الإمبراطورية العثمانية، ثم التقدم إليها في صورة المُخَلِّص المُنقِذ لها، عندما يصيبها الوهن والتفكك.

كان لـــ فيرديناد دولِسيبْس Ferdinand de Lesseps صانع قناة السويس وقريب الإمبراطورة علاقات متواصلة مع مختلف الأوساط، وكان يُستَقبَل في المحافل والصالونات كما يستقبـــل أيُّ سفيــــر.

* * *

شهدت عشرية 1850 – 1860 توغلا أعمق للقوات الفرنسية داخل الجزائر، لا سيما بالإستيلاء على مدينة ورقلة سنة 1854 وانتزاعها من الثائر المتمرِّد محمد بن عبد الله، وبالتوغُل في منطقة القبائل سنة 1857. غير أن الإمبراطورية الثانية كان يُعِدُّها كثير من الفرنسيين نظاما غاصبا، وينظر إليها الأوروبيون كما لو كانت ديكتاتورية جديدة، يلُوح فيها الشَّبح الخطير الذي كان يمثله نابوليون الأول .

http://www.al-maktabeh.com

كان كثير من رجال الفكر والأدب يهاجمون النظام الجديد، ونحن نعلم أن فيكتور هيجو كان من ألَدِّ خصومه، وأنه انسحب لذلك إلى جزيرة (جرزي Gerzy).ولم يخف لامارتين Lamartine مخالفته للنظام وعدم موافقته عليه.وكان بلزاك Belzac الذي رحب بالجمهورية وهلّل لها وهتف، قد فارق الحياة.

لقد فتحت أبواب البلاط الإمبراطوري أمام أدباء من الصف الثاني مثل بروسير ميريمي Prosper Merimée وايدموند أبوت Edmond About، ما ذهب البعض إلى حدِّ التأكيد بأن سنة 1850 كانت تمثل (واترلو Waterloo) فرنسا الأدبي.

لكي يطلع الإمبراطور في عين المكان على تطورات الوضع، نزل بمدينة الجزائر رفقة الإمبراطورة أوجيني Eugenie في شهر مايو 1860، وقد حُظِي فيها باستقبال حماسي.كان العرب المهزومين وغير الخاضعين يرون فيه شخصية الأمير أكثر مما ينظرون إليه كرئيس. وكانت شهرته التي شاعت وذاعت في كثير من أطراف الجزائر وأرجائها، تجعل منه ذلك الرجل الذي سيتفهم حضارتهم ويحترم هويتهم.لكن الإمبراطور اضطر إلى اختصار رحلته، بسبب وفاة أميرة (ألب Albe)شقيقة الإمبراطورة أوجيني في باريس.

على الرغم من أن نابوليون الثالث لم يتمكن من الإطلاع على الأمور إطلاعا كافيا، إلا أنه شرع في الإعداد لفكرته الأصيلة المتمثلة في تأسيس (مملكة عربية)، وكان الفصل الأول من هذه المسرحية إقدامه في شهر مايو1861، على دعوة كبار الأعْيَان

مكتبة المهتدين الإسلامية

ورؤساء العشائـــر الجـــزائريين لحضور رحلة صيد وطراد في (كومبيان Compiègne) وكان من بين المدعوين رجل بارز هو الباش آغا الـــمقراني الشهير (باش آغا) (مجانه) بمنطقة سطيف.

كان الإستقبال كبيرا وحافلا، والإتصال الإنساني المتسم برقة المشاعر ثابتا. وقد عرض القصر مباهجه ومظاهر بذخه أمام الضيوف، الذين بهتوا وأخذ منهم الإعجاب أيَّ مأْخَذ. بينما كان فيكتور هيجو المعروف بشدّة حساسيته ورثائه لحال الفرنسيين يؤلف كتابه (البؤساء).

حرر الإمبراطور في السنة ذاتها، رسالته الشهيرة إلى الماريشال بيليسيه، وكان آنذاك واليا عاما على الجزائر، كشف فيها عن آرائه في طريقة إدارة الشؤون الجزائرية، وأسلوب معاملة الجزائريين. وفي 22 أبريل 1863 أعلن القرار المشيخي الأول senatus consulte [1]. واطّلع على مستندات بشأن المستعمرة، سعيا منه إلى سد الثغرات، ثم نزل بميناء الجزائر في 03 مايو 1865.

كان الإستقبال الذي خص به بالغ الحرارة. وقد شهد الإمبراطور الذي نصبت له وللإمبراطورة خيمة شرفية بضواحي مدينة الجزائر (الحَرَّاش) مهرجانا كبيرا في الفروسية، ولما أخذ الفرسان يطلقون أمامه طلقات نارية تشريفية، وهم في أزهى

1- قرار صادر عن مجلس الشيوخ في روما القديمة، قرار مصادق عليه من طرف مجلس الشيوخ الفرنسي في عهد الإمبراطورية الأولى والثانية، بمثابة نص قانوني .

http://www.al-maktabeh.com

الحلل وأبهاها، ويوقفون مطاياهم بغتة على بعد مائة متر من الخيمة، صاح قائلا: " هذا ليس شعبا، إنه جيش"!

هل كان ذلك إعجابا أو نذيرا بسوء عاقبة ؟ هما معا دون شك في آن واحد، إذ لم يكن الإمبراطور يشك في أن المقراني ضيفه في (كومبيان) سيقوم بعد ست سنوات بتعبئة مئتي ألف مقاتل ضد فرنسا. كان الإمبراطور كما نعلم قد تردد بادئ الأمر في التوجه إلى الجزائر، لأن أولاد سيدي الشيخ كانوا في ثورة على الإحتلال بقيادة سي سايمان.

كان سكان الجنوب على علم ودراية بنظريات (المكاتب العربية)، فيما يخص إيواء القبائل وتجميعهم في معسكرات، كما كانوا على علم بمشاريع مصادرة الأراضي التي ستسلط عليهم.

أرسل الجنرال بيليسيه طابورا في اتجاه جبل عمور بقيادة العقيد، بوبريتر Beauprêtre القائد الأعلى لدائرة تيارت العسكرية، وفي ليلة السابع أبريل 1864، هاجم قائد الثورة سي سليمان ذلك الطابور الفرنسي وقتل العقيد، بينما انضم الجنود الذين كانوا يرافقونه من "الصبايحية" و" القوم" إلى معسكر الثائرين. وكان من شدة الواقعة وسرعة انتشار خبرها، أن استولى الرعب والذعر على نفوس السلطات العسكرية،وزاد من حماس القبائل والعشائر، فامتدت الثورة من جبل عمور إلى المدية (التيطري)، بل حتى منطقة القبائل الشرقية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وأرسلت طوابير كثيرة على عجل، واستمرت الثورة مدعومة بالفريق الآخر من أولاد سيدي الشيخ الغرابة (المقيمين بالجانب الغربي)، اللاجئين إلى الحدود المغربية.

* * *

قام (مجلس الشيوخ) الذي أنشئ سنة 1865، على نحو أكثر احكاما بتحديد وضعية الأهالي القانونية، فسَنَّ بالخصوص قواعد الإلتحاق بالمواطنة الفرنسية، ولم يكن هناك من شرط لنيل هذه المواطنة إلا تخلّي المترشح لها، ابتداء من سِنِّ الواحدة والعشرين، عن قانونه الشخصي كمسلم، وقد رفض الجزائريون جميعا ذلك كله، معتبرين مثل هذا العمل ارتدادا مُهِينا عن الدِّين.

استمرت الإضطرابات تنتشر وتتسع حتى سنة 1870، عندما قاد الجنرالان ويمفن Wempfen وشانزي Chanzy حملة عسكرية شمال مدينة بشّار على اتحاد (قبائل الزغادة) المتهمة بشَنٍّ غارات على التراب الجزائري. كانت الحملة دامية إلى حدٍّ بعيد، وتقرر إعمال السَّيف في السُّكان دون تمييز، وحصل الماريشال راندون Randon الذي خلف بيليسيه على كامل السلطات من الجيش، وتم إخضاع عمال العمالات (الولايات) لسلطة القادة العسكريين.

وحدث خلال السنة ذاتها أن دخل نابوليون الثالث في حرب ضد ألمانيا، ووقع في الأسر أربعمئة ألف جندي، وسقط في ميدان المعركة عشرة آلاف جندي من بين العشرين ألفا الذين أرسلوا إلى جبهة القتال. وكان استسلام سُـدان Sedan نهاية

http://www.al-maktabeh.com

الإمبراطورية الثانية. وإعلان الجمهورية الثالثة في الرابع من سبتمبر 1870.

كان المقراني في ذلك اليوم داخل مكتب الوالي العام، الماريشال ماك ماهون Mac Mahon، وكان قد قدم استقالته لحينه من منصب الباش آغا.وقد رفضت هذه الإستقالة في بادئ الأمـــر،ثم أكدها المقراني في السابع والعشرين فبراير 1871. وبذلك شعر في نفسه كامل الحرية من الناحية الأدبية لكي يتصرف بكل استقلالية.

كان الوضع في الجزائر يتَسِّم بالرفض وبظاهرة العصيان والتمـــرُّد، وقد ترسَّمت الإدارة العسكرية آثار الإستعمار الإستيطاني، زيادة على إجبار القبائل على الإستقرار في معسكرات مجمـــعة.وهكذا تم بموجب قـــانون 15 سبتمبر 1870 توزيع الأراضي على المستوطنين من المعمِّـــرين الجدد القادمين من مقاطعتي الألزاس واللورين، والذين تلقوا دون مقابل مئة ألف هكتار من أجود الأراضي وأخصبها، لكي يحافظوا على جنسيتهم الفرنسية. وفضلا عما حصلوا عليه في الريف، تم تزويد كل فرد منهم بمبلغ خمسة آلاف فرنك.

كما إن تأميم الغابات من جهة، والتحديد المفرط والتعسُّفي للمراعي من جهة أخرى، وسياسة إقامة الحواجز والموانع، كلها قد ألحقت ضررا بالغا بالأساليب الزراعية الكبرى، التي كانت

مكتبة المهتدين الإسلامية

مُتَّبعة حتى ذلك الوقت، وحدَّت كثيرا من فرص وصول السكان إلى مواقع المياه.

تُضَاف إلى كل هذه الإجراءات الجائرة كلها الأوبئة، مثل الحمى الصفراء (الكوليرا) والهيضة (التيفوس) التي أودت بحياة عدد كبير من السكان، إلى درجة أن القطاع الصحي اقتصر جهوده على الأوروبيين وحدهم.ويشهد على ذلك الدكتور موران أميدي Maurin Amedée الذي توجته الأكاديمية الفرنسية في ذلك الوقت، نظرا لأعماله الكثيرة وأبحاثه في مجال العلوم الطبِّية، بعبارته الآتيــــة: "ليس هناك من قلم بشري يستطيع أن يصف ما رأيته بأم عيني ".

وقد صُدَّتْ جموع من الجزائريين الذين أنهكهم الجوع، ونال منهم العطش، ومُنعوا من دخول مدينة الجزائر، بينما كان المقراني يفتح مخـــازنه الكثيرة، ويستقبل حول مزارعــــه عددا كبيرا مــــن مواطنيه.

هكذا، إذن سلكت السياسة المتبعة في الجزائر طريقا يُعاكس تماما تصورات نابوليون الثالث ومفاهيمه.إن الفقرة الآتية المُقْتَبسة من رسالة كتبها "ماك ماهون"بتاريخ 11 أغسطس/ أوت 1965، ردا على الرسالة التي وجهها إليه نابوليون الثالث، لتقوم شاهدا تاريخيا من الدرجة الأولى:" تعلن جلالتكم بصراحة أن الأهـــالي قد عومِلوا معاملة المهزومين، وأن قواتنا كانت ظالمة تقف منهم موقفا عدائيا. ولو فرضنا أن عملا بمثل هذه الخطورة كان

http://www.al-maktabeh.com

صحيحا، وهو أمر هيهات أن يقوم عليه دليل، فهل هناك فائدة في أن يقوم رئيس الدولة بإشاعته على الناس ونقله إلى علمهم ؟

" هل لنا مصلحة في أن نُدِين أنفسَنا، وأن نتيح باعترافنا للعالم أجمع، حتى اعتبار ما هو قابل جدا للنزاع على الأقل بمثابة أمر واقع بالفعل؟ وهل من الواجب أيضا أن نقوم بمثل هذا الإعتراف للأهالي، وقد لا يرون في هذا الصَّنِيع دليل اهتمام وعناية بهم، قدر ما يعدونه علامة ضعف من جانبكم،..والواقع أن كل ما يمكن أن يتهمونا به هو انتزاعنا منهم حوالي مئتي ألف هكتار من الأراضي، التي قد تكون حقوقنا فيها موضع نزاع، وتسليمها للأوروبيين ".

* * *

لِنَعُدْ مرَّة أخرى إلى الحديث عن المقراني.

لقد تابع المقراني حتى الآن تطور الأحداث في الجنوب الوهراني، وكان دائم الإتصال بقبيلة أولاد سيدي الشيخ الذين كانوا محل مراقبة شديدة. كان يأتي بمن يقرأ له صحف فرنسا، وقرر مع أخيه بومرزاق الدخول في ثورة على قوات الإحتلال.

عقد المقراني مجلس حرب في 14 مارس 1871، واقترح خطة حربية بعد أن تصالح مع أولاد عبد السلام، واتصل بالشيخ الحدَّاد شيخ الطريقَة الرَّحْمانية.

وفي الثاني من أبريل 1871 نادى الشيخ الحدَّاد على ملأ من الناس في ساحة (صَدُّوق الكبرى) بالجهاد لطرق المحتل من البلاد،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وسانده في ذلك ولداه عزيز ومحمد، وهكذا حصل إجماع القبائل كلها، واجتمعت حول لواء واحد. وبينما كان نداء الجهاد يُرَدِّدُ صداه من قبيلة إلى أخرى "مُقَدِمُو" الطريقة، كان المقراني يتصل برؤساء القبائل والعشائر الآخرين، ويوفد مبعوثين عنه إلى جميع الأنحاء، كما قام بتوزيع الأدوار على مسرح العمليات بين كثير من ملازميه وأعوانه، لا سيمـــا أخوه بومرزاق وعزيز بن الشيـــخ الحدَّاد.

وقد قدر عدد المعارك التي دارت رحاها خلال هذه الثورة بما يزيد على مائتي وأبعين معركة، واشتدَّ عنف المجابهات من برج بوعريريج إلى سوق أهراس مرورا بسطيف، ثم باتنـــة وبسكرة ودَلّس، وباليسترو (الأخضرية)/ وأمَّال (صور الغزلان)، بجاية وتيزي وزو، وفور ناسيونال (الأربعاء نايت ايراثن). ثم وصلت هذه المعركة في 20 يناير 1871 إلى أبواب مدينة الجزائر، وانتهت بالضبط إلى مكان يبعد عن العاصمة باثني عشر كيلومترا. وقد بلغت الحيرة منتهاها في صفوف المعسكر الفرنسي.

أما المقراني الذي شجعته ضخامة الحركة الثورية، والذي كان هدفه دخول الجزائر واحتلالها، فقد خاض معركته الأخيرة في (وادي سوفلات) ضد الجنرال سِيريس Céres بتاريخ 05 مايو 1871، ولفظ أنفاسه الأخيرة بعدما ما أُصيب برصاصة بين عينيه، وقد دفن بقلعة بني عباس، وأُخْفِيت وفاته طوال أيام عديدة. وما لبث بومَرْزاق أن تقلد مهام القيادة، واستمر في مناوشة الفيالق الفرنسية ومهاجمتها من شهر مايو 1871 إلى شهر يناير 1872.

http://www.al-maktabeh.com

لكنه وهو الصنديد المعروف بصلابة عوده وشجاعته الكبيرة وكفاءته العالية في التنظيم، قرر بعد أن اشتد الخناق عليه، أن يتجه بقواته إلى الحدود التونسية لتسترجع وتعيد قوتها ونشاطها. لكن كان عليه أن يعبُـرَ الصحراء ويتجشَّم أهوالهـا لتحقيق هذا الهدف.

لم يقبض على بومرزاق في 20 جانفي 1872 إلا وهو مُغْمى عليه في قلب هذه الصحراء، قرب مدينة ورقلة، ولم يعد إلى رشده إلا وهو أمام الجنرال دولاكروا Delacroix.تمت محاكمة بومرزاق وعزيز بن الشيخ الحداد وعدد كثير غيرهما من طرف محكمة الجنايات بقسنطينة، وحُكِم عليه بالإعدام، ثم نُفي وأُودِع قلعة حصينة بجزيرة كاليدونيا الجديدة (Nouvelle Calédonie).

وبعد صدور الحكم عليه، أطلق كلماته المأثورة، وهو يمر أمام جمع من السَّيدات كن يراقبنه معجبات به أو بدافع من الفضول فقال:" إيه، لابدَّ من الموت عاجلا أو آجلا. أما بالنسبة إليَّ، فإن الموت قد عاجلني قبل الأوان بقليل ".

نُقِل بومرزاق إلى (نوميا Nouméa) سنة 1873، ولم يعد منها إلى الجزائر إلاّ سنة 1904، أقام سنة واحدة تقريبا لدى ابنه مفتي مدية الأصنام (الشلف)، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في 05 مايو سنة 1905. وتشاء المصادفات التاريخية الغربية أن تشاطره حياة المنفى في "نوميا" ثائرة فرنسية هي لويز ميشال Louise Michel من بلدية باريس، وأن تفارق الحياة هي أيضا في نفس السنة.

* * *

مكتبة المهتدين الإسلامية

قام أولاد سيدي الشيخ بمحاولة جديدة سنة 1872، بالقرب من سَبْدو (غرب الجزائر)، وكان المبادر بها هو سي قدور بن حمزة الذي كان معسكرا آنذاك على الحدود الجزائرية المغربية. غير أن ثورة أخرى كانت قيد التحضير والتدبير، لقد كان بوعمامة الذي سبق أن أسس زاوية في (مَغْرَار) قريبا من مدينة عَيْن الصَّفراء سنة 1876 يتدبر أمر القيام بعمل مسلح. وقد ذاع صيته سنة 1880، ثم امتد في سنة 1881 ليشمل الهضاب العليا الوهرانية كلها، وقام بحملة اتصالات واسعة مع رؤســـاء القبـــائل والعشائر.

بدأ كل شيء في 22 أبريل 1881، إذ اغتيل رئيس (المكتب العربي) في البِّيض، الملازم واينبرنير Weinbernner عندما كان يحاول القبض على رسل بوعْمَامة الذين كان عددهم يتكاثر ونشاطهم في ازدياد، وسرعان ما انتشر الخبر وانطلقت إشارة القيام بحركة عصيان وثورة " أوسع وأشد فتكا من الحركات السابقـــة ".كتب شارل روبير أجرون Charles Robert Ageron في كتابه (الجزائريون المسلمون وفرنسا) يقول:"صمدت جماعات بوعمامة الثائرة يوم 10 مايو عند اصطدامها الأول بقواتنا، ثم تسللت عبر طوابيرنا، فتوغلت في ناحية تيارت وفرندة وسعيدة، ونهبت ورشات الأوروبيين الخاصة باستغلال الحلفاء، ومع أن عدد الضحايا من الفرنسيين لم يبلغ ما بلغه عدد الضحايا الإسبان، إلا أن حادثة الثورة في الجزائر نقلتها الصحف الأوروبية كلها وعلقت عليها، وكان لها صدى سياسي.

http://www.al-maktabeh.com

طالبت الحكومة الاسبانية بتعويضات هامة تدفع لأسـر الضحايا. وكان ردُّ باريـس عليها أن ذلك أمر لا يتحقق إلا إذا قدمت الحكومة الإسبانية تعويضات للضحايا من الفرنسيين في "الحرب الكارلية". كتب موباسان Maupassant محاولا تبرير ثورة سنة 1881 فقال: " لقد فعلت أقوام من الرجال ذوي البشـرة السمراء (بعيدا عن كل مدنية أو قانون) ما كان يفعله أجدادهم في الأراضي الجديـدة: كانوا أشد بأسا وعنفا ودموية وفظـاعة تجاه السُّكان البدائيين. وكان لا يُمْكن أن نغفـر له ما سعى إليه من إحلال ابتزازات الاسبان وتجاوزاتهم محل ابتزازات الفرنسيين وتجاوزاتهم".

تواصلت هجومات بوعمامة دون انقطاع مستغلا عامل المفاجأة، وكانت القوات الفرنسية المتمركزة في وهران آخذة طريقها إلى البلاد التونسية، التي قرر جول فيري Julles Ferry احتلالها بدعوى أن "الفوضى السائدة في هذا البلد تشكل خطرا على تهدئة الجزائر". أما الحركة الثورية، فإن اتساعها بلغ مبلغا جعل الماريشال كامبون Cambon، يقتصر في تقرير بعث به إلى رئيس مجلس الوزراء بتاريخ 26 مايو 1881 على" الإشارة هنا دون اتهام أحد بعينه إلى ضآلة نجاح عمليات الإحتلال الأولى".

ومن المعلوم أن أعمال الرِّيادة والإستكشاف الفرنسية في الجنوب، قد أُوقفت بسبب "انعدام الأمن"، بعد ثورة سنة 1864. كانت تُعَدُّ في مطلع سنة 1881 من قبيل الأعمال التي يمكن القيام بها من جديد. وفي ذلك الوقت بالذات، أغتيل فلاتير

مكتبة المهتدين الإسلامية

Flatters في منطقة عَيْن صالح. وقد لعب المستكشفون في غالب الأحيان دور الرواد للقوات الإستعمارية. كان فلاتير قائدا أعلى لحامية الأغواط. وقد انسحب بوعمامة إلى الجنوب، لمزيد من تنظيم صفوفه، ريثما يحين الوقت المناسب لتوجيه ضربات جديدة للعدو، لا سيما أن أولاد سيدي الشيخ الغرابة، في مدينة ورقلة كانوا مناهضين للوجود الفرنسي.

ساد السُّكان في ناحية البَيِّض وفي أماكن أخرى من الجنوب الوهراني نوع من الإضطراب والغليان، لأن رسل بوعْمَامة كانوا يجوبون مثلث البَيِّض- آفلو- تيارت، وكانت منطقة آفلو معروفة بموقعها الحساس، وتوفرها على مخزن احتياطي للحبوب، كما في سنوات 1864 – 1867. كما أن الجفاف الذي لحق بالبلاد عام 1864، والكفاح الذي شهدته تلك السنة،قد أصابا المنطقة بأضرار بالغة، لا سيما أن الجزائر تعرضت لأخبار مثيرة للقلق وصلت مقر القيادة في البَيِّض عن التحضيرات الجارية في تافيلات (جنوب المغرب)، وعن قرب حدوث غارات جديدة، لا يعرف أحد مدى ضخامتها وخطورتها.

كانت حامية (مدينة البَيِّض) العسكرية تواصل غاراتها دون أن تقوى على الإستقرار في مكان من غير الثكنة، وكانت تعد خططا ذات طابع بسيكولوجي، يساعدها في ذلك رجال المَخْزَن الذين سبق أن عينهم داي الجزائر، والذين كانوا أقسموا يمين الولاء لممثلي الباب العـــالي. كانوا يتميزون بمعرفة البلاد والعباد، وبامكان اقتراح " أفكار جديدة وأعمال فعَّالة ناجعة ". وطلبت القيادة العسكرية المتمركزة في (البَيِّض) من قاضي الناحية المُسمَّى

http://www.al-maktabeh.com

عطاء الله إصدار فتوى، تقضي بالحط من المقاتلين ونفي الإعتبار عنهم، ووصفهم بالخارجين عن القانون بدلا من اعتبارهم مجاهدين، كما يدَّعُون.

وما أن شاعت فحوى هذه الفتوى حتى رد عليها الشاعر محمد بلخير جهارا نهارا بالقصيدة التي مطلعها:" وحنا بنا الناس اهترف اهتريف"، وتولى نشرها وإذاعتها على أوسع نطاق، ولما علم القاضي عطاء الله بها، وأصابه من الذّعر ما أصابه، وهل تاب؟ – لاذ بمكة حيث وافته المنية بعد أيام قليلة.

كانت معركة (تازينه Tazina) التي هُزِم فيها العقيد إينو سنتي Innocenti من أشد المعارك وأقساها. قرر العقيد نيغريي Negrier الذي أرهبته سمعة بوعمامة المتزايدة نسف قُبَة أولاد سيدي الشيخ. وإذا كانت السلطات العسكرية لم يَرُقْها هذا العمل، فإن المعمِّرين أهدوا له تكريما علانيا سيف تشريف. وقرر الجنرال طوماسين Thomassin بموافقة الوالي العام، الدخول في مفاوضات مع سي قدور بن حمزة المرابط في معسكر له بالمغرب. وكانت النتيجة إعلان الهدنة. لكن على الرغم من أن سي قدور أمضى الإتفاق، كان حريصا على أن يكفل لنفسة حرية التحرك، التي تمكنه من العودة إلى حمل السلاح. لم يعد إلى الجزائر إلا بعد سنوات عديدة، ورفض العرض المالي الذي كان مقررا دفعه إليه من قبل.

لقد انتهت إلينا قصص عن المعارك، وذكريات وشهادات عن تلك الحقبة من الزمن تخطت القرن، ووصلتنا طبعا بطريق السمع،

مكتبة المهتدين الإسلامية

لأن النقل الشفوي هو الذاكرة، والذاكرة هي الشعب، وهنا تتجلّى نقطة الشبه بين الأسطورة الحقيقية والتاريخ، بما تنطوي عليه من سجل ضخم وحافل بالأحداث.

* * *

احتفل في الخامس يوليو سنة 1930 بالذكرى المئوية للإحتلال في أبهة وزهو. وكانت الملابس الزاهية البراقة تملأ الساحات العمومية، وكانت البرانيس الحمر الأرجوانية التي كان الباش آغاوات يرتدونها، تقترن بأزياء القادة العسكريين وبملابس المعمرين الأنيقة، وكانت برانيس أخرى أكثر بساطة قد صُفِفَت ببراعة للمناسبة وعلى صدرها نياشين وأوسمة عديدة، استحقت في ميادين القتال إبان حرب 1914 – 1918.غير أن الوجوه ظلت كئيبة والعيون تدمع غضبا.

كانت الأنظار تتجه أثناء ذلك إلى المشرق العربي، للمناداة بعروبة الجزائر.وكان ابن باديس المفكر والرائد قد ألقى قصيدته - المرجع، عنوان وطن وهوية أمة هوية حية باقية، ما ممـــاتت ولا رحلت:

شعب الجزائر مسلم * وإلى العروبـــة ينتسب

ورددها الشارع وتبناها على نطاق واسع، وتوالت الإتصالات مع القاهرة وبغداد ودمشق، تلك المدينة التي احتضنت أرضها جثمان عبد القادر. وقام الشعب بفتح مدارس وكتاتيب في جميع أنحاء التُّراب الجزائري، لتلقين أبنائها اللغة العربية المطرودة من

http://www.al-maktabeh.com

المدارس الفرنسية بالجزائر، كما لقّن أطفالنا بأن أمّتنا هي الأمة العربية (من الخليج إلى المحيط).

عندما انفجرت مأساة فلسطين سنة 1948، خصّص لها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهو أحد الرّواد الأعلام، سلسلة من سبع مقالات بجريدة (البصائر) الأسبوعية بعنوان "دموع على فلسطين". كانت عبارة عن قرار اتهام تاريخي يستنكر الجريمة، ويُؤنّب المتآمرين ويشنّع عليهم. كما كانت فضلا عن ذلك، مكتوبة بلغة متأثرة مؤثّرة، ترفع صاحبها إلى مقام كبار الكتاب والأدباء في العالم العربي.

كانت الأحزاب السياسية تتنازع على أصوات الناخبين في جميع أنحاء القطر، ومهما تكن نقائصها ونقاط ضعفها في التقدير الشامل للعمل السياسي الجزائري، فإنها استطاعت أن تقوم بدور لا يُستهان به في التربية السياسية للجماهير. بل كنا نعتقد أن الجنرال شارل ديغول CH. De Gaulle سيقوم بمبادرة حميدة لصالح القضية الجزائرية أثناء زيارته مدينة الجزائر، اعترافا لما قدمه الشعب الجزائري من ضحايا أثناء مواجهة الخطر النازي، ضحايا كثيرة احتضنتها المقابر الأوروبية. لكن رجل 18 يونيو/ جوان سنة 1940 لم يحرِّك ساكنا و لم يفعل شيئا يذكر.

ماذا نقول عن حوادث سطيف وقالمة وخرّاطة في الثامن مايو 1945، عندما احتفلت فرنسا بانتصار حلفائها، فأطلقت النار على الشّعب الجزائري، الذي قاتل إلى جانبهم جميعا. لقد أدركنا

مكتبة المهتدين الإسلامية

في ذلك اليوم أن الحرية لا تمنح، وإنما تنتزع انتزاعا، ولم تعُدْ هناك لغة أخرى غير لغة السِّلاح.

بعد أن دفع مجاهدو سنة 1945 تردُّدَات الأحزاب السياسية، وقَوَّضُوا حتى الأسباب والدواعي لأي حوار غير مأمون النتائج، شرعوا في فضح القوة الفرنسية، وإزالة ما علق بها من أوهام في نفوس الناس. لقد تولّد عن الرعب الذي ساد أوساط الخصم في الأيام الأولى حملة قمع رهيب، فعجل ذلك القمع بالإلتزام السياسي، ولم يكن للشعب من سبيل لضمان بقائه إلا الدفاع عن نفسه، ولا بد لهذا الدِّفاع عن النَّفس من الإتحاد، فكان التضامن في السُّجون والمعتقلات، والإخاء في ظل السِّلاح والعمل السِّري في المدن، والروح القتالية في الجبال والأدغال، فتسارعت حركة الأحداث وتحولات التاريخ، وأدَّى ذلك كله إلى تحقيق ما كان مأمولا ومنشودا.تصاعدت المواجهة، فما بَرِح الإجماع على الكفاح يفرض نفسه فرضا على العالم، بما في ذلك هيئة الأمم المتحدة.

وعندما نقلت جبهة التحرير الوطني الكفاح إلى فرنسا، وجد هذا الكفاح له صدى في أوساط الشعب الفرنسي. وقد أدرك الذين كانوا يتولون (حمل الحقائب)، وينظِّمون شبكات الدَّعم والمساندة، يأوون المناضلين ويعبرون الحدود، أن شتم المستقبل غباوة سياسية، وليس هذا عبارة عن ذكاء القلب فحسب، بل هو شجاعة الذّكاء أيضا.

http://www.al-maktabeh.com

كُنَّا طوال ثماني سنوات ندفن موتانا كل يوم. وكانت فرنسا تدفن موتاها كذلك، لكنها كانت تفعل ذلك دون شكٍّ بتكلف أكثر وطابع رسمي أوفر.وقد تحولت الموت وشبحها الرَّهيب إلى شيء تافه وأمر عادي مألوف، وحقيقة واضحة بَيِّـنَة إلى درجة أن المليون ونصف المليون من الشُّهداء لم يعودوا سوى رقم إحصائي،بذله الشعب الجزائري ثمنا لاسترجاع حريته.

إن الحرية غالية وباهظة الثمن. وقد دُفِع الثَّمن بسخاء، وخسرت فرنسا جزءا من جيشها وكادت تخسر فيها سمعة اسمها.

كانت أمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا اللائي بقيْن وحدهـن مع الشيوخ والعجزة، لعدم تمكنهم جميعا من الإلتحاق بالمجاهدين في الجبال وميادين القتال، أو لانفلاتهم من السجون وظلمات الزنازين، يشهدْنَ وفي قلوبهن حسرة وألم، وعيونـهن مبلَّلة بدموع الغضب، عمليات القصف بقنابل النابالم المحرقة، وأعمال الإغتصاب والنَّهب والسَّرقة، والإعدام الجماعي بلا محاكمة.

ماذا نقول عن المعارك البطولية والمآثر الحربية، وبيانات النصر؟ إن التواضع ليَفْرِض نفسه على الضمير عندما يتعلق الأمر بواجب استعمال العنف، وضرورة نشدان الحرية.لقد التقى خصمان في قتال غير متكافئ يدافع فيه أقواهما عن قضية لم يكن يؤمن بها، بينما كان يقف إلى جانب أضعفهما حقٌّ ثابتٌ وإيمانٌ بالقضية. وكانت النتيجة أمرا حتميا وحكما مقضيا، إذ انتصر مقاتل سنة 1954 على معتدي سنة 1830.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانوا يدْعوننا "الفَلاّقة "وينْعَتوننا بالخارجين عن القانون ويصفوننا "بقُطّاع الطُّرق"، بل أنزلونا حتى عن مرتبة قطاع الطرق الشرفاء الذين تحدث عنهم ايدموند أبوتEdmont About في كتابه (ملوك الجبل).

لئن كان إيميل زولا Emile Zola قد مات في الظروف التي نعرفها، أوبالأحرى التي لانعرفها، فلأنه كتب كتابه(أتّــهم)، وقد كتب الشعب الجزائري بدوره كتابه (أتّـــهِم). لكنه كَتبه هذه المرة بدماء شهدائه، وكان التاريخ إلى جانبه. كان ذلك في أول نوفمبر سنة 1954. كان ذلك اليوم هو يوم ميلاد أسطورتنا.

- نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة). ع 84 سبتمبر-أكتوبر، الجزائر 1984.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأمير عبد القادر

- لالة مغنية ومعاهدة طنجة
- وقف القتال بالتفاوض
- عبد القادر في مدينة بـــو
- عبد القادر في مدينة أمبواز وإطلاق سراحه
- استقبال عبد القادر في باريس
- عبد القادر في دمشق وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي
- المقابلة بين عبد القار وبيجو
- عبد القادر شاعرا

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

لالة مغنية ومعاهدة طنجة

كان عبد القادر المقيم على الرغم منه ما وراء الحدود مع المغرب، وفي الوضع الذي وجد فيه نفسه محصوراً مع دائرته، أي ما بقي من زمالته، قد تصوّر مخططاً له وجهان: أولهما القيام بغارات سريعة في الجزائر لمنع القبائل من الرضوخ لفرنسا، وثانيهما جرّ مولاي عبد الرحمان (سلطان فاس) إلى أن يصبح حليفه ضد فرنسا. ولهذه الغاية، كان عليه أن يجرّ الجيش الفرنسي إلى التوغل في الأرض المغربية.

شنَّ غارة صاعقة على قبيلة صمادة التي كانت قد تخلّت عنه بعد معركة 1843/11/11. وكان الجنرال بيجو، القلِق من ذلك العمل الذي اعتبر جريئا، وبهدف اتقاء هجمات أخرى، خطط لإقامة مخيم متقدّم شمال غرب تلمسان، في مكان معروف باسم مزار السَّيدة لالة مَغْنيَة.

لكن هذا الإحتلال عجَّل في إقدام الأمير على تنفيذ مخططه: في الواقع وحسب اعتقاد المغاربة Marocains فإن زاوية السيدة لالة مغنية موجودة على أرضهم (20 كم شمال شرق وجده)، مما جعلهم ينظرون إلى احتلالها كأنه انتهاك للأرض، مقرون بتدنيس المقدسات. وأمام تدنيس ضريح المرأة الوليَّة، أقسمت القبائل المغربية، التي حرّكها شتى الهيئات الدينية على الإنتقام لهذه الإهانة الموجّهة إلى الدين. فجرى إيفاد رسُلٍ في كل الإتجاهات لإشعال الأهواء. فراحت تغلي كل مناطق المغرب الشرقية، ولم يتوانوا هناك عن إعلان الجهاد.

http://www.al-maktabeh.com

ولما رأى سلطان فاس نفسه منجرفاً بالإعصار، أُرغم على اللحاق بالحركة وحتى على تصّدرها واستباقها، بحيث وجد نفسه في حالة حرب ضد فرنسا، لكنه ما كان يرغب في هذه الحرب، فحاول تجنّبها حين أشرك ممثله القائد المغربي علي بن الطيب القناوي، في مفاوضات مع الجنرال بيجو. لكن شريحة من قبيلة متحرقة، ورغبة منها في الثأر، أطلقت النار على الدورية الفرنسية. فباتت الحرب محتومة انطلاقاً من تلك اللحظة.

أما عبد القادر الذي كان يتابع مجريات تلك الأحداث باهتمام بالغ، فقد رأى أن الفرصة مناسبة للقيام بعملية إلهاء للعدو لمصلحة المغاربة، فجعل جيش الجنرال بيجو المندفع بقوة، واقعاً ما بين معسكر المغاربة المتمرِّد وبين القبائل الجزائرية الثائرة. ثم عاد إلى الجزائر، وسار حتى منطقة تيارت. لكنه رجع إلى المغرب، حينما التقى في كل مكان الأرتال الفرنسية المتحركة، ورأى القبائل منهارة وقليلة الإستعداد للقتال.

كان ابن ملك فاس، سيدي محمد، الذي كان والده قد أرسله على رأس عساكر قد وصل إلى الحدود. وقبل خوض المعركة وقع حادث كبير ومفاجىء جداً، أدى إلى إحباط معنويات السلطان. كان ابن ملك فرنسا الدوق دو جوانفيل Duc de Joinville، قد قصف طنجة من البحر يوم 06 أوت، وقصف الصّويرة (موغادور) يوم 15 أوت، وطنجة يوم 16 أوت أيضاً؛ وكانت القوات المغربية قد هُزمت في معركة وادي إيسْلي (بالقرب من وجده) 14 أوت 1844.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أدَّت تلك الهزيمة الثلاثية إلى مفاوضات سلام، أو بالأحرى إلى شروط صلح فرضتها قوة السلاح. أما المعاهدة الناجمة عن ذلك، معاهدة طنجة، فقد أدت إلى قول بات شهيراً: « إن فرنسا غنية بما فيه الكفاية لدفع ثمن مجدها». ذاك أن حكومة فرنسا خلافاً للأعراف، لم تطالب بأي تعويض حرب، الأمر الذي أثلج كثيرا صدر السلطان، الذي كان مشهوراً ببخله. لكن فرنسا حصلت من الملك الذي بات مستعداً للتوقيع على كل شيء، ما دام قد أُعفي من كل تعويض، على ما هو أثمن من الذهب والفضة: تسليم عبد القادر. وتُرك تنفيذ الأمر إلى الظروف التي سيحدّدها الوزراء.

تنصُّ المادة الرابعة من هذه المعاهدة المُوَقعة في 10 سبتمبر1844 (راجع الملحق):

« يعتبر الحاج عبد القادر خارجا عن القانون على امتداد إمبراطورية المغرب، وكذلك في الجزائر. وبالتالي سوف يُطارد بيد مسلّحة، من قِبَل الفرنسيين في الأراضي الجزائرية، ومن قِبَل المغاربة في أراضيهم، إلى أن يُطرد منها أو يقع في قبضة هذه الأمة أو تلك. في حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات الفرنسية، تتعهد حكومة جلالة إمبراطور الفرنسيين بأن تعامله باحترام وسخاء. وفي حال وقوع عبد القادر في قبضة القوات المغربية، يتعهّد جلالة إمبراطور المغرب بسجنه في إحدى مدن السَّاحل الغربي للإمبراطورية، إلى أن تتّخذ الحكومتان معاً التدابير اللازمة حتى لا يتمكن عبد القادر، في أية حالة، من حمل السلاح مجدّداً والإخلال ثانية باستقرار الجزائر والمغرب ».

http://www.al-maktabeh.com

كانت قوة السِّلاح تمنح مولاي عبد الرحمان قسوة العدو، فيما كانت تمنح ملك الفرنسيين قلباً حنوناً وأريحياً.

إذن، لم يتطوّر الوضع كما كان يأمله الأمـــير. غير أن وضعه لم يكن ميؤوساً منه. فهو يعرف أن القبائل المغربيـــة والأهـــالي عموماً كانوا مؤيـــدين له، وأن السلطان كـــان يخشـــى مـــن شهـــرته. حتى أن عرش فاس كان في متناوله؛ وسيعترف لاحقاً بذلك في طولون أمام الجنـــرال دوما. يقول: « لـــئن كـــان لم يرغب فيه، فذلك فقط لأن دينه كان يمنعه من إيذاء ذلك الذي اختاره اللّه من جهة، ولأنه كان يعلم، وهو العـــارف بـــالمغرب ومختلف قاطنـــيه، أنه كان يحتاج إلى إثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة من الصراع المتواصل، لا ليحكم مثـــل مـــــولاي عبـــد الرحمان، بل ليحكم بالقوة وبالقانون ».

بدأ تنفيذ معاهدة طنجة دون أن يكون في إمكان الأمير الشك في وجودها. كتب السلطان إلى عبد القادر لكي يوافيه إلى فاس. فردّ الأمير بالحذر على رجل مغلـــوب بالســـلاح، رداً تهربيـــاً وتوقّفت القضية عند هذا الحدّ. فواصل ملاحظة الأحـــداث في الجزائر، فعلم من مواليه الكثيرين أن منطقة وادي الشـــلف قـــد اضطربت مجدداً، فقرّر المضي إليها لكي يحرّك المنطقة. لكن ثلاثة أرتال فرنسية بقيادة مؤلفة على التـــوالي، مـــن الجنـــرالات دو لاموريسيير وكافينياك للتلّ، ومن العقيد جيري للصحراء، كانت قد أغلقت أمامه الطريـــق. فكـــان عليـــه الإنسحـــاب مجدداً إلى المغرب.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أحس الأميرعبد القادر في تلك اللحظة بالذات بيأس حقيقي، إذ كانت تلك إحدى اللحظات التي اكتشف فيها الرجل مقدار عجزه ولاجدواه، وهو الذي كان يشعر منذ طفولته أنه مقدر له القيام بمهمة عظيمة في حياته المستقبلية. كان كمن يريد أن يفرض إرادته على مسار الأحداث، فتصوّر مشروع مسيرة طويلة، مثل مسيرة صاحب رسالة، رسول محرومين يمتحنه القدر. لنتركه يروي ذلك للجنرال دوما في طولون [1]، يقول:

« خطرت لي فكرة السير على رأس كل هؤلاء الأهالي الذين اتبعوا قوتي، فأدعو إليّ جميع المسلمين المعادين لسيطرة النّصارى، والذين ما عادوا يرغبون في تحمّل المزيد من ذلك، وأن نسير جميعنا على هذا النحو برّاً إلى مكة، فنعيش كأصدقاء مع أولئك الذين يستقبلوننا كأصدقاء، ونمرّ فوق أجسام كل أولئك الذين يُظهرون لنا العداء.

فمن يستطيع لدى العرب أن يقاوم العصابات القديمة التي حاربتموها غالباً، أنتم الذين تشتهرون بقوة بارودكم في العالم بأسره؟ كان ذلك مشهداً جميلاً يمكن تقديمه إلى العالم، مشهد ذلك الذي يسعى لإعادة العرب إلى مهدهم، العرب الذين كانوا قبل اثني عشر قرناً قد خرجوا منه لفتح إفريقيا، ولم يعودوا يرغبون في البقاء فيها منذ أن سقطت تحت هيمنة المسيحيين».

1- مقتطف من ملاحظات سجّلها العقيد دوما في طولون.

http://www.al-maktabeh.com

لكن حدثاً طرأ وأضرم حماس الأمير. ذاك أن وادي شلف التي كانت قد شهدت فترة اضطراب، زارها رجل، هو محمد بن عبد اللّه، المعروف أكثر باسم بومَعْزَة. فقدّم نفسه بوصفه (المهـــدي المنتظر)، أي ذلك الذي أرسله الله لكي يقود القبائل إلى الحرب الضَّرُوس وطرد الفرنسيين من الأرض الجزائرية. فســـارت وراء رايته الأقوام التي تشكّلت على عجـــل في منطقـــة أورليانفيـــل (الأصنام سابقا، الشلف حاضرا)، وكلها حماس لخطابه.

ولما كان عبد القادر لا يدري إن كان عليه اتخاذه خصـــماً أو محارباً قابلاً للإسترداد والإحتواء، فقد قـــرّر أن يســـتطلع آراء القبائل المتمردة، كما لو كان الرجل غير موجود. فأرسل رُسُلاً إلى المنطقة، يعلمون زعماء القبائل عن نيته بالإنضـــمام إلـــيهم لمواصلة المعركة. وبما أن الأجوبة كانت مؤاتية، بات حضـــوره منتظراً بفارغ الصبر؛ فلم يبق أمامه سوى اختيار اللحظة.

أتاح له رحيل الماريشال بيـــجو إلى فرنسا فرصـــة التحـــرك. توغّل في سبتمبر 1845 في وادي التافنا. ولدى وصوله اســـتولى الإنفعال والحماس على القبـــائل، واستُقبل استقبال المنتصـــرين. أمام هذا الوضع خرج العقيـــد لوســـيان فرنســـوا مونتانيـــاك François Lucien Montagnac إلى بلدة الغَزَوات بلا تعقّل، علـــى الرغم من الأوامر المعطاة له، إذ كان يخشى من تأييـــد كاســـح للأمير، وكان عليه أن يحمي القبائل المتردّدة. فقام الأمير بتمزيق رتله الصغير إرباً إرباً، ولم يستطع أن يرجع إلى الحامية سوى اثني عشر رجلاً بمعجزة. أما بقية الرجال فكانوا بين قتلى أو أسرى.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت تلك معركة سيدي إبراهيم. أرسل الجنرال كافينياك من تلمسان موكباً قوامه مئتا رجل، فقامت خيالة الأمير بتطويقهم دون إطلاق نار، فسلموا أسلحتهم للأمير.

استعاد الأمير حيويته بعد هذا النصر المزدوج. ذاك أن هزيمة الفرنسيين في سيدي إبراهيم، كان لها أثر كبير سواء في الجزائر أم في فرنسا. كتب الجنرال سانت آرنو Saint Arnault في الثالث من أكتوبر: « مَن يدري ما سيحدث؟ فعبد القادر يستطيع أن يكون في متيجة خلال شهر، كما يستطيع أن يفرّ إلى المغرب، بلا حاشية قبل عشرة أيام. ثمة شيء وحيد أكيد، هو أن الجهاد قد انطلق، وأنه بدأ بكارثة أرهبت المستوطنين والتجار في الجزائر العاصمة ».

سيمضي عبد القادر مُسْتَقوياً بهذه الإنتصارات، منتصراً إلى منطقة المتيجة. غير أن الماريشال بيجو الذي استُدْعِي على الفور مع تعزيزات كبيرة (كان تعداد الجيش الفرنسي آنئذ مائة وستة آلاف رجل)، حرَّك خمسة عشر رَتْلاً، في مهمة لمنع عبد القادر من التغلغل في التلّ وطرده إلى الصحراء. وعلى الرغم من هذا التجهيز الهائل، اجتاز الأمير السُّفوح العالية، وقطع خمسين فرسخاً في يومين، ونجا من ثلاثة أرْتَال عسكرية، وراح ينقل الإنتفاضة إلى أبواب مدينة (أورليانفيل).

http://www.al-maktabeh.com

لكنه حين هزم في (وادي يَسِّر) تراجع إلى منطقة القبائل، ثم وجد نفسه محاصراً من كل الجهات، فتوجّه نحو الجنوب. طارده رتْل العقيد كامون Camon، فتوجّه نحو الصحراء حيث فُوجيء بالجنرال يوسف الذي قتل له سبعين من فرسان طلائعه، واستولى على المتاع وبضع مئات من البغال. ولما تعب من أعباء الجرحى الذين كانوا وراءه، أمر الخليفة مصطفى بن التهامي بالتوجه إلى الدائرة ونقل المصابين إليها.

أما بومَعْزة الذي صار حديثاً من خلفاء الأمير، فقد حارب بشجاعة، وأثار القبائل الواحدة تلوى الأخرى. ثم قام الحاكم العام شخصياً على رأس إحدى عشرة كتيبة، ربط الإتصال بينه وبين سانت آرنو، الذي كان على رأس أربع كتائب أخرى، لاحتواء بومَعْزة والقضاء عليه. توالت المعارك وكان على بومعزة التراجع للفرار من العدو. طارده بحماس سانت آرنو الذي سيغدو ماريشالاً - واعتقله وأرسله إلى فرنسا حيث أثار فضول الصالونات الباريسية. جرى إسكانه ومنحه نفقة بخمسة عشر ألف فرنك، في شقة فاخرة في الشانزليزيه. حاول الهرب أثناء ثورة 1848. لكنه اعتُقِل مجدداً وحُبِس في حصن هاع (Haa)؛ ثم أُدْخِل بتوصية من نابوليون الثالث في الجيش العثماني برتبة عقيد.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقف القتال بالتفاوض

حين تأمّل عبد القادر في وضعه، مُطاردا من القوات المغربية الراغبة في طرده بأي ثمن خارج حدودها، تنفيذاً لمعاهدة طنجة، ومُلاحقا من طرف القوات الفرنسية على الأرض الجزائرية، ارْتأى أن خلاصه الوحيد هو في الذهاب إلى الصحراء.

وعليه، دفع دائِرَته نحو الحدود الجزائرية. فاجتازت نهر المَلْوِيَة، ودارت آخر معركة. أما واقع الحال فسوف يصفه الجنرال دو لاموريسيير، كالتالي: «يوم 21 (ديسمبر)، بدأت الدائرة باجتياز الملوية لكي تصل إلى سهل طريفة. دارت معركة حادة؛ قُتل فيها أكثر من نصف المشاة النظاميين والقسم الأفضل من الفرسان؛ لكن العبور تمّ دون نهب المتاع. عند الخامسة مساء، تشتّت المشاة النِّظاميون؛ فعبرت الدائِرَة وادي الكِيسَ، ودخلت في مجالنا؛ فتوقّف المغاربة عن مطاردتها.

كان عبد القادر وحده، فوق جواده، يقود هجرة عبر شعاب مسيردَة (قريبا من تلمسان). توجّه بالسؤال عن الطريق إلى أحد فرسان قائدنا، الذي سيتعرّف على الوافدين. أُعلمت بالأمر عند الساعة التاسعة من مساء يوم 21. وعلمت في الوقت نفسه أن الأمير استعلم عن الطريق التي يمكنه سلوكها لبلوغ منابع وادي الكِيسْ وبني يَزْناسَن. كنت مقتنعاً و لم أخطئ، بأن الدائرة جاءت لتسليم نفسها؛ لكن الأمير - حسب المشروع الذي أُعلمت به - كان يسعى لبلوغ الصحراء».

http://www.al-maktabeh.com

عبر عبد القادر الحدود ورأى فجأة أن تلّ كَرْبُوس المواجه له، الذي كان تحت سيطرة القوات الفرنسية. وجرى تبادل إطلاق نار بين طليعة الأمير والسَّباهين (فرسانٍ جزائريين في الجيش الفرنسي) المتمركزين على التّل، المُتَخفّين في ملابس فرسان عاديين. كان ذلك كميناً، إذ كان رتل دو لاموريسيير المؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمئة من المشاة وألف ومئتي من الفرسان، وجياد مجهّزة للإنطلاق غير بعيد عن هذا الموقع.

قرّر الأمير أن يتقدم شخصياً للإطلاع على الوضع، فعاد على عجل واجتمع بالخليفتين اللذين كانا يرافقانه، سي مصطفى بن التهامي وسي قدّور ولد سيدي مبارك، والآغا بوخِيخا وهو من أهمّ المقاتلين وآخرين. كانت الريح تعوي والمطر يهطل بغزارة في تلك الليلة السوداء من ليالي ديسمبر 1847، التي انعقد فيها الإجتماع الأخير للأمير.

فذكّرهم بالقسم الذي أقسموه له سنة 1839، حين نُقضت معاهدة التّافْنا، بألا يتخلّوا عنه أبداً، مهما يكن حجم الأضرار والآلام التي يعانونها. «إن العهد الذي قطعتموه لي والذي بقيتم أوفياء له، كان يوجب عليَّ أن أفي بدوري، بما كنت قد تعهدت به لكم. لقد حرصت على ألاّ يستطيع أي مسلم، في أي لحظة أن يتهمني بعدم بذل كل ما بوسعي لنصرة القضية التي دافعنا عنها معاً. وإذا كنتم ترون أن ثمة أمراً ما نحاوله، لنصرة قضيتنا فأخبروني عنه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وإذا كان الأمر بعكس ذلك، و لم يعد ثمة شيئ يستحق المحاولة، فإني أطلب منكم أن تحُلّوني من قسَمي الذي أقسمته لكم، يوم طلبت منكم قسمكم ».

فأجمعوا كلهم على القول والتكرار أمامه، مُسْتشهدين اللّه على قولهم، بأنه بذل وسعه، لكن القدر قرّر أمراً آخر. فقال لهم: «عندها لم يبقَ سوى ثلاثة حلول ممكنة: إما اجتياز تلّ كَرْبوس والعبور فوق أجسام الخيّالة الذين يحرسونه، ولو سلّمنا جدلاً بأننا سنعبر، فلابد من التفكير بأن الفرنسيين هم قريبون جداً من الموقع. وإما سلوك طريق يسمح للمشاة والفرسان ببلوغ الجبل وعبوره؛ لكن النساء والأطفال والجرحى لن يستطيعوا السّير في هذه الحالة، وسينتهي الأمر بهم إلى الوقوع في أيدي النصارى. وإما الاستسلام، أخيراً».

تكلّم مجدّداً صحبه كرجل واحد: «لتمت النساء والأطفال وأهلنا، المهم هو أن تسلم أنت، سلطاننا، الذي سيتمكّن وحده من استئناف القتال في سبيل اللّه».

لكن عبد القادر كان له رأي مختلف تماماً. كان يعلم أنه يتحمل مسؤولية كل السكان، هؤلاء الذين كان يجرّهم وراءه، وأولئك المنتمين إلى كل القبائل. فقال: «لقد انتهى القتال، وهذا ما شاءه اللّه. يجب أن نكون على بيِّنة من أمرنا: لقد قاتلنا على مدى خمس عشرة سنة، لإنقاذ شعبنا من الهيمنة المسيحية، فماذا أستطيع أن أفعل أكثر إذا بقيت في هذا البلد بينما ضاعت القضية. ماذا تستطيع القبائل في مواجهة جيش قوي لا يتردّد في استعمال كل الوسائل لإبادتها.

http://www.al-maktabeh.com

إن القبائل نفسها تعبت من الحرب. وكانت على التوالي قد ضُربت بسيفي وبسيف العدو. هذا الشعب لن يخضع للكافر أبداً. هذه الأرض لن تقبل نيَر الأجنبي. سيأتي يوم يظهر فيه رجل تُمليه الأحداث، ويقود القتال تحت رايته، كما فعلت أنا شخصياً.

إن المسألة الوحيدة التي بقيت للحسم هي مايلي: هل ينبغي الإستسلام للنصارى أم لمولاي عبد الرحمان؟ يمكنكم أن تختاروا ما يبدو لكم مناسباً أكثر. أما أنا فقد حسمت خياري. فأنا أفضّل الإستسلام للعدو الذي حاربته وكبّدته هزائم كثيرة، على الإستسلام لمسلم خانني. سأطالب بترحيلي إلى بلد مسلم، مع عائلتي ومَن يرغب منكم في أن يتبعني ».

أطلق البعض الشكوك حول نوايا الفرنسيين في احترام عهودهم. فقال: « لا تخشوا شيئاً، فهم إما أن يُعطوا عهدهم، وعندها كل شيء يدعو إلى الظن بأنهم سيفون به. وإما أن لا يعطوه، وعندها سوف نتشاور ونتّخذ القرار الذي يفرض نفسه. ثم أضاف: ألم يتصرّفوا تصرُّفاً سليماً مع الخليفة بن سالم في شهر فيفري المنصرم » (1).

1- في شهر فيفري 1847، كان سيدي أحمد بن سالم، خليفة ساباو بمنطقة القبائل، قد استسلم بشرط نقله إلى الشرق مع عائلته وجميع الراغبين في مواكبته. وبما أن الماريشال بيجو قد وافق على هذا الشرط، فقد وضع في تصرّف الخليفة السابق بارجةً للدولة، قامت بنقله إلى ميناء دلّس. كتب بن سالم خلال الرّسو رسالةً إلى عبد القادر ليسوّغ له الموقف الذي كان قد وقفه. أثنى في هذه الرسالة كثيراً على طريقة وفاء فرنسا بوعدها؛ وأخيراً دعا معلمه – في حال اضطراره – إلى أن يحذو حذوَه بالوثوق في كلام الفرنسيين. لقد كان لهذه الرسالة تأثير كبير في نفس الأمير.

مكتبة المهتدين الإسلامية

إن قضية بن سالم تستحق تعليقاً. لـئن كانـت السـلطات الفرنسية قد احترمت تعهداتها عملياً، فذلك بلا شـك لثلاثـة أسباب جوهرية: تقديم برهان ساطع للأمير على احترام العهـد الذي أعطي لأحد ضباطه، ثم إن الإحترام المقـدم إلى ضـابط، سيتزايد أيضاً بالنسبة إلى قائد بارز مثل عبد القـادر. وأخـيراً، إنتهاز هذه الفرصة لإلهام هذا الضابط رسالة يكتبها إلى سلطانه، يدعوه فيها إلى أن يحذو حذوه في حال اضطراره ذات يوم ليفعل مثلما فعل. وهذا ما يسمى استباق الأحداث.

قرر الأمير، القوي بتأييد أصحابه لمشروعه، إرسال رسولين إلى الجنرال دو لاموريسيير. الذي يروي ذلك بنفسه: «ما كـدتُ أقطع فرسخاً ونصف الفرسخ حتى أخـبرني فرسـان أرسـلهم الضابط بوخويا، أنه كان في مواجهة عبد القـادر وأنـه كـان جاهزاً؛ فسارعت قدر المستطاع لدعمه مـع خيـالتي؛ كانـت الساعة الثالثة صباحاً. تلقيت في الطريق ممثلي الدائرة الذين جاؤوا للإستسلام، فأعطيتهم الأمان على عجـل وأنـا أرسـلهم إلى معسكري للبحث فيه عن رسائل.

أخيراً، بعد عدة لحظات، التقيت الضابط بوخويا الذي عاد مع رجلين من أشد الرجال ولاءً للأمير، والذي كان مكلّفـاً بـأن يقول لي إن عبد القادر لم يكن قادراً على الوصول إلى السـهل لمتابعة مشروعه، وأنه يطلب الإستسلام. كان بوخويا نفسه قـد تحدّث مع الأمير، الذي أعطاه ورقة ختمها بخاتمه، وكان الـريح

http://www.al-maktabeh.com

والمطر والليل قد منعه من كتابة أي شيء عليها. وكان يطلب مني رسالة أمان له ولكل الذين كانوا معه.

كان يستحيل عليّ أن أكتب للسبب نفسه الذي كان قد حال دون الأمير والكتابة، وفوق ذلك لم يكن خاتمي معي. وكان الرجال يصرّون إصراراً مطلقاً على أخذ أي شيء يدلّ على أنهم كانوا قد تحادثوا معي. فأعطيتهم سيفي وخاتم الرائد بازين Bazaine ووعدتهم شفهياً بالأمان الأشد علانية. فطلب مني مبعوثا الأمير أن أرسل معهم بوخويا، الذي أرسلته مع أربعة سباهيين. حدث كل ذلك ونحن نسير».

عُقد اجتماع آخر عند رجعوهما، كان الجنرال قد أرسل تدعيماً لكلامه سيفه وخاتم أحد ضباطه. وعندما أبديا ملاحظة للأمير بأن الجواب كان شفهياً، وأن المكتوب وحده يشكل تعهّداً موثوقاً، أعاد المبعوثين. ولنترك دي لاموريسيير يتحدّث: « أعاد بوخويا إليّ سيفي وخاتم الرائد بازين، إضافة إلى رسالة من الأمير بخط مصطفى بن التهامي.وإني أبعث إليكم (إلى الدوق دومال) نسخة عن ترجمة هذه الرسالة، وأيضاً جوابي عنها. لقد كنت ملزماً بتقديم تعهدات؛ فالتزمت بها، وإني لعلى أمل وطيد بأن توافقوا سموّكم الملكي والحكومة على ذلك، ما دام الأمير يثق بكلامي ».

مكتبة المهتدين الإسلامية

تحت ضغط الأحداث التي تعاقبت، لم يكن لدى دو لاموريسيير متّسع من الوقت لإرسال رسالة الأمير ولا جوابها إلى الدوق دومال. وأضاف في تذييل لاحق: « امتطيتُ جوادي، امتطيتُ جوادي اللحظة لكي أمضي إلى الدائرة.كنت أفتقر إلى الوقت لكي أضم نسخ الرسالة التي تلقيتها من الأمير وتلك التي رددت بها عليها. يكفيني أن أشير لكم بأنني وعدت فقط بأن يجري اقتياد الأمير وعائلته إلى عكا أو إلى الإسكندرية. هذان هما الموضعان الوحيدان اللذان أشرتُ إليهما؛ فهما اللذان كان قد حدّدهما في طلبه، ووافقتُ عليهما ».

عندما قرأ أصحاب الأمير جواب الجنرال، لم يعد لديهم أي سبب للإرتياب. فتوجّه عبد القادر بصحبة مناصريه ومرفوقاً بعائلته، نحو بلدة المحلّة المجاورة لبلدة سيدي إبراهيم، هناك بالذات حيث كان قبل عامين قد أحرز واحداً من أبرز انتصاراته العسكرية. فاستقبله الرائد مانتوبان Mantauban بكل الحفاوة المتوجبة نحو شخصية عظيمة، تضاءلت بسبب نقص السلاح. قدّم الجنود الفرنسيون التحية العسكرية لذلك الذي حارب فرنسا طيلة خمس عشرة سنة؛ وذهب عبد القادر إلى زاوية المرابط سيدي إبراهيم لإقامة صلاة أخيرة، بمثابة وداع أخير للأرض الجزائرية. ثم جرى اقتياده باحترام إلى دائرة الغزوات، حيث كان الدوق دومال قد رسا في هذا الظرف الإستثنائي.

http://www.al-maktabeh.com

لقد قدّمت جريدة (Le Moniteur Algérien) الوصـــف التـــالي للأحداث: « عند الساعة السادسة مساءً، كان عبد القادر قـــد وصل مع الجنرال دي لاموريسيير، مع الجنرال كافينياك والعقيد بوفور، وجرى إدخاله على صاحب السمو الملكي. بعد لحظـــة صمت، قال الكلمات التالية: «كنت قد أردت من قبل أن أفعل ما أفعله اليوم، وكنت أنتظر الساعة التي يشاءها اللّه. لقد أعطاني الجنرال عهدا وثقت به؛ وإني لا أخشى أن ينتهكه ابـــن ملـــك عظيم مثل ملك الفرنسيين».

أكدّ سموه الملكي عهد ضابطه بكلمات بسيطة ودقيقة. وجرت مراسم أخيرة في صبيحة اليوم التالي. وفي لحظة رجـــوع سمـــوه الملكي من جولة استطلاعية، كان السلطان سابقا قد جاء علـــى جواد وهو محاط بقادته الأساسيين، وترجّل أرضاً، علـــى بضـــع خطوات من سمو الأمير الملكي. وقال له:

« أقدّم لكم هذا الجواد، وهو الأخير الذي امتطيته. إنه شهادة على امتناني، وأرجو أن يحمل لكم السعادة.
– إني أتقبله، أجاب الأمير، بوصفه تقـــديراً لفرنســـا، الـــتي ستشملكم رعايتها من الآن فصاعداً، وذلك كعلامـــة لنســـيان الماضي ».

تلكم هي الوثائق الرسمية التي تروي شروط استســـلام عبـــد القادر ومجرياته. وسوف نلاحظ أن في الرسالة الـــتي أرســـلها دو لاموريسيير إلى الدوق دومال، كانت ترتسم معالم تخوّف لا

مكتبة المهتدين الإسلامية

يخفى تماماً من قبل الجنرال، أو خوف لا يكاد يخفى من أن يرى وضع تعهده ووعده على المحك. إن هذه العبارة: «لقد كنت ملزماً بتقديم تعهدات؛ فالتزمت بها، وإني لعلى أمل وطيد بأن توافقوا سموكم الملكي والحكومة على ذلك، ما دام الأمير يثق بكلامي»، تكشف أنه كان على عجلة من أمره أكثر مما كان عازماً على فعله. أم أنه كان مطلعاً بحكم موقعه، على التدابير التي قد لا تتوانى الحكومة عن اتخاذها، نعني اقتياد الأمير إلى فرنسا وليس إلى أرض إسلامية؟

على كل حال، عندما سيغدو دو لاموريسيير، لاحقاً وزيراً للحربية، سوف ينسى وعده، على الرغم من أن تعيينه في هذا المنصب كان قد أثار أملاً كبيراً لدى الأمير؛ لكن دون جدوى لأن الأمر كان يتعلق بالمشارك الأساس في عملية الإستسلام، وبالتالي الشاهد العيني والسمعي للوعد العلني الذي قطعه الأمير الملكي.

لنَترك الأمير عبد القادر يروي بدوره - روايته للأحداث ومشاعر ثقته بكلام ابن الملك - إلى مطران الجزائر السابق، الأب دوپوش، الذي زاره زيارة ودّية في قلعة آمبواز:

«منذ سنتين لم أحارب الفرنسيين، على أمل أن أرى نهاية سعيدة لي ولرفقائي في هذه الحرب، التي تجددت في نوفمبر سنة تسع وثلاثين 1839 (بعد نقض اتفاقية التّافنا)، مع أني كنت معتقدا أني لم أقم بالواجب الديني وحفظ بلادي، وأخشى أن أتلقى شبه الملامة.

http://www.al-maktabeh.com

عرض الفرنسيون علي مقدمات كثيرة، وهي تــرك الســـلاح مقابل شروط. وزيادة على ذلك، كان قد عرض عليَّ الماريشال بيجو بالواسطة مليونا، لأترك السلاح، فلم أقبل ذلك منه، محافظة على عهدي وديني. وقبل ذلك، كتب لي خليفتي السيد أحمد بن سالم عند سفره إلى بلاد المشرق على بـــاخرة فرنســـية، بعـــد تسليمـــه الإجباري.

وأكد لي بأنه كتب له من قبل الحاكم العام، الذي كنت عارفا باستقامته وشجاعته، بأني إذا قطعت الأمل واتَّبعته في عملـــه، لا أُعَامل بأقل رعاية منه. وإجابة لطلبه، نُقِل علـــى بـــواخركم إلى بلاد بعيدة، تقربها الوحدة الدينية إلينا. وقد أبلغوه أني إذا كرهت السفر على باخرة مسيحية، يستأجرون لي بـــاخرة إســـلامية، وتتكفل فرنسا بنفقتها.

على أنه كان لي ثقة بعدالة فرنسا، وأنها تفي بما وعدتني بـــه، مقابل تركي السلاح، وما ينشأ عنه من السلام العام. ولـــيس لي أمل إذا أصرَّيْت على الحرب بالظفر، لعلمي بنتيجتـــها. لكـــن حلفت أن أدافع عن ديني، وأحافظ على بلادي إلى حدٍّ تضعف فيه قوتي. وأظن أني لم أعمل القدر الكافي، ومع ذلـــك كـــان مركزي بـــ (الدَّائِرة) أواخر سنة 1847 خطرا وخيما. فتحـــرك ضدي حاكم مراكش، وأظهر ما عنده من الحنق، وظل يتعقَّـــبُني ويحاربني، فصرت أتحسب من قبائل الرِّيف أكثر من الفرنســـيين، الذين قوتهم كانت تزداد يوما فيوما، مع ازدياد خوفي وقلقي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومع هذا كله لم يخطر بفكري أن أعقد الصُّلح مع الفرنسيين، لكني لما رأيت أهلي في معسكر (الدائرة) في خطر عظيم من جنرال الغرب (غرب الجزائر)، قررت ما يلزم أن أعمل محافظة عليهم من التعب. على أنني كنت قادرا على التخلص منكم - بهمة من كان حولي من الفرسان الصناديد، الأشداء على الأعداء، الأمناء على الوفاء - وأن أضايق الفرنسيين مدة طويلة، آويا إلى قبائل الصحراء، الذين لا يبخلون علي بقليل من الشعير والحليب.

وكان في استطاعتي على الأقل أن أفلح في الذهاب إلى الأماكن المقدسة، ممتطيا جوادي لكني تركت ذلك حبا لراحة والدتي، نساء وأطفال رفقائي المخلصين، الشيوخ والجرحى الذين يرافقونني. وفي هذه الحال، كتبت إلى الجنرال دو لا موريسيير بأن الحكومة الفرنسية إذا كانت باقية على نواياها لي، مما طالما حدثوني به، وأنها تأذن لي: إذا تركت السلاح بالذهاب إلى الشرق، الذي هو مطمح أنظاري، تركت لها سلاحي. فأرسل لي دو لاموريسيير سيفه وخاتمه عهدا على إنجاز جميع ما طلبته، وبأسرع وقت. فطلبت منه تأمينا بالكتابة وإلا فلا، فكان الجواب منه كالأول، فعرفته ثالثة: إذا لم أكن على ثقة من عهده، فإني أسلم أمري إلى الله، ولا يتم بيننا عقد اتفاق. فبعث لي بالتأمين الخطي ممضيا باسمه الفرنسي، مختوما بخاتمه بالعربي، فطمأن بذلك قلبي. حيث أنه وكيل الحكومة الفرنسية، وأن كلامه أكيد يعمل به، ولو كان صادرا من أقل رجل من رجالها.

http://www.al-maktabeh.com

وحينئذ وصلت إلى معسكره، وبالوقت ذاته، حضر الـــدوق دومال إلى (جامع الغزوات) فاستقبلني بكل لياقة، وقـــال لي: إن ما فعله قائم مقامي، وتعهد لك به فإني أجريه عند اللــزوم. وإذا رغبت، فإني أعاهدك بكلامي الملوكي: أن كل ما صار الإتفاق عليه، يتم. فقدمت له حينئذ آخر ما ركبت مـــن الخيـــل أيـــام حروبي. فسألني:

- إلى أين قررت الذهاب، ومن سيكون معك؟

- فأجبته: إلى القسطنطينية أو عكا أو الإسكندرية، والـــذي يصحبني أهلي والبعض من ضباطي. وكان عـــدد مـــن أراد أن يرافقني نحو المئـــة، و لم يكـــن في وســـعي أن أرد أملهـــــم في الذهـــاب معي.

- فأجاب إبن الملك: بأنه لا يـــوافقني علـــى الـــذهاب إلى القسطنطينية. ولكن عند وصولنا إلى المرسى الكبير * يرسلني إلى الإسكندرية، إجابة إلى طلبي ووفاء بوعده. فقط، إن السفينة التي أركب فيها ستقف قليلا أمام مرفأ طولون، فقبلت منه ذلك. و لم أدرك له معنى إلا أن السفر يقتضي ذلك.

ولما وصلنا إلى طولون، أخرجونا من السفينة، وأودعونـــا في السجن، وأسفاه؟ كنت أظن أن نذهب إلى محل الراحة والسعادة لا إلى الحبس والشقاوة. حيث أني تحصلت على العهـــد الوثيـــق والوعـــد الأكيـــد من ابن الملك، الـــدوق دومـــال والجنـــرال دو لاموريسيير.

---

* ميناء بوهران.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكان الغالب على ظني أن دولة فرنسا لا تخلف وعـــدها ولا تنقض عهدها، لزعمها أنها من أعظم الدول المحافظة على العـــدل والإستقامة، بل كنت أقول لنفسي: إذا أســـرني الفرنســـيون في الحرب، لا أنال منهم إلا كل رعاية، لأنهم ذوو شهامة، يعرفون قدر الغالب والمغلوب. فكيف إذا سلمت نفسي إليهم عن طيب خاطري؟ وكيف يكون إذا التسليم على عهد ووعـــد أكيـــد؟ ونظرا لما أعرفه من كمال حبك وعقلك، أخبرتك بالواقع لتفرق بين الأخلاق العربية والأفعال الفرنسية، وتحكم بما تراه ».

في يوم 25 ديسمبر1847، أي بعد يومين من مراسم الإستسلام، نُقل الأمير على متن الباخرة لاسمودي l'Asmodée إلى فرنسا، مع عائلته وعدد كبير من أصحابه باتجاه طولون.

بيعَت بمبلغ زهيد (ستة آلاف فرنك) كل أملاك الأمير، مـــن خيام وجياد وبغال وجمال، التي كان يملكها لحظة إلقاء سيفه عند قدم خصمه. ولزيادة التضييق على حريته، لم يُدفع له هذا المبلغ إلا بالتقسيط، مع ضرورة أن يقدم تبريرا مسبقا لكل اســـتعمال. وبناء عليه، كلما كان الأمير يرغب في تقديم مســـاعدة لأحـــد خدمه أو حسنة لواحد من أقاربه، كان عليه أن يُحظـــى بـــإذن السلطات الفرنسية.

هل كانوا يشتبهون في أن السجين الشهير يرغـــب في شـــراء السلاح بينما كان في أيدي سجّانه؟ إن السرعة التي نقل بها إلى طولون كانت علامة حذر شديد ووقاية قصوى: استبعاد كـــل خطر لانقلاب الوضع، بإبعاد هذا الخصم المرهوب الجانب عـــن الأرض الجزائرية بأسرع ما يمكن.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

عبد القادر في پـو

كان عبد القادر قد وصل مع أصحابه وعائلتـــه بكاملـــها إلى قصر هنري الرابع، لأن قبل ذلك بثمانية أيام، عندما كان لا يزال في حصن لامالغ lamalgue، كانت البارجة الباتروس l'Albatros قد أنزلت أخوة عبد القادر الثلاثـــة وعـــائلاهم، ومجمـــوعهم ثلاثـــون شخصاً.

لقد كانوا نفس الأخوة الثلاثة الذين كانوا قد استســـلموا إلى دو لاموريسيير في منتصف ديسمبر 1847، الذي كان قد أعطاهم الأمان؛ وبعد رسوّهم في طولون، ساروا على الأقدام إلى حصن لامالغ. لكنهم حين كانوا يعبرون جسر لفيس Lévis، لاحظـــت النساء أهن يسرن بين صفين من الدرك (الجندرمـــة)، وتســـير وراءهن جمهرة من المتسكعين والفضوليين، فـــأطلقن صـــيحات أليمة، ناجمة عن الشعور بالمهانة.

عندئذ قال عبد القادر للجنرال دوما: « لمن أتوجّه حتى أحصل على إرسال أخوتي إلى الإسكندرية، التي يمكنهم الانطلاق منـــها إلى مكة ؟ لقد جاؤوا للإنضمام إليّ بكل طيبة خاطر، وهم على قناعة بأنكم ستفون بالوعد الذي قطعتموه لي. لا يمكن ارتكاب خيـــانة مزدوجة بحقي. لماذا جعلتموهم يشاطروني قَـــدَري؟ إهم مرابطون وأهل سلام، لم يشاركوا قط في كفاحي، وكانت السبحة بندقيتهم الوحيدة » [1].

---

1 - مقتطفات من ملاحظات العقيد دوما.

http://www.al-maktabeh.com

كان الأمير حتى وصوله إلى مدينة پو Pau قد عكف على إيهام أصحابه أن الأمر كان يتعلق فقط بتغيير مكان الإقامة، بانتظار أن تعيد فرنسا حريتهم إليهم، وهي الحريصة على احترام كلامها. لكنه كشف لهم الحقيقة البيّنة في پو. فهناك قضبان حديدية موضوعة على النوافذ، ودوريات تراقب من كل الجهات وتحرس المنافذ. وكانت أعمال ترميم القصر جارية بأمر من لويس فيليب، تكريماً لذكرى جده الشهير هنري الرابع الذي كانت پو موطنه.

فجرى إعداد شقق وأجنحة الطابقين الثاني والثالث للأمير، لكن في النهار فقط. أما في الليل فعلى الأمير وعائلته أن ينحبسوا في البرج الرئيس، وهو القسم الأكثر تقشّفاً، لأن قصر پو، على ما يقال، كان معرضا أكثر من أي قصر آخر لمحاولات الهرب، نظراً لقربه من الجبال والبحر.

كان عبد القادر على قناعة تامة بأنه سجين في قصر. فقرّر إبلاغ أصحابه وعائلته بمضمون رسالة الوزير أراغو. واعتمد قاعدة جديدة، بما أنه أُخضع بالقوة لهذا الوضع، فلم يبق أمامه سوى حق الإعتراض على الأسر الظالم. فكان يمارس حقه هذا كلما سنحت له الفرصة، إلى أن أُخبر ذات يوم، في مطلع جويليه 1848، أن الجنرال دو لاموريسيير قد عُيِّن وزيراً للحربية. الرجل الذي كان قد وقّع بيده اتفاق كربوس، صار في القيادة. ولئن كان الوزراء الذين سبقوه غير مطّلعين على تفاصيل الإستسلام، وبذلك لم يظنّوا أن من المناسب الوفاء بوعد لم يشاركوا فيه، فإن دولاموريسيير الخصم، الفاعل والشاهد، ما كان يمكنه في المقابل

مكتبة المهتدين الإسلامية

تجاهل التعهد الذي كان شخصياً قد قطعه له، تحت طائلة تلطيخ شرف فرنسا.

عندها كتب الأمير الرسالة التالية:

« الحمد للّه وحده!

إلى ذلك الذي لا يجدر بوعده أن يتغيَّر البتة، والذي لا يمكنــه الإخلال بعهدٍ قطعه، الشخص المشهور في الشرق والغرب معاً، والإسم المتداول على كل لسان، إلى صديقنا، أخينا السـعيد دو لاموريسيير!

السلام عليكم، السلام الذي تجتمع فيه التهاني والتقديرات.

لقد شكرتُ اللّه عندما علمت أنكم، بعدما ظفــرتم بأولئــك الذين كانوا يثيرون الإضطراب، جرى تكليفك بمهمــة تــوفير سعادة فرنسا. وعندها سُررت بتعيينك في الوزارة، وأنا مقتنــع بأن هذا التعيين سيترتب عليه تحريري. ولقد جــاءني فرنســيون كثيرون وقالوا لي: « يمكنك أن تعتبر نفسك حراً، لأن صديقك ذاك الذي أعطاك وعده، هو الآن في مرتبة عالية، ولا تعلوها قوة أرفع منها».

وعليه، فأنت محبوب من الفرنسيين كافة، ولاسيما من أعضاء المجلس، نظراً لخدماتك الكبيرة التي أسديتها للدولة، وقادر علــى القيام بأمور أصعب بكثير من الأمر الذي تعهدتَ به تجاهي. هذا الكلام يعرفه أهل الشــرق والغــرب، في الأرضِ وفي الجــزر. والحال، لابد أن تخرجني من مجاهل النسيان التي طُرحت فيهــا، لأني مثل الرجل الذي رموه في البحر، ولكن الخلاص ســيأتيني علــى يدك.

http://www.al-maktabeh.com

إن كثيرا ممن لا إلمام لهم بما وقع بيني وبينك يعتقدون أنك غلبتني في الحرب، وأجبرتني على التسليم عنوة وإلقاء السلاح، ويُضيفون أنك أنت قمت بمطاردتي وتمكنت من أسري. فينبغي لك أن تكشف الحقيقة، وأن تقول لهم أنك لو لم تعلن لي عن عودك، لما كنت ذهبت إليك، وأنك كنت بعيداً مني عندما كانت المفاوضات قد دارت بيني وبينك، وأن المسافة التي كانت تفصل بيننا، كانت على الأقل مسيرة عشر ساعات، وأن المفاوضات دامت أربعين ساعة، وأن طريق الجنوب كانت مفتوحة أمامي، وكذلك الطريق التي تقودني إلى الأمازيغ (البربر)، وأني كنتُ قادراً على المضي إلى حيث أرغب، حتى أن أضع نفسي بين يدي سلطان المغرب، وبدلاً من إماتتي، كان بخلاف ذلك سيغمرني بالإحسان.

لا يزال الفرنسيون يزعمون أن مسألة إرسالي إلى الشرق جديدة. قلْ لهم إن القادة الفرنسيين دعوني مراراً وتكراراً للسير في هذا الطريق؛ وأنهم سيّروا إلى تلك المناطق عدداً من الأفراد الذين وقعوا في قبضتنا؛ قل لهم كم دارت مفاوضات وجرت في مراحل شتّى بينهم وبيني حول هذا الموضوع؛ قل لهم أيضاً أن بين يديَّ مكتوبك الذي يقول إن الفرنسيين كانوا يقبلون بكل شروطي، وأنك تعهدت بشرف فرنسا، وأن أمير مدينة الجزائر أيّد تلك التعهدات.

وأضفْ أخيراً أني رجل ميت في نظر الناس، وأني أُقسم بأقدس الأيمان بأني لن أثير الفتنة بين رعاياهم في الجزائر، من العرب أو القبائل، من المسلمين أو اليهود. لقد منحك اللّه القوة، ولا يوجد

مكتبة المهتدين الإسلامية

شخص يمكنه قبول أي عذر من طرفك. إن لم تُعِدْ لي حـــريتي، ولم تقلْ لنفسك إن امرأتك حرام عليك!

اشرحْ إذاً كل هذه القضية للفرنسيين المشهورين بشرفهم بين الشعوب كافة، إذ يستحيل عليهم حين يفهموها، أن لا يجعلوني أستعيد حريتي. إن لم تُقدم على ذلك، فسوف يقع عليك العار، ولن يعود أحد يصدِّق كلامك، ولا يعود أحد، كبيراً كـــان أم صغيراً، يكنّ لك أي تقدير!

سلام من عبد القادر بن محيي الدين.

حرّر بتاريخ السابع من شهر شعبان 1264،

09 جويلية 1848».

كانت رسالة أراغو على الرغم من فظاظتها في غاية الوضوح، بينما كان الصمت الذي لاذَ به دو لاموريسيير يُقـــارب الجـــبنَ السياسي وأسوأ أنواع الإحتقار. استولى الغضب على أصـــحاب الأمير. فذهبوا إلى حد الشروع برمي أنفسهم بلا سلاح علـــى دوريات القلعة وحرسها، بهدف قتل أنفسهم. لكـــن المشـــروع جرى كشفه، كانوا يقولون: «لم نكن نريد الحرب، إنمـــا نريـــد الموت حتى يراق دمُنا على شرف فرنسا، ويطبعها بطابعه، لأننـــا قد قُتلنا لمطالبتنا بتنفيذ الوعد الذي أُعطي لسيدنا».

تمكّن عبد القادر وحده من تهدئتهم. وحين علم الجنرال دوما بأن الأب دوبوش كان قد أعلن عن قدومه إلى مدينة پو، كتب له: «ستقومون بزيارة السجين الشهير، آه! لن تأســـفوا علـــى رحلتكم بالطبع. فلقد عرفتم عبد القادر في ازدهاره، حين كانت

http://www.al-maktabeh.com

الجزائر بأسرها خاضعةً لسلطته. والحال، سوف تجدونه أكبر، وأكثر إدهاشاً أيضاً في الخصومة... فهو لا يطلب شيئاً، ولا يهتمّ بأي شيء من أشياء هذه الدنيا، ولا يشكو أبداً، ويعذر أعداءه ولا يسمح بأن يقال عنهم أي كلام سيء أمامه».

استقبل في الواقع زواراً كباراً، مثل المدّعي العام مارست Marrest، وهو ضابط بونابرتي سابق؛ وقال له: « أنتم رجل حرب وعدل. تعالوا لرؤيتي، وسوف نتحدث عن العدل والمعارك، وخصوصاً عن العدل. وسوف نقارن العدل الذي تعتبرونه همجياً بالعدل الذي تظنونه متحضِّراً».

يروي أستاذ مدرسة في جريدة (ذاكرة البيرينيه) مشهداً وجده مثيراً: جاء السيد بوغنار Bugnard ليهدي عبد القادر خاتماً ذهبياً رائعاً، مرصَّعاً بجزء من ضريح نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة، وكان الجنرال برتران Bertrand قد قدَّمه له. في بادىء الأمر صاح الأمير به، لكنه عندما أكد له بوغنار أنه يملك جزءاً آخر من الحجر الثمين، تقبّل الهدية ووضع الخاتم في خنصر يده اليمنى: «ربما سيحمل لي السعادة ؟». في الحقيقة كان الأمير معجباً بنابوليون، وكان قد تحدّث مع دوما ثم مع بواسوني عن الإمبراطور في عدة مناسبات.

كما قامت سيدات المجتمع بزيارة والدة الأمير وزوجته. وكنّ يتسلين بحلاقة الرأس على غرار (الموضة) الجزائرية. وكانت سيدة شابة جميلة وبالغة الأناقة، قد وجدت نفسها فجأة أمام الأمير، فطرحت عليه سؤالاً غريباً:

مكتبة المهتدين الإسلامية

- لماذا عندكم عدة نساء، وليس امرأة واحدة، كما هو الحــال عندنا؟

- سيدتي، نحن نحبُّ الواحدة لعينيها، والثانية لشفتيها، والثالثة لجسمها، وأخيراً الرابعة لعقلها وقلبها؛ ولو وجدنا هــذا كلــه مجتمعاً في امرأة واحدة مثلك، لما اخترنا أخريات معها!.

كان عبد القادر الشاعر هو الذي يتكلم! إذ كــان يفضّــل المناقشات السياسية خصوصاً مع الرائد بواسّوني الذي حلّ لديه محل العقيد دوما (أصبح جنرالا). فقد كان مهتمــاً بــالتغيرات الجارية في فرنسا. فالجمهورية التي يُقال أنها عادلة، إنما كانــت تمارس في نظره، سياسة ظلم أشد أيضاً من سياسة الملكية. وكان بواسّوني ينكبُّ على أن يشرح له المتغيرات الطارئة، من أســبابها إلى نتائجها.

أدت الإنتفاضات التي وقعت في باريس أيام 22، 23 و24 فيفري إلى تنحي الملك لويس فيليب، لمصلحة حفيده كونت بــاريس. وفيما كان الملك يهرب للوصول إلى إنكلترا، حاولــت دوقــة أورليان يوم 24 فيفري، أن تقدّم ولدها إلى مجلس النواب وتجعله يعلن الوصاية. غير أن دخول الثوار إلى قصر بوربون أثار جنون النواب وعجّل في رحيل الدوقة.

أعلن المتمرّدون الجمهورية. وفي اليوم نفسه جــرى تشــكيل حكومة مؤقتة؛ وكان في من ضمنها لامارتين Lamartine، لدرو رولان Ledru Rollin، لويس بــلان،louis blanc آراغــو Arago،

http://www.al-maktabeh.com

والعامل ألبير Albert: هذا الفريق غير المتوقّع، الذي رفعته الظروف إلى رأس الدولة، كان يتقلّد في غياب كل مؤسسة، السلطات التنفيذية والتشريعية: فهو يشرع ويحكم في وقت واحد.

على الرغم من كون الحكومة المؤقتة غير مؤهلة للنظر في شكل المؤسسات المقبلة، فقد اتخذت قرارين أساسيين يوجِّهان المستقبل: إعلان الجمهورية وإقرار الإقتراع العام. صدر قرار في 05 مارس، يحدِّد كيفية تنظيم انتخاب أعضاء الجمعية التأسيسية القادمة: من الآن فصاعداً، سيكون من الناخبين جميع الفرنسيين البالغين 21 سنة وما فوق، والمقيمين في البلدة منذ ستة أشهر، والمتمتّعين بكامل حقوقهم المدنية. ولقد كان مضمون هذا القرار كبيراً: إذ أن الهيئة الإنتخابية سترتفع من مائتي ألف إلى أكثر من تسعة ملايين. فمع اعتماد الإقتراع العام المباشر والسرّي، غدت الجمهورية الموحّدة وغير القابلة للتجزئة ديمقراطية؛ والإجراءات الجديدة سوف يستفيد منها نابوليون الثالث لاحقاً.

إن لامارتين الذي كان يدافع في المجلس عن عبد القادر، قد فرض يوم 25 فيفري العلم المثلث الألوان كرايةٍ وطنية للجمهورية، بدلاً من العلم الأحمر. صحيح أن الشارة الوطنية المثلثة الألوان، التي جرى اعتمادها سنة 1789، كانت ترمز إلى الإتحاد بين الشعب والملك؛ إذ كان الأبيض يرمز إلى الملك، والأزرق والأحمر يرمزان إلى باريس. لكن هذه المرة، جرى تغييب الملك بلا رجعة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

توالت الأسابيع على الأمير دون أن تصله أيـة إشـارة مـن باريس. لكنه بعد المناقشات المشجّعة دوماً مع بواسّوني، استشعر بأن شيئاً ما سيحدث: ذاك أن الكثير من التقلبات السياسـية لا يمكنها إلا أن تُفضي ذات يوم إلى فسحة، إلى بداية حـلّ، مـا دامت تجليات الودّ تواصل الإحاطة به. حـتى أن أهـل پـو القليلين، أعربوا له عن مودتهم ومحبتهم. ففي بداية ماي المشمسة، تجمّعت جمهرة من مدينة پو في باحة القلعة، مطالبةً بظهور الأمير. فلبّى الطلب، وبما أن ذلك اليوم كان يوم جمعة، ألقـى بضـع كلمات على سبيل التحيّة والإخاء البشري.

غير أنه رفض الخروج، كان يقول: « لا يخرج العـربي مـن خيمته وهو في حالة حداد. أنا في حداد على حريتي »، « عنـد المسلمين لا يدوم الحِداد. لكن حِداد الحرية يدوم إلى الأبد ».

وفي آخر المطاف، قرّرت الحكومة نقل الأمير من قصر پو إلى قصرآمـبواز Amboise. وفي انتظار ذلك، لم يعـد في مسـتطاع الأمير وأصحابه أن يتصلوا بالخارج، ولا أن يكتبـوا أو يتلقّـوا رسائل، ولا أن يستقبلوا زائرين؛ وأكثر من ذلك: « حرمانه من أية فرصة لتعلّم الفرنسية ». كل ذلك حمل توقيع وزير الحربية دو لاموريسيير.

فالرجل الذي كان قد وقّع عن الجانـب الفرنسـي، تبـادل الرسائل مع الأمير، كان ينكر توقيعه الشخصي، أي توقيع فرنسا ما دام قد كان يتصرّف باسمها في أزمنـة أخـرى، في أمـاكن أخرى، كان يمكن وضع علامة شرف لرؤيـة الأمـير يـتعلّم الفرنسيـة.

http://www.al-maktabeh.com

لقد كان دو لاموريسيير خادماً سيئاً للفرنكوفونية، التي لم تكن قائمة بعد كمؤسسة؛ لكنها كانت مطمحاً وطنياً تعلنه فرنسا، وهو بلا شك مطمح مشروع. فهل صار الأمير بالغ الخطورة ؟ يتذكّر ذات يوم أنه كتب إلى زوجته وهو عائد من معركة مظفرة، رسالة شعرية (تسائلني أم البنين) تنتهي هكذا:

وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي
بأن منايا هم بسيفي وعسالي*
سلي الليل عني كم شققت أديمه
على ضامر الجنبين معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والربى
وسهلا وحزنا م طويت بترحال
فما همتي إلا مقارعة العدا
وهزمي أبطالا شدادا بأبطالي
فلا تهزئي بي، واعلمي أنني الذي
أهاب، ولو أصبحت تحت الثرى بالي

كانت صحف المدينة قد تبنّت قضيته ودافعت عنها؛ فكان أبرز مقال هو الإفتتاحية التي كتبها باتريك أوكلين Patrik O'Qulin رئيس تحرير جريدة (ذاكرة البيرينيه):« إن التاريخ سوف يلوّث سمعة

* العسال: الرمح

مكتبة المهتدين الإسلامية

إنكلترا لسلوكها غير الشريف تجاه نابوليون.فهل سيجد كلمات شديدة القسوة لوصف تجاهلنا حُرمة المعاهدات؟ ».

والحال، فقد كان نابليون بونابرت (نابليون الأول 1769-1821) قد نُقل يوم 15 جويلية 1815، على متن البارجة البريطانية بلّروفون، بالإتفاق مع القبطان متلاند Maiteland على أمل الحصول على اللجوء السياسي الذي كان موعوداً به.

وفي يوم 26 جويلية، اقترب من بليموث Pleymouth، بينما كانت السلطات تنظر في مصيره يوم 31، أصدرت حكومة سان جامس Saint James حكمها. ولما اعتبرته الحكومة البريطانية مجرم حرب، قرّرت نفيه لأسباب أمنية مدى الحياة إلى جزيرة القديسة هيلان Sainte Hélène، وهي جزيرة صخرية ومعزولة، مات فيها بعد خمس سنوات.

أمام هذا الحكم القاسي، كتب نابوليون بونابرت اعتراضاً، جاء في آخره: « إني أنادي التاريخ: سيقول إن عدواً حارب الشعب الإنكليزي عشرين سنة، قد جاء بكل حرية في محنته، باحثاً عن ملاذ في ظل قوانينكم، فأي دليل أسطع من هذا كان يمكن أن يقدّمه لهذا الشعب على تقديره له وثقته به؟

http://www.al-maktabeh.com

لكن كيف كان الردّ في إنكلترا على استرحام كهذا ؟ جــرى التظاهر بتقديم يــدٍ مضيافة لهــذا العدو، وعندما سلّم نفســه بحسن نيــةّ، جرى ذبحه. على مــتْن بلّروفون في البحر.
التوقيع: نابوليون »[1]

حين قارن كاتب افتتاحية جريدة (ذاكرة البيرينيه) بين وضــعي بونابرت والأمير، شدّد على «تجاهــل صــدق المعاهــدات»، من جانب فرنسا. فقد كان الأمير عبد القادر قد اعترض،مثــل نابليون وبأبلغ قوة على « ما كان قــد أصابه من عنف» وعلى

---

1 - إليكم نصّ الاعتراض الذي أُرسل إلى اللورد كيث:

« إني أعترض هنا علناً، أمام السماء والناس، على ما أصابني من العنــف، علــى انتهاك أقدس حقوقي، حين جرى الإعتداء بالقوة على حريتي وشخصي. لقد جئت بكل حرية على متن بلّروفون؛ أنا لستُ سجيناً، بل أنا ضيف إنكلترا. لقد جئتــها بتحريضٍ من القبطان، بالذات، الذي قال إن لديه أوامر من الحكومــة باســتقبالي واقتيادي إلى إنكلترا مع حاشيتي، إن كان يحلو ذلك لي. فحضرت بنيّةٍ طيبة، لوضع نفسي في حماية قوانين إنكلترا. وما أن جلست على متن بلّروفون، حتى صــرتُ في منزل الشعب البريطاني. ولئن كانت الحكومة، حين أعطت الأوامر لقبطان بلّروفون لاستقبالي مع حاشيتي على هذا النحو، لم تكن تريد سوى نصب شَرَك، فلقد لطّخت شرفها ودنّست سفينتها الحربية ».

« ولئن جرى ابتلاع هذه المقالة، فسوف يكون من العبث أن يرغب الإنكليز،من الآن فصاعداً، في الحديث عن نزاهتهم، عن قوانينهم وعن حريتهم. ســوف يضــيع الصدق البريطاني في ضيافة بلّروفون ».

مكتبة المهتدين الإسلامية

« انتهاك حقوقــه». ولئن كان الدليل الذي رماه بونابرت في وجه إنكلتــرا لا جدال فيه، فإن دليل عبــد الـــقادر حـــين خاطب دو لاموريسيير، كان يقدّم محاجّة ذات منطق قوي.

فلنتوقف فقط أمام بعض الحقائق:

1 - كان نابوليون قد كتب: « إني أعترض علناً أمام الســماء والناس » وكان عبد القادر قد كتب: «هذه الكلمة (كلمــة دو لاموريسيير)، يعرفها أهل الشرق والغرب، أهل البرّ والجزر».

2 - كان نابوليون قد كتب: « لقد جئت بكل حرية على متن بلّروفون، فأنا لست سجيناً، بل أنا ضيف إنكلترا »، وكان عبد القـــادر يقول: « لو لم تقطع لي عهوداً ووعوداً، لما كنت ذهبت إليك ».

3 - كان نابوليون قد كتب: « لقد جئتـــها بتحـــريض مـــن القبطان بالذات، لاستقبالي واقتيادي مع حاشيتي إلى إنكلترا، إن كان ذلك يحلو لي»، وكان عبد القادر يقول: «لقد كنتَ بعيداً مني عندما دارت المفاوضات بينك وبيني؛ وكانت المسافة الـــتي تفصلنا، على الأقل مسيرة عشر ساعات؛ ودامت المفاوضـــات أربعين ساعة ».

4- بينما كان نابوليون قد تلقّى تعهداً شفهياً من قبطان السفينة باسم حكومته، كان عبد القادر يقول: « بين يـــدي مكتوبـــك الذي يشهد أن الفرنسيين كانوا يقبلون بكل شروطي ». وهـــذا ما يُدعى اليوم في الأعراف الدبلوماسية، بتبادل رسائل، لها قـــوة

http://www.al-maktabeh.com

اتفاقية، قوة معاهدة بين حكومتين سياديتين؛ دون أن ننسى أن التصديق علي هذا المكتوب قد قام به ابن الملك شخصياً، وبحضور موقع الرسالة. ولئن كان كاتب التعليق قد لام إنكلترا على عدم احترام تعهّد لفظي، فسوف يكون في إمكانه أن يلوم أكثر فرنسا، على عدم احترامها لتعهد مكتوب، كان فوق ذلك نتاج تفاوض دام أربعين ساعة.

كان نابوليون قد جاء طالباً اللجوء السياسي علي أرض عدوّه بالأمس. وكان عبد القادر قد طلب، وحصل خطياً على الذهاب للإقامة في أرض إسلامية. كان نابوليون يثق في كلام أمة عظمى، فمضى لرمي نفسه في فم ذئب. أما عبد القادر فقد رفض الإقامة لدى خصمه السابق، حتى ولو بصفة ضيف شرف، كما اقتُرح عليه لاحقاً.

ولئن صممت إنكلترا على إرسال بونابرت إلى القديسة هيلانة، تلك الجزيرة البعيدة والمعزولة، فذلك لكي لا يتمكن أبداً من المطالبة بعودة مفاجئة إلى القارة، مثل العودة إلى جزيرة الألب Elbe. وإذا كانت فرنسا قد قرّرت إبقاء عبد القادر على الأراضي الفرنسية، خلف قضبان قصر محصّن، أو حتى في حرية مراقبة بالضرورة، فذلك حتى لا يستطيع أبداً وضع قدميه في بلده، لأنه أراد دفع المعتدي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عبد القادر في آمبواز وإطلاق سراحه

بما أن الحكومة الفرنسية قرّرت نقل الأمير إلى قصر بمدينة آمبوازAmboise، فقد غادر مدينة پو يوم 02 نوفمبر 1848 مصحوباً بكل مرافقيه. أخذ مكانه مع ولديه في عربة خيل مكشوفة، يتبعهم على حصان الرائد بواسّوني وعدة ضباط آخرين وفصيلة من الدرك. ناول أحد أفراد الحراسة ظرفا موجّهاً إلى خوري سان مارتان، يقول فيه: «سوف يعذرني، لكن شحّ مواردي لم يسمح لي بغير هذه الصدقة المتواضعة».

كانت السفينة التي تنقله من بوردو Bordeaux، قد عبرت لاجيروند La Gironde ومضت إلى مدينة نانت Nantes حيث حيّاه الجيش، بينما كانت تتردد ثلاث عشرة طلقة مدفعية في الفضاء. لكن في آمبواز، حيث كانت زينة جديدة قد أُعدَّت لعبد القادر، كانت الحراسات في كل مكان، وكانت الدوريات متحرِّكة، حتى إن مفتشي الأمن العام كانوا متمركزين في بيت مشرف على المدخل المُحَجَّر من قبل، والذي كان يؤدي إلى القصر.

ما كاد يمضي شهر على وصوله إلى آمبواز، وفيما كان عبد القادر يتساءل عن دلالة هذا التعزيز لتدابير الرقابة، حتى جرى التخفيف من أسرِه الجديد بالإعلان عن انتخاب الأمير لويس نابوليون لرئاسة الجمهورية. فظهر له الأمل مجدداً. حتى إن تسريبات قد سَرَت حول نية الأمير الفرنسي في التوسيع على الأسير، كتلك التي نشرتها جريدة (Le Crédit).

http://www.al-maktabeh.com

وفعلا، فقد أشارت الجريدة إلى أن رئيس الجمهورية الجديد كان قد دعا إلى اجتماع استثنائي، حضره الماريشال بيجو والجنرال شانغارنييه، للتداول في المصير الواجب تقريره بشأن الأمير.

وبينما كان كل من بيجو وشانغارنييه يؤيدان إطلاق سراحه، كان وزير الحربية الجنرال روليير Rulhiere معارضاً لذلك معارضة قاطعة. للإقتناع بذلك. يكفي أن نقرأ المراسلة التالية المنشورة في جريدة (المورنينغ پوست) سنة 1852، أي بعد تحرير الأمير: «كان أحد أصدقائي، الذي كان وزيراً لدى لويس نابوليون مباشرة بعد انتخابه سنة 1848، قد أخبرني أن لويس نابوليون تداول في أحد المجالس الأولى المعقودة في قصرالإليزيه، حول تحرير الزعيم العربي الشهير. ومما يلاحظ اليوم أن عبد القادر، لو لم يُطلق سراحه قبل الآن، فذلك لأن رقابة الجمعية الوطنية كانت بين الأمير والوزير».

أن يدعو لويس نابوليون إلى عقد اجتماع استثنائي، إثر انتخابه ببضعة أسابيع، للتداول في القضية، فهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة. ففي الواقع كان لويس نابوليون قد خصّ القضايا الجزائرية دائما باهتمام خاص. فهو عندما كان منفياً في لندن، دعا سنة 1839 (أي بعد استئناف عبد القادر للقتال)، الحاكم العام السابق درويبه درلون للقدوم إليه، للتداول في الوضع في الجزائر. وعندما صار رئيساً للجمهورية طرد لويس فيليب، وكان من الطبيعي أن يسجل نقطة مشرّفة بإصلاح الأذى الذي ألحقه الملك بالأمير، وبالتالي محو العار عن فرنسا.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عقد هذا الإجتماع يوم 14 جانفي 1849. وكان على الماريشال بيجو أن يزور آمبواز يوم 29 من الشهر نفسه، لمقابلة الأمير وإطلاعه على مقترحات جديدة. لكنه انشغل بالإضطرابات التي اندلعت في باريس، فكتب رسالة إلى عبد القادر يعتذر فيها عن مهمة كان لويس نابوليون قد كلّفه بها، لأن من الصعب التصوّر أن بيجو يمكنه القيام بمبادرة كهذه لدى الأمير، دون تعليمات من رئيس الجمهورية، أو على الأقل دون موافقته الشكلية.

وبالتالي من الصعب افتراض غياب الترابط بين اجتماع 14 جانفي والزيارة المتوقعة لآمبواز يوم 29 منه.

« إلى الأمير عبد القادر

كان مرادي التوجه إلى حضرتك لأفاوضك في أمرك، الذي أنت فيه. ولكن منعني اضطراب الأحوال، وحيث أن الكتاب قد يقوم مقام كاتبه فيما يرومه، فإني أقول: إنك قد قاسيت أهوالا عظيمة، وبسببك احتملت بلاد الجزائر مصائب جمة. ولحق فرنسا منها أوفر نصيب.

ومن حين ألقيت بنفسك وبمن معك إلى العساكر الفرنسية، وصرتم في قبضتها، حدث في فرنسا اضطراب لم ينقل التاريخ مثله. فلا شك أن بلادك وبلادنا استحقا هذا القصاص لأمر ما. فإن الله حاكم عادل، ولا أحد يدرك ما يريد.

فالملك الذي سقط في الأيام الماضية، كان وعدني وعدا وثيقا بإطلاق سراحك وإرسالك إلى مكة، ثم جاءت الحكومة التي قامت عليه وخلفته، فنظرت في أمرك، وجنحت إلى ما جنح إليه الملك. ولكن أجبرها الصوت العمومي على ترك ذلك.

http://www.al-maktabeh.com

والآن أخبرك إخبار صاحب حقيقي لك: إنه ربما تمضي سنون عديدة ولا يتيسر لك التوجه إلى المواضع التي طلبتها، وإن سليت نفسك بالأماني الباطلة، فإن ذاتك تصير في أشد الكدر. وبناء على ذلك أشير عليك أن تكون على حسب الحال التي أبرزتها حوادث الدهر، على وفق الإرادة الإلهية. وذلك بأن توطن نفسك على جعل فرنسا وطنا لك، فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة في أرضها، ينتج لك منها ما تعيش به، كواحد من كبرائها، مع مداومتك على أداء وظائفك الدينية كما تريد، وبلوغ مرادك في تربية أولادك، حيث أني أعلم أن أمر المعاش لا يهمك، وإنما يهمك مستقبل أولادك، مع حقوق الجماعة التي هم في معيتك.

فإنك تراهم يموتون كمدا، مع أنهم لو كانوا في أرض تخصهم، لكانت أيامهم تمضي بكل سرور، لأن حراثة الأرض ألذ شيء عندهم. ويمكنهم أن يتنزهوا ويتسلوا بالصيد متى شاءوا، فيكون لهم من رؤية أشغالهم كل يوم فرح جديد، والحق تعالى لم يخلق شيئا أعظم تسلية للأنفس من منظر الأشجار والنباتات الغريبة في الكون، الحسنة اللون.

فهذا ما أشير به بحسب الحقوق الإنسانية، وبالخصوص عليك، لما ألم بك من المصائب، مع اتصافك بالصفات الحسنة، التي وهبها الله لك، راجيا قبول تحياتي المقدمة مع الإكرام والإحترام.

الماريشال ب. دو إيسلي

05 ربيع الأول 1265 هـ، 28 جانفي 1849 م »

مكتبة المهتدين الإسلامية

وبعيدا من أن تحظى هذه الرسالة بأقل نجاح، أثارت ردّ فعل كان لابد من ارتقابه. فانتهز الأمير الفرصة لتقديم احتجاجات شديدة: « لو جمعت فرنسا كل كنوز الدنيا في ذيل برنسي، ثم خيرتني: بين أخذها وبين حريتي، لاخترت حريتي.

فأنا لا أطلب رحمةً ولا نعمةً؛ إنما أطلب تنفيذ التزامات جرى التعهّد بها نحوي. كنت قد طلبت عهدا فرنسيا؛ وكان جنرال فرنسي قد أعطاني إياه بلا قيد؛ وأكده جنرال آخر ابن الملك؛ فكانت فرنسا ملتزمة تجاهي مثلما هي ملتزمة تجاه نفسها. واليوم، طلب الرجوع عن ذلك يعني طلب المستحيل. لن أعيدَ كلامكم إليكم؛ بل سأموت معه لتلطيخ شرفكم. ومن خلال مثالي، ستعلم الشعوب والملوك أية ثقة يمكنهم أن يضعوها من الآن فصاعداً في العهد الفرنسي».

كان لويس نابوليون قد تصوّر، إذا تقبّل الأمير عَرْضَه، أن يضع قصر تريانون تحت تصرّفه. لكن ظرفاً غير متوقّع كان قد جعل رئيس الجمهورية يؤجّل حتى إشعار آخر، كل فكرة بإطلاق سراح عبد القادر.

وفيما كان بيجو يتلقّى جواب الأمير، كان الجنرال فابفييه يطالب من على منبر المجلس، بنية شريفة، دفاعاً عن حرية عبد القادر وعن شرف فرنسا، بتنفيذ اتفاقية تلّ كربوس، لاحظ عضو في المجلس أن الأمير، « حين أمرَ بمجزرة أسرانا، إنما كان قد وضع نفسه خارج القانون ».

http://www.al-maktabeh.com

فقد سجل التصويت النيابي الذي تلا المناقشة، الإرادة الطيبة للويس نابوليون. منذ تلك اللحظة، لم يعد أسير آمبواز يتوقع حرية إلا في المستقبل البعيد. لكنه كان يحتفظ بالأمل، كنوع من اقتناع حميم، بأن وريث أسير القديسة هيلانة سينتهي به الأمر إلى إنصاف أسير آمبواز.

كتب الكونت دو سيفري le Comte de Civry: « ذلك الذي كانت الصحراء أُفقه، والذي كان يأمر قبائل لا تُحصى ويقود محاربين لا يهزمون، وكان يخشى جانبه كفاتح، ويُطاع كملك ويُبجّل كسيِّد. والذي كان طيلة خمس عشرة سنة لا يتوقف عن العبور بجواده العربي وبكل سرعته، ميدان قتال أوسع من إمبراطورية...رأى فجأة الجدران الأربعة لقصر محصن ترتفع في وجهه ».

لقد كان عبد القادر مقتنعاً بأمر واحد: هو عدم اليأس وانتظار أيام أفضل. لهذا، كان يلزمه تنظيم حياته في القصر. فعلى الرغم من إلحاح الطبيب الذي كان ينصحه بالتنزه، ظل منحبساً، وهو يقول: « لا يمكن للصحة أن تأتي من هواء السجن. فما يلزمني إنما هو هواء الحرية: هو وحده قادر على شفائي».

كان يحبس نفسه لكي يعزّيها بالعمل والدراسة. فكان الرائد بواسّوني يقضي معه عدة ساعات كل يوم. وكان يشرح مطوّلاً للأمير العادات والتقاليد الأوروبية والفرنسية، وتطورات العلوم والصناعة، والأدب والفلسفة والتاريخ الفرنسي. وأثار الفضول لدى رجل كان يُجيد ثقافة عربية عظيمة، فراح يجري مقارنات

مكتبة المهتدين الإسلامية

بين العصور في أوروبا وفي الشرق، وبين عظماء الرجال. وكان الجانب المخصص لنابوليون الأول مهيمناً على محاورالهمـــا، لأن عبد القادر كان عاكفاً على إضاءة المناطق الظليلة في أســـطورة بونابرت الرائعة.

وكانت القومية والروحانية والإنسانية وتجلياتها في المجتمعات تجعل الرجلين يغوصان في مناقشات مثيرة، غالباً ما تُستأنف في اليوم التالي بمزيد من الإهتمام. كان عبد القادر يستمتع بتشريح ذلك كله، ودرس مختلف الموضوعات برؤية شمولية، الأمر الذي أدى به فيما بعد إلى بلورة أفكاره في «رسالة إلى الفرنسيين» أرسلها إلى الجمعـــية الآســـيوية من خلال رئيسها دِي رينـــو De Reynaud وهو أيضاً عضو في المعهد. لم يكن الأمير على هذا النحو، يخاطب الحكومة في هموم فكرية محضة، بل كان يخاطب الشعب الفرنسي عن طريق ممثليه الثقافيين. كان أول مترجم لهذا العمل دو غوستاف دوغا De Gustave Dugat، وبطلب منه، وافق الأمير عليه بكل طيبة خاطر. وكان العنوان:

(ذكرى العاقـــل وتنبيه الغافل)

(Rappel à l'intilligent, avis à l'indifferent)

وطيلة هذه الفترة، تبادل مع الجنرال دوما مراســـلات وفـــيرة وغنية حول العادات والتقاليد والأعراف والـــزواج والطـــلاق والوراثة والجياد العربية أو الأصيلة، حيث كان يردّ على الجنرال بوضوح مرموق وأحياناً بأشعار عذبة، كتلك القصيدة الشـــهيرة التي قارن فيها بين الحياة البدوية والحياة الحضرية، مفضّلاً بالطبع الأولى على الثانية.

http://www.al-maktabeh.com

هكذا، كان عبد القادر يقضي أيامه في آمبواز بين الدراسة والتأمل في موضوعات إنسانية بامتياز، وبين الصلوات والتأملات الدينية.

* * *

توفي الماريشال بيجو في باريس سنة 1849 بوباء الكوليرا، خصمه بالأمس والمدافع عنه اليوم. فقدّم الأمير تعازيه الحارة إلى العائلة. وكان هو نفسه قد فقد ابنه وابناً وحفيداً وعدة أفراد من حاشيته؛ وعندما غادر آمبواز، ترك في مقبرة المدينة خمسة وعشرين قبراً مسلماً.

وأخيراً سيغادر مدينة آمبواز لاستعادة حريته. كان ذلك يوم 16 أكتوبر 1852. ففي صباح ذلك اليوم، كان الرائد بواسّوني قد تلقّى الأمر بتحضير سري للعربات في محطة آمبواز لنقل الأمير لويس نابوليون إلى القصر، وكان عائداً من جولة في بوردو محاطاً بحاشيته. لكن عبد القادر ما كان ينبغي له أن يكون مطّلعاً على شيء. خلال وصول الأمير الفرنسي ونزوله من القاطرة، وبعدما تحادث لحظة مع الرائد بواسّوني، صعد إلى العربة، وأخذ ورقة وقلماً وراح يكتب بضعة لحظات.

حين وصل إلى القصر، يتبعه الجنرال سانت آرنو، والسادة: فولد، باروش، الجنرال روكيه، العقيد فلوري، وعدّة ضباط آخرين، جرى إيصاله إلى القاعة الكبرى التي كان الأمير يستعملها كغرفة استقبال، وأمر بواسّوني بدعوة الأمير إلى الحضور.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لنترك الأمير يروي بنفسه ذلك اللقاء التاريخي:

« يقول لنا: عندما دخلتُ وقف السلطان الذي كان قاعداً على كنبة. وكان وزراؤه وضباطه عن يمينه وعن يساره. فتقدّمت حتى تلك الطاولة الموضوعة في وسط الصالون، والتي كانت تفصلني عنه. وكان الرائد عن يميني. عندما حيّيتُ السلطان من القلب، نطق بعدة كلمات فرنسية لم أفهمها، لكنني كنت من خلالها قد تميّزت كلمة الحرية، إحدى الكلمات التي أعرفها جيداً في لسانكم، لأنها هي التي ردّدتها غالباً. ثم استدار نحو الرائد وناوله ورقة، مضيفاً بضع كلمات. علمت عندئذ أنه كان يأمره بأن يترجم لي ما كانت تنطوي عليه تلك الورقة المكتوبة.

لكن الرجل المسكين كان شديد الإنفعال أمام كلمات السلطان الأولى، خلال لحظات معدودات بدت لي أنها طويلة جداً، لدرجة أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، وبالتالي عجز عن إبلاغي مضمون ما جاء فيها. ولما استعاد رباطة جأشه، ترجم لي كلمات السلطان وعلمت أنني صرتُ حرّاً».

أما السطور التي كتبها لويس نابوليون في الطريق بين محطة آمبواز والقصر، والتي جعلت قلب عبد القادر يخفق ويتماوج، بعدما أُفعم بالسعادة من أثر المفاجأة، فهي التالية:

«عبد القادر، إني أتيت لأعلن لك بحريتك، وأنك ستحمل إلى بروسيا في دولة السلطان. وعند الإنتهاء من الترتيبات الضرورية ستتلقى من الحكومة الفرنسية معاملة تليق بمقامك السامي[1].

1 - تلقّى عبد القادر معونة سنوية بقيمة مائة ألف فرنك .

http://www.al-maktabeh.com

واعلم أن سجنك قد كدرني كدرا حقيقيا مدة طويلة، لأنه ذكرني بأن الحكومة التي سبقتني لم تفي بالتزامات تم اتخاذها نحو عدو. وفي نظري لا شيء أكثر إهانة لحكومة أمة كبيرة من عدم الوفاء بوعدها...، لقد كنت عدوا لفرنسا، لكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بشجاعتك وقوتك وصبرك في الشدائد، لهذا سألتزم بشرف إنهاء سجنك واثقا ثقة تامة في عهدك.

حرر في 16 أكتوبر 1852 ».

أعرب له عبد القادر عن شديد امتنانه. ولم يقسم أي يمين. وحين مضى لمناداة والدته حتى تقابل الأمير الذي سيقبِّل يدها، التقى أصحابَه وزفَّ إليهم البشرى. وعندما غادر لويس نابوليون القصر، التقى بكل أصحاب عبد القادر المكدَّسين في الممرّات، لأنهم كانوا قد توافدوا لكي يحيّيوا محرِّرهم ويصفقوا له.

كان العمل الأول لعبد القادر هو جمع أصحابه والدّعاء معاً حتى يترل اللّه بركاته على السلطان، الذي كان قد أعاد إليهم حرّيتهم. ثم صعد إلى جناحه، ناسياً في لحظة سعادة مفاجئة، خمس سنوات من الأسر الطويل والشديد.

ثم ألّف قصيدة طويلة، تمجيداً لنابوليون الثالث، إليكم أبياتها الأخيرة:

« باريسُ لَكِ البُشرى
فقد عاد إليكِ
ذلك الذي أنقذكِ من البأساء

مكتبة المهتدين الإسلامية

لك البُشرى يا باريس!
لقد عاد إليك الذي تسودين به على الممالكِ الأخرى؛
فكل المدن الأخرى تحسدكِ على أميركِ
كما تحسدكِ الشمس الساطعة ونجم الليالي
سيّدي، يا سيّد الملوك
يا سليل نابوليون، العظيم، الساطع،
كنتُ آملُ منكَ عملاً يليقُ بك
عملاً يعود على صانعه
بالمجد وثواب السماء
وها أنا أراه: لم يشأ اللّه سواك لإسعادي.
فاحمدوا اللّه، جميعاً، بلا حد!
فأنت حين أنعمت عليَّ بهذه النعمة
إنما أنعمت بها على إنسانٍ سيكون سعيداً بأن يشكرك
فهو صاحب قلب مؤمن».

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

إستقبال عبد القادر في باريس

بما أن عبد القادر قد طلب الإذن له بزيارة باريس، فقد وصلها يوم 27 أكتوبر1852 برفقة الرائد بواسّوني، والمخلص قاره محمـــد القائد السابق لخيّالته، والشاب بن علال حفيد الخليفة المقتول في معركة 11 نوفمبر 1843.

كان ثمة عرض بالأوبرا في ذلك المساء، حيث كان يُفترض إنشاد مقطع على شرف الرحلة الأميرية إلى بوردو، حيث كان الأمير الفرنسي قد أعلن: «الإمبراطورية هي السلام»، والتي كان يُفترض أن يحضرها لويس نابوليون. فجاء إلى الأمير عبد القادر العقيد هنري، مساعد معسكر الجنرال سانت آرنو، ناقلاً إليه دعوة من الوزير لحضور العرض. أبدى عبد القادر اهتماماً قليلاً، فهو مُنهك من السفر؛ لكن العقيد سارع إلى إبلاغه بحضور لويس نابوليون، مما جعل الأمير يغيّر رأيه ويقول له: « سأرى السلطان؟ ». قال له « من بعيد »، « لا فرق، ردّ عبد القادر، المهم هو أن أراه ». وذهبا على التوّ.

كانت القاعة مكتظة بالأرستقراطية الباريسية وأعيان الدولـــة وأركان الجيش، وشخصيات من عالم الفنون والعلوم. ومـــا أن دخل عبد القادر وجرى التعرّف عليه، على الرغم من عدم العلم بوجوده في باريس، حتى انصبّت كل الأنظار نحوه. ولم يتعـــيّن عليه التخلّص من ذلك الفضول الودّي والحارّ، إلا عندما ظهـــر الأمير الفرنسي وعلا التصفيق لتحيته. فهل كان عبـــد القـــادر سيتمكّن من تحيّة محرِّره؟ جاءه الردّ سريعاً، ســـوف يُستقبـــل أثنـــاء الإستراحة.

http://www.al-maktabeh.com

لقد حانت اللحظة التي انتظرها الأمير مطوّلاً. جرى نقله من مقصورته إلى مقصورة لويس نابوليون. وعلى طول الممر، كان أفراد هذا الحضور الساطع قد شكّل حاجزاً من الجانبين على طريقه، وكان الرجال يرفعون قبعاتهم باحترام، والنساء يلوِّحن بمناديلهن أمام بطل الملحمة الجزائرية. وبينما كان عبد القادر يمدّ يده، فتح الأمير لويس له ذراعيه وعانقه. أمام هذا المشهد العاطفي، ماجت القاعة من جديد. وبعدما سأل لويس نابوليون الأمير عبد القادر عن أخبار والدته، أعلمه أنه سيغيب لمدة يومين في الصيد، وأن استقباله الرسمي في سان كلو Saint. Cloud سيجري لدى عودته. نقلت كل الصحافة الوقائع، وصارت كل فرنسا على علم بالحدث.

زار عبد القادر خلال هذين اليومين الطويلين عدّة معالم أثرية. حيّاه شعب باريس في الشارع، ولدى مروره في كل موضع وهو يرفع قبّعته، كما فعلت أرستقراطية الأوبرا. كان رجل الشارع قبل أربعة أعوام، قد تمنّى الموت لخصم فرنسا. واليوم ربما بعدما رأى بؤسه، أراد من خلال علامات ودِّه أن يجعله ينسى ما لحق به من ظلم.

وفي صبيحة الإستقبال الرسمي في سان كلو، قام عبد القادر بمقابلة مترجمه في الصالون، وناوله ورقة مكتوبة بيده. وما أن قرأ سطورها الأولى، حتى سأل عبد القادر عما كان ينوي أن يفعل بها. فجاوبه: «اسمعْ، لقد نقلت الصحف أن السلطان عندما جاء لإطلاق سراحي، أقسم له على تعهدات؛ وهذا غير صحيح.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لم أشأ ذلك، بسببه وبسببي. بسببه، لأن ذلك معناه التقليل من عظمة كرمه، إذ يوحي بأنه كان قد أملى شروطاً عليَّ، فيما هو لم يطلب شيئاً.

وبسببي، لأني أكره أن أُعتبر يهودياً يفتدي حرّيته بقصاصة من ورق. لقد أردت أن أجيء إلى باريس، ولم يطلب أحد مني ذلك، لكي أبرهن على أنني كنت أتصرّف بملء إرادتي الكاملة، ولكي أضع بين يدي السلطان عهداً مكتوباً. وها هو بين يديك منذ دقيقة ».

ثم نسخ عبد القادر نصّه وأعطاه للمترجم. لم يكنْ أحد قد طلب منه ذلك. فقد أعرب عن رغبته في زيارة باريس بهدف لقاء الأمير الفرنسي ووضع هذا الإقرار بين يديه. وإليكم النصّ:

« الحمد للّه وحده!

لقد قدمتُ إلى سموكم العالي الشأن لأشكر لكم إحسانكم وأشبع من رؤيتكم. فأنتم في نظري أغلى من أي صديق آخر، لأنكم أنعمتم عليّ نعمةً أعجز عن ردِّها إليكم، لكنها ليست أرفع من قلبكم الكبير، ومن علو مقامكم ونبلكم. فليمجّدكم اللّه!

فأنتم من أولئك الذين لا يعدون وعوداً فارغة ويخدعون بالكذب. لقد وثقتم بي؛ ولم تصدِّقوا هؤلاء الذين كانوا يشكّون بي: لقد أطلقتم سراحي ملتزمين بذلك، ودون وعدي بشيء، بالتعهدات التي كان آخرون قد قطعوها لي، ولم يفوا بها.

http://www.al-maktabeh.com

وعليه، فقد أتيتكم مُقسماً لكم بعهود اللّه وميثاقه، بعهود كل الأنبياء وكل المرسلين، بأني لن أقوم أبداً بأي شيء مخالف للثقة التي وضعتموها فيّ. وأني لن أنقض هذا العهد؛ ولن أنسى أبداً الكرم الذي حظيتُ به، وأني أخيراً لن أعود أبداً إلى ديار الجزائر.

فعندما أمرني اللّه بالقيام، قمتُ وأطلقت البارود على قدْر مستطاعي؛ وعندما أمرني بالتوقف عن ذلك، توقفت مطيعاً أوامر العلي الأعلى، عندها تركت الحكم وجئت إليكم.

إن ديني وشرفي يأمرانني بالوفاء بعهودي وعدم اللجوء إلى الكذب. فأنا شريف (من سلالة النبي) ولا أريد أن يتمكّن أحد من اتهامي بالخيانة. والحال، كيف يمكن لذلك أن يكون ممكناً، الآن وأنا أنعم بنعمكم وبإكراميات لن أستطيع أبداً أن أشكركم عليها حقّ الشكر؟ إن الإحسان هو رباط في عنق أهل القلب.

آمل من كرمكم ومن شخصكم النبيل أن تُبقوني بالقرب من قلبكم، عندما سأغدو بعيداً عنكم، وأن تضعوني في عداد أشخاص عطوفتكم، لأني وإن كنت لا أضارعهم بجدوى خدماتهم، فإني أضارعهم بالمودة التي أكنّها لكم. فليضاعف اللّه من محبة هؤلاء الذين يحبّون، ومن الرهبة في قلب أعدائكم!

لقد أنهيت كلامي، ولم يعد لديَّ ما أضيفه، اللهمَّ إلا أني سأبقى على صداقتكم، ومخلصاً للوعد الذي قطعته لكم».

(حرِّر في منتصف شهر محرّم 1269 - 1852/10/30).

مكتبة المهتدين الإسلامية

رافق الجنرال دوما عبد القادر إلى أمير فرنسا. وبما أنهما كانا قد وصلا قبل الموعد بعدّة دقائق، لمح عبد القادر ساعة معلّقة على الجدار؛ كان الوقت المطابق لصلاة العصر. ولما استدلّ إلى وجهة مكة، ركع وصلّى وقام.

ظهر أمير فرنسا محاطاً بالوزراء وبكبار الضباط في البيت العسكري، وكان الإستقبال ودياً وعاطفياً . وبعد تقديمه للوزراء أخذ عبد القادر الكلمة وقال: «سيدي، أرجوك ألا تحاسبني بحسب تقاليدكم التي لا أعرفها، لأني غريب، لكن حاسبني بحسب تقاليدي. ربما لا يكون الأمر هكذا، من حيث تقاليدكم؛ وإني أطلب معاملتي بحسب تقاليدي، وأن أوجّه لكم بعض الكلمات».

ثم أضاف: « سأتمكن بفضل كرمكم من المضي للعيش على أرض إسلامية؛ لكن الكلمات تطير، وحتى أعطيها جسداً، وضعت عهودي ووعودي في الإقرار الذي أضعه بين يديكم ».

قال أمير فرنسا لعبد القادر أنه كان شديد التأثر بمسعى عفوي جداً من جانبه؛ مؤثراً الإكتفاء بشرفه، إذ لم يكن في آمبواز قد طلب منه عهوداً؛ وأضاف إن ما أقدم عليه الأمير إنما يدل على أنه كان محقاًّ.

* * *

http://www.al-maktabeh.com

أعرب عبد القادر عن رغبته في زيارة ضريح بونابرت. كان يعرف كل شيء عن الرجل، عن حملته على مصر، عن حملته على روسيا وانتصاراته الكثيرة، ثم عن (معركة) واترلو Waterloo في 1815/06/18 وجزيرة القديسة هيلانة، ثم عن عودة رفاته. وبعد ذلك زار الآنفاليد، ثم زار قسم التمريض حيث توقّف أمام سرير جندي معاق، وأخذ يده وقال وهو يخاطب الجرحى الآخرين الذين كانوا قد انحنوا أمامه: «سأخرج مفعماً بالسعادة التامة من مشفى الجرحى هذا، لأني رأيت فيه ضريح السلطان نابوليون، ولمست السيف الذي كان يحمله في المعارك. هذا إذا لم أحمل معي الفكرة بأني أترك في هذا المأوى رجالاً جرحوا بيدي أو بأيدي أتباعي».

وبناء على طلبه، نُقل من الآنفاليد إلى مترل الأب سيبور أسقف باريس. فقال وهو يخاطبه: «أردت أن أنقل إلى واحد من كبار رؤساء دين المسيحيين شكري لما أسدت الأخوات في آمبواز من إحسان لي، لعائلتي ولصحبي، خفّف هناك من آلامنا وعذابنا. إنهن نساء قدّيسات أدعو اللّه أن يثيبهنّ، ما دمت عاجزاً عن مكافأتهن بنفسي».

وبعد متحف المدفعية حيث تفحّص عن كثب القطع المدفعية التي غالباً ما اضطرّ لمواجهتها في معارك قاتلة، جرى نقله إلى المطبعة الإمبراطورية؛ فكان عمّال مَهَرة منكبّين على الإستنساخ عن الأصل، للإقرار الذي وضعه الأمير بين يديّ لويس نابوليون،

مكتبة المهتدين الإسلامية

يوم 30 أكتوبر الماضي. ثم انتقل إلى الصحافة الأوتوغرافية حيث كان يُطبع في لحظة واحدة تصريحه لأمير فرنسا بنصه الكامل.

وعندما وصل إلى ورشة الآلات، شرحوا له كيف أن العمال كانوا يشكّلون كلمات ثم أسطراً ثم صفحات، من هذه الحروف الصغيرة التي كان قد رآها، ثم يجري جمع هذه الصفحات، وتوضع على آلة تقوم في ساعةٍ بعمل فرد خلال ستين ألف ساعة، فاندهش من ذلك.

عندئذ أعرب عن إعجابه فقال: «بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع. وفي هذا اليوم رأيت الحروف التي تغلب بها أسرة الملوك، وتخرب بها دولهم وهم لا يشعرون. فما يخرج منها يشبه قطرة ماء هطلت من السماء. فإذا سقطت في صَدَفةٍ شبه مفتوحة، أنتجت الدُّر. وإذا وقعت في فم الأفعى، أنتجت السمَّ الناقع».

إن مثل هذه الكلمات لا يمكنها إلا أن تعطي فكرةً عن الرجل القادر، الذي يمكنه بارتجال رائع، التعبير ببضع كلمات عن أفكار عميقة.

فقد كان عبد القادر يمارس هذه الفتنة الطبيعية عفوياً بلا تصنّع، مع الأشخاص الكثيرين الذين كان يستقبلهم كل صباح على مدى أسبوعين. فكان يتحدّث عن المعارك مع الجنرالات الذين كان قد حاربهم، وعن العلم مع العلماء، وعن الثقافة مع أهل الفكر، وعن السياسة مع رجال الدولة؛ وكان يجد الكلمة المناسبة لكل منهم. وسرعان ما انتشر في الصالونات الباريسية

http://www.al-maktabeh.com

السِّحر الأخّاذ الذي كان يفيض من محاورته. فإذا كانت فرنسا قد غلبت الأمير، فإن عبد القادر قد غزا فرنسا.

لكن زيارة أثّرت فيه بنحو خاص: زيارة الخمسة من بين سجنائه القدامى في دائرته، ومنهم النقيب لازّاريه Lazzaret الذي صار حارس حديقة تويلري. جاؤوا كلهم ليشكروا له حسن المعاملات التي تلقّوها طيلة أسرهم، من طرفه ومن طرف عائلته.

وقبل الرجوع إلى آمبواز بانتظار الإعدادات اللازمة لسفره إلى (بروس) في تركيا، أُخذ عبد القادر إلى الأمير لويس نابوليون ليستأذنه بالسفر. فأعلمه الأمير الفرنسي أنه كان قد أوصى على سيف ليقدّمه له. وأضاف: « أردته أن يكون جديراً بكم وإني آسف، على الرغم من مهارة العمال، لعدم تمكّني من تقديمه قبل سفركم إلى بروس. سوف يصلكم عن طريق سفيري في القسطنطينية. عبد القادر، هذا السيف أعطيكم إياه، بدلا من السيف الذي قدمتموه إلى الدوق دومال، وأنا واثق أنكم لن تشهروه أبداً ضد فرنسا».

هل هذا يعني أن ابن الملك لم يكن جديراً بسيف الأمير؟ هذا لسيف، تلقّاه بالفعل بعد شهر من وصوله إلى بروس. والشفرة مؤرخة من أيام بني العباس، مؤسّسي سلالة العباسيين، والقبضة كانت مرصّعة بالحجارة الكريمة، وعلى الغمد حُفِرت هذه لكلمات: « السلطان نابوليون الثالث إلى الأمير عبد القادر بن محيي الدين، ديسمبر 1852 ».

رجع عبد القادر إلى آمبواز، وأبلغ أمير فرنسا طلبه بأن يسمح ه بالعودة إلى باريس لكي يحظى بأن يكون شاهداً لإعلان

مكتبة المهتدين الإسلامية

الإمبراطورية. وكان أصحابه قد علموا من خلال رسائله إليهم، كيف جرى استقباله في باريس، ومدى التقدير الذي حظي به، فراحوا يستعدّون للإحتفال بعودته. فوجد أهم أتباعه مجتمعين عند عتبة القصر. حيّاهم بسرعة وسارع إلى زيارة والدته التي كانت تنتظره عند باب جناحها. فعانقها بانفعال وركع عند قدميها. فأنهضته واقتادته إلى الصالون حيث طلبت منه أن يروي لها بالتفصيل رواية إقامته في باريس.

إنه تقليد عربي محبّب، بعد العودة من السفر، ما بين الأم المُطاعة والإبن المطيع، وخلال رواية عبد القادر ما جرى له، سالت الدموع على خدّي الأم السعيدة أخيراً. ثم أخذته في حضنها، فقادها عبد القادر إلى المسجد، حيث كان قد اجتمع كل أصحابه. فدعا بصوت عال لأجل سلامة الأمير الفرنسي، وقال إنه لم يكتفِ بإطلاق سراحه، بل خصّه باستقبال في غاية الحفاوة والحرارة، وكرّر الحاضرون دعاءه.

أما الوقت المتبقّي لرحلته الثانية إلى باريس، التي وصلها في أول ديسمبر التالي، فقد خُصّص لاستعدادات السفر إلى بروس. كان قد مرّ عشرون عاماً على إعلان الأمير عبد القادر سلطاناً في سهل غريس؛ وها هو الآن بعد مجد وارتكاسات، أميراً مسلماً يحضر حفل صعود أمير مسيحي إلى المرتبة الإمبراطورية.

* * *

وفي الثاني من ديسمبر 1852، لحظة دخول لويس نابوليون إمبراطوراً إلى قصر التويلري، لمح عبد القادر واقفاً عند أسفل

http://www.al-maktabeh.com

سلّم الشرف وسط كبار أعيان الدولة، فتوجّه نحوه على الفور، وشدّ بحرارة على يده وتبادل معه كلمات ودية.

سافر عبد القادر من آمبواز إلى مرسيليا يوم 11 ديسمبر، حيث أبحر إلى القسطنطينية يوم الحادي والعشرين من الشهر نفسه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

عبد القادر في دمشق
وإنقاذ إثني عشر ألف مسيحي

وصل عبد القادر إلى دمشق في ديسمبر 1855، قادماً من القسطنطينية على متن باخرة قادته إلى بيروت، ومعه مئة وعشرة أشخاص، منهم ثلاثون من أفراد أسرته. وسرعان ما انضمَّ إليه مئةٌ من جزائريين آخرين قادمين برّاً. لكنه حين وصل إلى دمشق وجد منهم خمسمئة آخرين مقيمين من قبل، هم أولئك الذين جاؤوا سنة 1847 مع الخليفة بن سالم إلى منفاه.

وعمّا قريب ستنضمّ إلى هذا العدد من المغاربة (من سكان المغرب العربي والمقصود بهم الجزائريين)، مجموعات أخرى من أفراد كانوا قد حاربوا سابقاً تحت قيادته، وكانوا يصرّون على أن يقاسموه تقاعدَه في أرض إسلامية، بحيث صار في عهدة عبد القادر، مطلع الصيف، ألف ومائتي مواطن مخلص له.

انكبَّ الأمير منذ وصوله إلى دمشق على أن يبرهن للأتراك بأنه لم يكن ينوي الإهتمام بالشؤون السياسية. إذ كانت أيامه منظّمة تنظيماً دقيقاً. فكان يقضي وقته في الجوامع واجتماعات مع العلماء أو في قراءات مختارة، منها كتب معلّمه المبجّل ابن عربي؛ وكان يخصّص بقية وقته لتربية أولاده، سي محمد، سي محي الدين، سي الهاشمي وسي إبراهيم.

http://www.al-maktabeh.com

اجتذب هذا البرنامج اليومي نحوه احترام وإعجاب عدد كبير من الأشخاص؛ لكنه أثار لدى آخرين حسداً مكبوتاً. فهو عندما دخل إلى دمشق، كان هناك عدد كبير من المتعلّمين ومن رجال دين، قد جاءوا لاستقبال ذلك الذي كانوا يعتبرونه الرجل الورع، العالِم الشهير والقائد الحربي المميّز.

وكان الإعتراف بلقب أمير يُضفي على شهرته هالةَ مجد ويثير نار الفضول. وكان المغاربة Maghrebins الذين انتظروه عند ضواحي المدينة، قد استقبلوه بهتافات وتحيّات كثيرة، لدرجة أن كل الناس أمكنهم أن يسبروا عمق الإحترام الذي كان يتمتع به من أعيان المدينة، حتى السلطات التركية والمُمثليات القنصلية. وأن يعرفوا مدى الرصيد المعنوي الذي يتوفر عليه، والإحترام الذي يتمتع به.

ولما استقرّ الأمير في دمشق، راح يلقي دروساً ومحاضرات، مما زاد من شهرته لدى الطبقة المتعلمة التي اكتشفت بدهشةٍ حقيقية، تبحّره العلمي الواسع وثقافته الكبيرة. وسرعان ما تزايد عدد طلابه والباحثين، على حساب أساتذة آخرين كانوا من المشاهير حتى ذلك الحين.

وفي المقابل، فإن ظاهرة تعاطف النخبة معه، المتعطشة إلى سماعه وهو يعلّم ببلاغة طبيعية، قد عادت عليه بعداء بعض رجال المذهب، ممن ارتعشت قلوبهم من دخول فقيه جديد على المسرح، أكثر إلهاماً منهم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت قراءاته اليومية تقوده من الأدب إلى التـــاريخ، ومـــن التاريخ إلى الفلسفة. وكان يُؤثر أعمال معلّمه ابـــن عـــربي [1]، الذي ألهمَ بغيبوبة الحبّ الصوفي للإله الواحد، المُمجَّد بالحب وفي الحب، بعض قصائده البديعة الجمال.

ترك، فضلاً عن (رسالة إلى الفرنسيين) التي نشرت بعنوان (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)، كتاب (الـــمواقف) في الفكر الصوفي، وكتاب (المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد)، و(الـــديوان) الذي يحتوي على قصائده الشعرية؛ الذي لم يحظَ هنا بالتحليل، وينبغي تركه بالأحرى للمتخصِّصين.

* * *

هكذا جرت في دمشق حياة الأمير الهادئة والدراســـية، إلى أن جاءت أحداث 1860 الخطيرة فعكّرت صفوَها، وجعلت صاحبها في وضع صعب. لكنه تصرّف بفضل صفائه الأخلاقي وشجاعته الجسدية، كبطل للتسامح حيّاه العالم بأسره.

ولفهم مُجريات الأحداث فهماً أفضل، لا مناص من العـــودة إلى الوراء. عندما احتل محمد علي ملك مصـــر دمشـــــق سنة

1- متصوّف أندلسي شهير (1165 - 1240) توفي بدمشق. له كتب كثيرة منها (الفتوحات المكية، مفاتيح الغيب، التعريفات، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ديوان شعر).نشر الأمير على نفقته كتابه (الفتوحات المكية). ترجمه إلى اللغة الفرنسية موريس غلوتون، منشورات ألبان ميشال، باريس.

http://www.al-maktabeh.com

1831 اختار وزيراً ومستشاراً مسيحياً من المذهب الأورثوذكسي (الروم) حنا بك. وكان همُّ هذا الأخير مع تأييد الملك، تلطيف ظروف النصارى الذين كانوا يعانون منذ أمدٍ طويل من انتهاكات ومضايقات لحرية عبادتهم. فتمكّنوا من بناء مطرانية وكنائس، ومن القيام علناً بممارسة طقوسهم وشعائرهم.

لكنهم لم يُحسنوا التمتّع باتزانٍ في الإمتيازات التي كانت قد مُنحت لهم، فأظهروا استكباراً تجاه المسلمين وأيقظوا الأضغان؛ حتى أدى ذلك إلى رد فعل جماعي سنة 1840، وهو بلا شك مدبَّر. إذ عندما غادر جنود الملك البلد، حدثت مذابح الروم الأورثوذكس. ثم اندلعت اضطرابات أخرى سنة 1845، ووقعت مجازر جديدة، فوجَّه النصارى اتهاماتهم إلى الولاة الأتراك.

وعندما اندلعت حرب الكريمي سنة 1854، وهاجمت القوات الفرنسية – البريطانية سواحل البوسفور للحفاظ على سيادة تركيا، راح مسيحيو دمشق، وهم لا يزالون تحت تأثير الإهانات والتعديات التي كانوا قد تعرّضوا لها، يهزأون علناً من تركيا.

ولما سارعوا إلى الثأر لما كان قد حلَّ بهم، تباهوا بالهزء من تركيا علناً، « المضطرة لطلب العون من أوروبا المسيحية »، وأعربوا عن تمنياتهم بتجزئة الإمبراطورية العثمانية وتفكيكها لمصلحة القوى المتحاربة، و«بوجوب عودة [سورية] إلى فرنسا بشكل طبيعي جداً»، بحيث قد أحس الموارنة بأنهم قد عُتقوا.

ألهب هذا الخطاب العام الذي ضخّمته الشائعات عواطف المسلمين، الذين ثأروا لأنفسهم حتى في حضور الجيوش

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأوروبية. ولما هُزمت سباستوبول، وعادت الجيوش بعد النصر إلى أوروبا، استطاع المسيحيون - وقد لاحظوا من جهة ثانية وحدة إمبراطورية عثمانية، محميّة من الآن فصاعداً - أن يقدّروا إلى أي حدّ كان السلوك الذي سلكوه في أثناء الحرب، مُثقلاً بالأخطار عليهم. غير أن فرنسا وإنكلترا كانتا، مقابل انحيازهما العسكري إلى جانب تركيا، قد تمنّتا على الباب العالي إدخال إصلاحات على ظروف معيشة وحرية العبادة لدى مسيحيي الشرق. عندها ظهر خط همايوني (مرسوم إمبراطوري) أعاد النظر في شرط رعايا تركيا من المسيحيين.

وبموجب هذا النص، صار في مستطاعٍ المسيحيين الدخول إلى الجيش، ودفع الضريبة مثل المسلمين بدلاً منٍ الجزية، وأن يتولّوا الوظائف. وباتت شهادتهم القانونية مقبولةً من الآن فصاعداً. أحدث هذا المرسوم انفعالاً عظيماً في كل الإمبراطورية. وأثار الغضب وحرّك الأهواء خصوصاً في سورية.

ولتهدئة هذا الهياج الجماعي المنطوي على اضطرابات، رأت الحكومة التركية أن من المناسب تسويغ قرارها، بجعل باشواتها يعرضونه بوصفه شرطاً كانت القوى الأوروبية قد انتزعته منها. فوضعت مشروعا يسمح بالإعتراضات على إصدار المرسوم، وتشجيع الإحتجاجات التي أدّى اتساعها وعفويتها إلى البرهان على استحالة التقيّد الكامل والجازم بالنصّ، دون تعريض أمن الإمبراطورية للخطر، وإعادة طرح القضية الشرقية.

إذا كانت الأوامر قد أُعطيت في اتجاه هياجٍ محدود، لإحداث تأثير للرفض فقط، فقد قام بتفسيرها بلا ريب موظفون متهوّرون

http://www.al-maktabeh.com

في حماسهم. فالحكومة لم تكن تطلب سوى شهادات على رفض المرسوم. لكن بعض الباشوات لاسيما باشا دمشق، رأوا ضرورة إعداد مذابح لكي يقدّموا للحكومة برهاناً مثيراً.

وهذا صحيح لدرجة أن اللجنة الدولية، المُشكّلة لأجل تحديد مسؤوليات المذابح، عندما اجتمعت لاحقاً في بيروت، توصلت إلى الإستنتاجات التالية، التي أرسلتها إلى فؤاد باشا، المُعيَّن في سورية بعد المجازر، وهو يتمتع بكامل صلاحيات السلطان العثماني:

« يرى الموقّعون [1]، بعدما أطلعوا على محاضر أقوال الموظفين العثمانيين والدروز المعتقلين في بيروت، أن من الواجب الإكتفاء بملاحظة، أن هذه المحاضر لا يُستخلص منها أي ظرف تخفيفي، من شأنه التأكيد بكل يقين على أن الموظفين والضباط العثمانيين غير مسؤولين مبدئياً عن الحوادث، التي أدمت الجبل وأدّت إلى ذبح ستة آلاف مسيحي [2].

وبما أن المفوّضين الأربعة لفرنسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا يرون أن هذه المسؤولية مستمرة، فإنهم يأسفون لقولهم ذلك، فهي تقع على عاتق رجال الأمن العثماني على الأقل، بقدر

1- السيد بكلار عن فرنسا؛ اللورد دوفرين عن إنكلترا؛ السيد درنفوس عن بروسيا؛ السيد نوفيكو عن روسيا.

2- في لبنان فقط، لأن في دمشق كان هناك ثمانية آلاف ضحية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ما تقع على كاهل الزعماء الدروز الأكثر إجراماً، وأن اختلاف العقوبات النازلة على هؤلاء وأولئك[1] لا يشكّل بنظرهم مبرِّراً كافياً في المحاضر التي فحصوها. وبالتالي، الموقعون أدناه، إلخ ».

كتب اللورد دوفرين، الممثل الإنكليزي في اللجنة المذكورة، إلى اللورد راسل، وزير الشؤون الخارجية: « هكذا كانت تعليمات الحكومة التركية إلى ولاتها، الذين ربما غالوا فيها وبالغوا. لقد كانت اللعبة مفتعلة وأثارت فضيحة ».

فالأحداث التي كانت ستقع يوم 09 جويلية في دمشق، جرى تحضيرها على مدى شهور، أو بالأحرى كانت عرضةً لتأجيلات، إثر تسريبات وصلت حتى آذان الأمير، فأعدّته بدوره للإضطلاع بالدور التاريخي الذي كان منوطاً به.

* * *

وبما أن قنصل فرنسا كان قد جمع القناصل في لقاء، فقد قرر الحاضرون أن يذهبوا لمقابلة أحمد باشا، وأن يسألوه عما إذا

1- هذا التباين في العقوبات، الذي تشكو اللجنة منه، قد يدلُّ وحده على جُرمية الحكومة التركية.

http://www.al-maktabeh.com

كانت الإشاعات المتداولة دقيقة وصحيحة، وعندها عليـــه أن يتّخذ الإجراءات لضمان أمن المســيحيين. فاســتقبلهم الباشـــا بحفاوة، ووصف الإشاعات المتداولة بأنها خيالية، وصرّح لهم أن في إمكانهم الإعتماد عليه.

كان موعد المذبحة قد تأجل. وفي شهر سبتمبر، طُلب سرّاً من المغاربة أن يشاركوا في المؤامرة، فجاءوا لإعلام الأمير بـــالأمر، فدعاهم عبد القادر إلى التجاوب مع تلك المناشدات حتى يكون على اطلاع دائم بما كان يجري.

ثم أطلع السيد لانوس على تقديره للوضع، فدعا لانوس مـــرة ثانية إلى عقد اجتماع للهيئة القنصلية التي بدت ممانعـــة لكـــل مسعى جديد لدى الباشا، الذي كانت تشكّك في كلامه. وبمـــا أن السيد لانوس ألحّ، فإن الأكثرية مالت إلى رأيه وحصل لقـــاء مع الباشا ترتبت عليه نتيجتـــان: ردّ ودّي مطمـــئن، وتأجيـــل جديـــد للمؤامرة.

أعطى عبد القادر الأمر للمغاربة Maghrebins (المقصود بهـــم الجزائريين) السبعمئة المرابطين في ضواحي دمشق، بأن يـــدخلوا بمجموعات صغيرة إلى المدينة، لينضـــمّوا إلى الثلاثمئـــة مغـــربي Maghrebin المستقرين فيها من قبل، وأن يكونـــوا جـــاهزين في كـــل لحظـــة.

ثم أمرهم بأن ينتشروا في المدينة، ويتوزّعوا بمجموعات صغرى في المقاهي والأسواق، لكي يدينوا باسم الدين كل محاولة إجراسية

مكتبة المهتدين الإسلامية

ضد أهل دين مختلف. حتى إن الأمير بادر شخصياً إلى الإتصال بالمفتي وبالأئمة، مناشداً إياهم أن ينطقوا في المساجد ببعض كلمات التسامح والتهدئة، لكنهم لم يصغوا إليه.

ومن جهته، قام السيد لانوس وحيداً بآخر محاولة مع الباشا، بقوة أرعبت هذا الأخير، إذ اكتشف فجأةً خطورة مشروعه، والمسؤولية التي ستحمِّله إياها القوى الأوروبية. فأرسل على الفور سُعاةً لتأجيل المؤامرة مجدداً؛ لكن السعي جاء متأخراً جداً. إذ كانت إشارة المذبحة قد أُعطيت.

وفي صبيحة الثامن من جويليه 1860، رُسمت فوق أرصفة شوارع المدينة أشكال تمثّل الصلبان وتيجان الأساقفة، وسرت العملية بسرعة، من قبل الأولاد الذين راحوا يوجّهون الشتائم (بأي تحريض؟) إلى تلك الشارات المسيحية؛ وعندما كان يمرّ شخص مسيحي كانت الشتائم تُضاعف، كان يجد نفسه مرغماً على دوس الصليب تحت طائلة الضرب.

تذمّر المسيحيون واشتكوا. وفي اليوم التالي، أصدر الباشا بياناً أعلن فيه أن المسلمين الذين قاموا بأعمال مُدانة ضدّ المسيحيين سوف يعاقبون بهراوات من جهة، وأن الخطّ الهمايوني (مرسوم) كان يحمي الدين، من جهة ثانية. وبما أن الدين قد أُهين علناً، فإن «الشوارع الملطخة بالقاذورات التي قُذفت على الصلبان، سيقوم المسلمون بغسلها». وكان هناك بعض القرع بالهراوات. فشاع الإضطراب الشديد في المدينة برمتها؛ وأُثير الأهالي فنزلوا

http://www.al-maktabeh.com

إلى الشوارع، يحرِّكهم محرِّضون كانوا يصرخون: «مسلمون يُضربون لأنهم شتموا بعض المسيحيين. هذا لا يُحتمل. إلى السلاح. الموت للمسيحيين».

نحو الظهر، تردَّدت صرخات من جهة حي باب توما [1]، تلتها طلقات نارية. كان المساكين يهربون في الشوارع، تُطاردهم أرهاط منفلتة من عقالها. وتوجّه الفارون نحو قنصليات روسيا، الولايات المتحدة، فرنسا، التي نُهبت أولاً، بينما نجت قنصلية بريطانيا العظمى، مما أثار كثيراً من الأسئلة لدى الرأي العام في أوروبا.

توجّه عبد القادر خلال إشارة الإنذار الأولى، بصحبة رفيقيه المخلصين قاره محمد ومحمد بلخير، إلى قنصلية فرنسا وتبعه نفرٌ من المغاربة. قام بادىء الأمر بالتفاتة، للقيام بمحاولة لدى المفتي، لكنهم قالوا له إن «المفتي نائم»

علم أن قوات الباشا كانت مرابطة في القلعة، وأن مذبحة المسيحيين قد بدأت، وأن بيوتهم أُحرِقت. فوصل عبد القادر إلى القنصلية محاطاً بأربعين مغربياً، تولّوا على الفور أمن المبنى، ثم قال لمدبِّر القنصلية:

1- حي النصارى.

مكتبة المهتدين الإسلامية

«اسمع كلماتي وزنْها؛ ما دمتُ حياً، ما دام رجل واحد من مغاربتي (المقصود بهم الجزائريين المرافقين له) حياً، لن يُمسَّ أحد. لقد تفاقم الخطر، وعليّ أن أطوِّر وسائل الدفاع. فإذا صمّمت على البقاء هنا فسوف ترغمني على تقسيم القوات التي بحوزتي. وبالعكس، إذا قبلت أن تصبح ضيفي، فسوف أتمكّن من القيام بمساعدة المسيحيين».

وفي أثناء ذلك، كان المغاربة الباقون قد هرعوا بأمر من عبد القادر، وتجمّعوا في مترله. عندما رجع وجد في حمايتهم عدداً معيناً من المارة، من ممثلي القنصليات، وخاصة قناصل أميركا، روسيا واليونان.

أعطى الأمير تعليمات لرجاله الباقين في مترله، وخرج على رأس ثلاثمئة رجل، يتبعه ولداه، وانقضَّ على الأحياء المضطربة. فدخل وسط الجمهور متقدّماً على فرقته، مناشداً المسلمين أن يرجعوا إلى العقل، داعياً المسيحيين إلى الإحتماء بصفوفه: « أيها النصارى تعالوا إليّ. أنا عبد القادر المغربي (المقصود به الجزائري)، ثقوا بي، تعالوا ».

كان النصارى الذين ينظرون من وراء نوافذ البيت، قد سمعوا هذا النداء، فهرعوا إلى عبد القادر واحتموا به. ومن قنصلية اليونان وحدها حيث كان قد تكدَّس أكثر من ثلاثمئة شخص، جرى استخراج الجميع وحمايتهم. فمن الساعة الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر، لم يتوقف عن عبور شوارع دمشق؛ فكان كلما جمع عدداً معيناً من الهاربين، أحاطهم برجاله وقادهم إلى مترله، ثم عاد على الفور بحثاً عن ضحايا آخرين لهذا التمرّد.

http://www.al-maktabeh.com

وعند اقتراب الليل، تذكّر مؤسسة أخوات المحبة التي كانت تضم أربعمئة طفل من الجنسين. فاجتاز الشوارع مجدداً، وهو يُصادف الجثث في طريقه، ووصل إلى الدير البعيد قليلاً من الحي، الأمر الذي سمح له بإنقاذ الرهبان الستة وأخوات المحبة الإحدى عشرة، والأربعمئة طفل.

كان مشهداً مثيراً أن يُرى سليل النبي محاطاً براهبات ورهبان وأطفال، يسير في الشوارع ذات الأرصفة المغطّاة بالدم، ويتبعه جنود الجهاد القدامى، ممسكاً بيدٍ أطفالاً مرعوبين، ودافعاً بالأخرى، بضربة عصا، مطاردين مسعورين.

عندما وصل الخبر إلى الجمهور المهتاج، لجأ عدد كبير من المسيحيين إلى منزل عبد القادر، واستولى اهتياج شديد على الأكثرية. وفي صبيحة العاشر من جويلية، جاء جمهور غفير وأحاط بمنزل الأمير. وطالبوا بإلحاح بتسليمهم المسيحيين، وقبلوا فقط ببقاء القناصل في المنزل. أمام هذه الفوضى كان يمكن لطلقة واحدة أن توقع مجزرة، فرأى عبد القادر أن عليه التدخل شخصياً.

تقدّم نحو الجمهور الذي انفجر ثانية، مطالباً بتسليم اللاجئين. ولما عاد الهدوء بإشارة من يد الأمير الذي دعاهم إلى السكون، قال لهم: «يا إخواني، إن تصرفكم مُعيب. فهل نحن في يوم حرب حتى يحقّ لكم قتل الناس؟ إلى أي دركٍ انحدرتم، وأنا أرى مسلمين ملطّخين بدم نساء وأطفال! ألم يقل اللّه: « أنه مَن قتل نفساً بغير نَفْسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً »؟ ألم يقل أيضاً: «لا إكراه في الدين؛ قد تبيّن الرّشد من الغيّ».

مكتبة المهتدين الإسلامية

لكن الهياج تجدَّد بقوة وبلا شك، بتحريض من محرِّضين مبثوثين في الجمهور، ردَّ قادة الحركة التمردية بسخرية وبذاءة: « يا جندي الجهاد! نحن لا نحتاج إلى نصائحك؛ ولا نطلب منك وعظاً. ما دخلك في شؤوننا؟ أنت الذي كنت تحارب المسيحيين بالأمس، كيف تُعارض أن ننتقم من إهاناتهم؟ يا ناقضا للوفاء، سلّمنا هؤلاء الذين خبأتهم في بيتك؛ إن لم تفعل فإننا سوف نشملك بالتحريم الذي شملنا به الكافرين، وسنجمعك مع إخوانك».

عندها خشي عبد القادر أن يرى رجاله الغاضبين من هذه الشتائم، يُقدمون على أعمال انتقامية، فأعطى تعليمات لرجاله باتجاه التهدئة، ثم أضاف: « أيها الجهلة! إذا كانت فكرة عمل إجرامي ومخالف لشريعة اللّه لا تُخيفكم، فعلى الأقل فكِّروا بالعقاب الذي سينزله بكم الناس؛ أُقسم لكم أنه سيكون عقاباً رهيباً. توقّفوا، ما زال الوقت مناسباً. وإذا لم تصغوا إليّ، فهذا دليل على أن اللّه قد ذهب بعقلكم: فما أنتم سوى بهائم تُثيرها رؤية العشب والماء، لا غير. أما أنا فلم أقاتل نصارى، بل غزاة كانوا يدّعون أنهم نصارى».

تأثّر الجمهور حيناً بهذه الكلمات، وفي حين آخر ضاعف صراخه: «النصارى، النصارى، أعطونا النصارى». عندئذٍ أخذت عينا الأمير تقدح شرراً، فأغلظ لهم القول وردّ بصوت جهوري: «النصارى». ردّ عبد القادر: «ما دام واحد من هؤلاء الجنود الشجعان المحيطين بي واقفاً، فلن تنالوا منهم، لأنهم ضيوفي.

http://www.al-maktabeh.com

يا ذابحي النساء والأطفال، يا أولاد الإثم، حاولوا إذاً أخذ هؤلاء المسيحيين من عندي، وهم في عُهدتي، وعندها سأجعلكم ترون يوماً رهيباً، لأنكم ستتعلمون كيف يُجيد الجنود المغاربة (الجزائريون) إنطاق البارود. وأنتم، يا مغاربتي (الجزائريين)، فلتفرح قلوبكم، لأنني، أستشهد اللّه على ما أقول، سأحارب وإياكم في سبيل قضية مقدسة كالقضية التي حاربنا معاً لأجلها في الماضي!».

ثم استدار نحو قاره محمد: «قاره! جوادي، سلاحي!». كان لهذا الخطاب أثر شديد في الحاضرين لدرجة أن الجمهور تفرّق فوراً، يطلب النجاة وهو مذعور من التهديد الشديد لرجال الأمير.

منذ تلك اللحظة أرسل عبد القادر مئتي مغاربيا Maghrebin (جزائريا)، مزوّدين بالبنادق، إلى مختلف أحياء المدينة لاستقبال المسيحيين. أخذ عددهم يتزايد بلا توقّف، والأماكن التي كانت بحوزة عبد القادر، الذي كان قد استولى على بيوت أسرته أو أقربائه، القريبة من بيته، صارت ضيّقة ولا تتسع لكل هؤلاء الناس. كان قد تكدّس هناك حوالى أربعة آلاف مسيحي، حتى دون التمكّن من الجلوس، وبدأ النقص الصحي يظهرُ للعيان.

قرّر القناصل المجتمعون في بيت عبد القادر إرسال وفد، بحراسة مغربية شديدة، إلى والي دمشق، حتى يجد حلاً، فاضطرب الباشا من اللغة التي خاطبه بها القناصل، وارتعب من تحمّل مسؤولية كبيرة كهذه. فحاول بادىء الأمر أن يبرّئ نفسه، متذرّعاً بأن

مكتبة المهتدين الإسلامية

قواته قد بقيت محجوزة، لأنها كانت مؤلفة من أفـراد طوّعـوا بالقوة، وبالتالي أكثر استعداداً لإضرام نار الفوضى من توقيفها.

وبما أنهم لفتوا نظره إلى أنه لم يكن واثقاً من قواته حتى يوكلها بأمر اللاجئين، فإن من المناسب أن تقوم كتيبة من المغاربة بالسير وراءهم لحمايتهم. ولكن اللاجئين أنفسهم لم يرغبوا في مغـادرة بيت عبد القادر، خوفاً على حياتهم في قلعة الباشا؛ فكان لابـدّ من استعمال القوة بموافقة قنصلين، أحـدهما قنصـل روسـيا، ومرافقتهم في ملاذهم الجديد.

الآن وقد فرغ بيت عبد القادر من محتلّيه المسـاكين، تفـرّغ الأمير لمتابعة العمل الإنساني الذي كان قد بدأه وأحسن قيادته. فقد أعلن عن طريق مغاربته في كل المدينة أن عبد القادر سيدفع خمسين قرشاً لكل من يأتيه بمسيحي حيّ. جلس أمام بابه، محاطاً بولديه اللذين كانا ينفّذان أوامـره، وراح شخصـياً يسـتقبل المساكين، وإلى جانبه صندوق مال. وعندما فرغ الصندوق، كان يستبدله بصندوق آخر. وعندما كان يجتمع عدد كـافٍ مـن المسيحيين تحت سقفه، كان يطلب من مغاربته أن يقودوهم إلى القلعة.

تلك هي الرسالة التي كان عبد القادر قد حمّلها لنفسه، فقـاد شخصياً عملية إنقاذ مسيحيين كاد الحقدُ أن يؤدي بهم إلى الموت الأكيد. ومضت خمسة أيام لم يعرف خلالها نومـاً ولا راحـة، مستنفراً طاقته وطاقة رجاله.

http://www.al-maktabeh.com

استبدلت الحكومة التركية أحمد باشا بفؤاد باشا، الذي سارع إلى إظهار مدى تقديره لتدخل عبد القادر الشديد لأجل المسيحيين المهدَّدين. ثم أمر الأمير بتسليم الأسلحة التي يحملها الجزائريون. فتلقّى عبد القادر الأمر كأنه شتيمة وإهانة، وردَّ عليه: « لن أنحني أبداً أمام هذا الأمر، اللهمّ إلاّ إذا أعلن فؤاد باشا بصراحة أننا استعملنا، رجالي وأنا سلاحنا استعمالاً سيئاً. سأترك في هذه الحالة له أمر تبرير تصرفه، على أحسن ما يستطيع، أمام القوى الأوروبية التي أيّدت طريقتي في التصرف».

إن العمل الباهر الذي قام به الأمير وسط جمهور منفلت، وتحت نظرات عين قاسية لباشا منافق، أثارت إعجاب العالم. فشهدت له القوى الكبرى بالإمتنان والتقدير، وبعثت له برسائل شكر، مصحوبة بهدايا وبأرفع الأوسمة.

فقد منحته روسيا: وسام الصليب الأكبر للنسر الأبيض، وفرنسا: وسام فرقة الشرف من الدرجة الأولى، وبروسيا: الصليب الأكبر للنسر الأسود* واليونان: صليب المنقذ الأكبر، وتركيا: المجيدية من الدرجة الأولى، والبابا: وسام بيوس التاسع، وأرسلت له إنكلترا بندقية بسبطانتين، مرصّعة بالذهب، وأهدته

* ورد في كتاب (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر) محمد بن عبد القادر الجزائري، أن وسام الصليب الأكبر للنسر كان من اللون الأحمر ج 2، ط 2، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق 1964، ص 642.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أميركا أيضاً مسدسين مرصّعين بالذهب. وإيطاليا: الشريطة الكبرى، نيشان "موريس والعازر" وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية، واليونان: النيشان الكبير، رتبة أولى، المدعو نيشان المنقذ.

وأرسلت إليه عدة شخصيات مسلمة رسائل دعم وتقدير، كانت أرقّها رسالة الإمام شميل [1]:

« إلى مَن ذاع صيته بين الجميع، كباراً وصغاراً، الذي يمتاز من بقية الرجال بمزاياه العديدة والثمينة؛ الذي وأدَ نارَ الفتنة قبل أن تندلع؛ والذي اجتثّ شجرة العداوة التي يكون وجه الشيطان ثمرتها، كما هو الحال دوماً. الحمد لله الذي ألبس عبده لباس القوة والإيمان! نريد أن نتحدّث عن الصديق الصادق والحقيقي، عبد القادر العادل. السلام عليك. ولتحمل نخلةُ الإستحقاق والشرف الثمار في شخصك دوماً.

1- الإمام شميل الداغستاني، معاصر لعبد القادر، قاد على رأس مريديه كفاحاً طويلاً ضدّ روسيا (1834 - 1859).كان سنة 1860 بعدما وضع السلاح في حماية ألكسندر الثاني، بالقرب من موسكو. مثلما كان عبد القادر في فرنسا بعد إطلاق سراحه بأمر من نابوليون الثالث. ومما يلاحظ أن مسار الرجلين متماثل. التقيا في السويس (مصر) سنة 1871، عندما سُمح لشميل بزيارة الأماكن الإسلامية المقدسة، بناء على تدخل الأمير لدى نابوليون الثالث، الذي توسّط له لدى قيصر روسيا (سنعود في الملحق إلى تماثل الرجلين وكفاحهما).

http://www.al-maktabeh.com

وأعلم أن أذني عندما سمعت ما لا يليق سماعه، وما يُعيب الطبيعة الإنسانية، أعني الحوادث التي وقعت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والنصارى، حيث تصرَّف المسلمون تصرّفاً غير لائق بأتباع الإسلام، والذي لا يمكنه أن يُفضي لغير التطرّف والغلوّ من كل نوع. عندها لفَّ نفسي بُرقعٌ وتلفع وجهي، الهادىء والصافي عادة بظلال الكآبة. وصرخت في نفسي: « لقد عمَّ الشرُ الأرضَ والبحرَ، بسبب خبث الإنسان وانحرافه ».

ولقد ذُهلت من عمى الموظفين الذين انغمسوا في تعدّيات مماثلة، متناسين كلام النبي (عليه الصلاة والسلام): « من يظلم ذمياً (نصرانياً) ومن يعتدِ عليه، ومَن يأخذ منه أي شيء دون رضاه، سأكون خصمه يوم الحساب ». يا لها من كلمات سامية!

لكني حين علمت بأنكم آويتم الذمّيين تحت جناحي طيبتكم وإحسانكم، وأنكم عارضتم الناس الذين تصرَّفوا خلافاً لمشيئة اللّه العليّ، ونلتم قصبَ الظّفر في مضمار المجد (النصر الذي أحرزتموه بجدارة كبيرة)، حمدتُ لكم صنيعكم، كما سيحمده لكم اللّه العليّ يومَ لا ينفع مال ولا بنون.

ففي الحقيقة، لقد طبقتم كلام الرسول الأعظم الذي أرسله اللّه العليّ، حين مددتم جناح الرحمة إلى عباده المستضعفين، وأقمتم حاجزاً في وجه أولئك الذين كانوا قد طرحوا مثاله الأعلى. فليحمنا اللّه من هؤلاء الذين يعتدون على حدوده!

مكتبة المهتدين الإسلامية

لقد تشوَّقتُ لإبداء التقدير الذي أكنّه لكم ولعملكم، فسارعت إلى توجيه هذه الرسالة إليكم، كما تفيضُ قطرة من نبع عواطفي ومشاعري.

الفقير الذي وقع، بأمر اللّه، بين أيدي الكافرين.شميل، المنفي ».

ردَّ عبد القادر على هذه الرسالة المفعمة بالمودّة والتقدير، الصادرة عن رجل الشريعة القرآنية: « الحمد للّه ربّ العالمين وصلى اللّه على سيدنا محمد وكل أخوانه من الأنبياء والمُرسلين.

يصدر هذا المكتوب من يد المحتاج إلى وافر نعمه، عبد القادر بن محيي الدين الحَسَنيّ، والموجه إلى أخيه وصديقه في اللّه، شميل المجيد! أحسن اللّه إليكم وإلينا، في وطننا وفي الغربة، وسلام اللّه ورحمته عليكم إلى يوم الدين.

تلقّينا رسالتكم المشرفة وكلماتكم الودية، فأثلجتْ صدرنا. فما سمعتموه عن أمرنا، وما نال كامل رضاكم، بشأن دفاعنا عن الذمّيين، وما قدَّمنا لهم من حماية، لأشخاصهم وممتلكاتهم معاً، بحسب حماسنا وإمكاناتنا. إن ذلك كله كما تعلمون، نابع من طاعتنا لمبادىء شريعتنا المقدّسة وتعاليم الإنسانية. ففي الحقيقة، شريعتنا هي تأكيد على كل المكارم، وتشمل الفضائل كلها، مثلما يشتمل الطوق على العنق.

فجميع الديانات تدين الرذيلة: وإن الانجرار وراءها يعني تناول السُّمّ وإبقاءه في المعدة. ومع ذلك، كما قال الشاعر: « عند الشدائد يضع الرجل عُصبة على عينيه، بحيث يكون ما يظنّه جميلاً، معاكساً تماماً لما يظن». وهذا ما ينطبق عليه القول الحق:

http://www.al-maktabeh.com

« إنا لله وإنا إليه راجعون »، خصوصاً عندما نفكر بمدى ندرة الرجال المتدينين حقاً، ومدى ندرة الأبطال المدافعين عن الحق. فعندما نرى رجالاً جَهلة يتخيّلون أن أساس الإسلام القسوة والشدة والتطرف والهمجية، يغدو من المفيد ترديد هذه الكلمات: « الصبر جميل؛ وثقتنا بالله ».

لقد علمنا منذ أمدٍ قصير أنكم صرتم بالقرب من قيصر روسيا، وأن هذا الأمير يعاملكم بطريقة تجدر بكم وتليق، وأنه أنعمَ عليكم بالتكريمات وغمركم بالتشريفات. وفوق ذلك، قيل لنا إنكم طلبتم السماح بزيارة الأماكن المقدّسة (مكة والمدينة)؛ وإنّا نتضرّع إلى الله أن يستطيع تلبية طلبكم ويحقّق أمنياتكم.

في الحقيقة، إن إمبراطور روسيا هو أحد السلاطين الأكثر تميّزاً. فهو من أولئك الذين يحبّون أن يروا تاريخ أعمالهم العظيمة بين دفّتي الكتب. ونأمل بالتالي بأن يلبّي حُلمُه رغباتكم بلا متاعب. هكذا تصرّف السلطان نابوليون الثالث تجاهنا. فاتّخذ قرارات بحقنا قد لا تخطر أبداً في خاطر الإنسان. وبعد، فإن علينا أن نضع أملنا في الله وحده. وله وحده حق ثوابنا.

عبد القادر بن محيي الدين الحسني »

هكذا، تلقّى عبد القادر بتواضعه الفطري، المُعزَّز بالصفاء العقلي والتقوى الدينية، هذه الباقة الرائعة من آيات الشكر، كتحية موجّهة إلى ابن الجزائر المسلمة، وأكثر من ذلك، كتحية للإسلام نفسه، المدرك على وجهه الصَّحيح، الوحيد الذي كان وظلّ دائماً على مدى العصور، إسلام التَّسامح والإخاء والمحبة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المقابلة بين عبد القادر وبيجو

ذهب الجنرال بيجو Bugeaud يوم 31 ماي 1837 عند الساعة التاسعة صباحاً، تتبعه ست كتائب من مشاته وفرسانه، إلى المكان المتّفق عليه؛ و لم يكن عبد القادر قد وصل بعد. مرّت خمس ساعات انتظار و لم يظهر أحد. أخيراً في الساعة الثانية تقريبا، بدأ يتوافد عدد من العرب، كان بعضهم ينقل كلاماً مموَّهاً، وبعضهم الآخر يحمل أعذاراً شتى.

كان الأمير مريضاً و لم يخرج من معسكره إلا في وقت متأخر جداً ؛ ربما يطلب تأجيل المقابلة إلى الغد؛ لم يكن بعيداً، ثم كان قريباً جداً. وأخيراً طلب آخر رسول من الجنرال بيجو أن يتقدم قليلاً، قائلا له إنه لن يتأخر عن مقابلة عبد القادر. كانت الساعة الخامسة، كان الجنرال يرغب في إعادة قواته إلى المعسكر، وفي إنهاء الأمر في اليوم ذاته، ثم قرَّر التقدم إلى الأمام مصحوباً بهيئة أركانه.

بعد أن سار مسافة ساعة دون لقاء الأمير، لمح الجنرال بيجو أخيراً الجيش العربي، مصطفّاً في طابور منتظم جداً فوق تلال مبعثرة. عندها جاءه البوحميدي ليقول له إن عبد القادر على مقربةٍ من هنا، وأشار له بعد ربع ساعة بسكين كانت في يده، بأن موكب عبد القادر الذي كان يتقدّم من جهة الجحفل الصغير الذي كان الجنرال على رأسه.

http://www.al-maktabeh.com

كان المشهد مُهيباً: إذ كان يمكن أن يُحصي هناك ما بين مائة وخمسين ومائتي قائد، بمظهر متميّز، تزيده بهاء ملابسهم الجليلة. كانوا كلهم راكبين على جياد رائعة، كانوا يجعلونها تضبح، ويتركونها ترمح بكثير من الرشاقة واللياقة.

كان عبد القادر نفسه متقدّماً عليهم ببضع خطوات، ممتطياً صهوة جواد أسود جميل، كان يقوده بمهارة عجيبة. تارةً يجعله يرفع قوائمه الأربع معاً، وتارة يمشّيه على قائمتيه الخلفيتين. كان عدد من العرب يُمسكون بأطراف برنسه وذيوله.

أطلق الجنرال بيجو فورا العنان لفرسه، وحين وصل إلى الأمير ومدَّ له يده، شدّ عليها الأمير مرتين. ثم نزلا عن جواديهما وجلسا على العشب، وعندئذ بدأت المحادثة التالية:

– قال الجنرال بيجو: أتدري أن هناك قلة من الجنرالات تجرأوا على إبرام المعاهدة التي عقدتها معك. لم أخشَ أن أكبِّرك وأضيف إلى قوّتك، لأني واثق أنك لن تستعمل الوجود الكبير الذي نعطيك إياه، إلا لتحسين حال الأمة العربية وإبقائها في حالة سلم وحسن تفاهم مع فرنسا.

– أشكر لك عواطفك الطيبة تجاهي. إن شاء اللّه، سأجعل العرب سعداء، وإذا انقطع حبل السلام يوماً، فلن يكون ذلك خطأي.

– بيجو: إنني بهذا الشرط، جعلت نفسي كفيلا لك عند ملك فرنسا.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- الأمير: ليس لك خاطر في ذلك، فإن لنا دينا وأخلاقا عربية تلزمنا المحافظة على قولنا، وأنا لا أغير قولي.
- بيجو: فلهذا اعتمدت على ذلك، وبحسبه أقدّم لك محبة خصوصية.
- الأمير: قد قبلت محبتك، صداقتك، فليحترس الفرنسيون من كلام المفسدين.
- بيجو: إن الفرنسيين لا ينقادون لكلام أحد، وليس لبعض الحوادث الخصوصية التي يفعلها البعض، تنزع السلام من بيننا. إنما ينزعه عدم إجراء شروط المعاهدة أو وقوع خصومة كبيرة. وإنما الذنوب التي يرتكبها البعض، فإننا نعلم بعضنا بها، ونقاصص عليها من يتجاسر على فعلها.
- الأمير: هذا حسن جدا، فليس عليك إلا أن تعلمني، وأنا أجري ما يقتضي.
- بيجو: إني أوصيك بالكولوغولي الذين يبقون في تلمسان.
- الأمير: كن مطمئنا من جهتهم، فإنهم يعاملون معاملة الحضر. وعدتني بجعل عرب الدوائر والزمالة في بلاد هبره، فأظن أنها لا تكفيهم.
- الأمير: يوضعون في مركز لا يمكنهم من إقاع ضرر، لحفظ السلام.
- بيجو: هل أمرت برجوع علاقات التجارة في الجزائر والمدية؟
- الأمير : لا أفعل ذلك إلا بعد أن ترد لي تلمسان .

http://www.al-maktabeh.com

- بيجو: تعلم جيدا، بأني لا أقدر على ردها لـــك، إلا بعـــد تصديق الملك على المعاهدة.

- الأمير: فإذاً، ليس لك قوة على إجراء المعاهدة؟

- بيجو: نعم لي قوة على ذلك، ولكن يقتضـــي أن يصـــادق الملك على ما أجريه، حيث يكون ذلك كفالة له، فإذا صـــدق عليها مني فقط. ثم أتى جنرال آخر فإنه يقدر على إبطالها، وأما إذا صدق عليها من الملك، يصير ملتزما بالإجراء على موجبها.

- الأمير: إن لم تُرجع لي تلمسان كما وعـــدتني، فـــلا أرى احتياجا لإجراء الصلح، بل لا يكون ما جرى إلا مـــن قبيـــــل هدنة مؤقتة.

- بيجو: هذا صحيح؛ ولكن أنت تكسب بهذه الهدنة، حيث أني بمدتها لا أخرب المواسم.

- الأمير: ذلك لا يضرنا، حتى أعطيك الرخصة بأن تخـــرب كل ما تقدر عليه، ولا يمكنك أن تخرب إلا مقدارا زهيداً . ومع ذلك يبقى عند العرب حبوب وافرة.

- بيجو: أظن أن العرب لا يفكرون مثلك، لأنني أرى أنهـــم يرومون إلى الصلح، والبعض منهم أثنى علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت بذلك.

فابتسم الأمير، ثم سأل الجنرال: عن المدة التي يمكن رجـــوع الجواب فيها من فرنسا؟

- بيجو: يلزم ثلاثة أسابيع.

مكتبة المهتدين الإسلامية

- الأمير: هذا طويل جداً. حيث أن الأمر كما ذكرت، فلا نجدد العلاقات التجارية، ولا نحدث شيئا من مقتضيات المواصلة إلا بعد وصول الجواب من فرنسا.

كان الوقت متأخرا؛ فقد توادعَ الرجلان عبد القادر وبيجو ورحلا؛ الأول حيَّته هتافات فرقته الكبيرة، التي تردّدت أصداؤها بجلال على مدى التلال، وردّدها الجيش بأسره.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأمير عبد القادر شاعـرا

قال الأمير في قصيدته الشهيرة (البَـــدْوُ وَالحَــضَرُ) :

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر
وعـــاذلا لمحب البدو والقفـــر
لا تذممن بيوتا خف مـــحملها
وتمدحن بيوت الطين والحجـــر
لوكنت تعلم ما في البدو تعذرني
لكن جهلت،وكم في الجهل من ضرر
أوكنت أصبحت في الصحراء مرتقيا
بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جلت في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شـــيق عطـــر
تستنشقن نسيما، طال منتشقا
يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أوكنت في صبح ليل هاج هاتنـــه
علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطـــها
سربا من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة، لم تبق من حـــزن
في قلب مضنى ولاكدا لذي ضجر

http://www.al-maktabeh.com

نباكر الصيد أحيانا فـــنبغـــته
فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليما في نعامـــته
وإن يكن طائرا في الجو كالصـــقر
يوم الرحيل،إذا شدت هوادجنا
شقـــائق عمها مزن من المـــطـــر
فيها العذارى وفيها قد جعلنا كوى
مرفـــعات بأحـــداق من الحـــور
تمشي الحداة لها، من خلفها زجل
أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها
شليلها زيـــنة الأكفال والخـــصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها
على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي – ليلا– بعدما نزلـــوا
منازلا، ما بـــها لطخ من الوضر
ترابها المسك، بل أنقى و جاد بـــها
صوب الغائم بالآصال والبكـــر
نلقي الخيام وقد صفت بها فغدت
مثل السماء زهت بالأنجم والزهر
قال الألى قد مضوا قولا يصدقه
نقل وعقل، ما للحق من غيـــر

مكتبة المهتدين الإسلامية

الحســـــن يظهر في بيتين، رونقـــه
بيت من الشعر وبيت من الشعر

أنعامنا إن أتت - عند العشبي تخل
أصواتها، كدوى الرعد بالسحر

سفــائن البر، بل أنجى، لراكبها
سفائن البحركم فيها من الخطر

لنا الــمهاري و ما للريم سرعتهــا
بها، وبالخــيل نلنا كل مفتخــر

فخيلنا — دائما — للحرب مسرجة
من استغاث بنا بــشره بالظفــر

نحن الملوك، فلا تعــدل بنا أحــدا
وأي عيش لمن قد بات في خفر؟

لا نحــمل الضيم ممن جاء، نتركه
وأرضه، وجميع العز في السفــر

وإن أســـاء علينا الجار عشرتــه
نبين عنه بلا ضــر ولا ضــرر

نبيت، دار الــقرى، تبدو لطارقنا
فيها المداواة من جوع ومن خصر

عــدونا ما له مــلجــأ ولا وزر
وعندنا عاديات السبق والظــفر

شــرابها من حليب، ما يخالطــه
ماء، وليس حليب النوق كالبقر

http://www.al-maktabeh.com

أموال أعـــدائـــنا، في كل آونـــة
نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم بــه
إلا المروءة، والإحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافيــة
والعيب والداء، مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى
فنحن أطول خلق الله في العمــر

* * *

ترجم قصيدة (البدو والحضر) إلى اللغة الفرنسية الجنرال أوجين دوما Daumas Eugène.ولهذه القصيدة قصة طريفة، إذ بينما كان الأمير مقيما في منفاه بقصر آمبواز Amboise، تردد في صالونات باريس سؤال،كان يردِّده الكتاب والشعراء والضباط السامون وغيرهم من أعيان المدينة: « أين تطيب الحياة ؟ في الريف أم في المدينة ؟ »

فكتب الجنرال دوما إلى الأمير عبد القادر ليطرح عليه نفس السؤال، وهو يعلم مسبقا بخــيار الأمير، لما كان يعرف عـــنه من حب للبـــداوة التي عـــاش فيها، وترعرع في أحضـــانها، عاشقا لركوب الخيــل طفلا،ومحبا للتــأمل تحت الخـــيام في عنفوان الشباب.

كان الجنرال دوما قنصلا لفرنسا لدى الأمير عبد القادر بمدينة معسكر،ثم مديرا للشؤون العربية تحت سلطة الماريشال بيجــو Bugeaud الحاكم العام للجزائر. وعندما نفي الأمير إلى فرنســا

مكتبة المهتدين الإسلامية

(1848 – 1852) عين دوما رفيقا محاورا له، مستعينا في ذلـك بالعقيد بواسوني Boissonnet .

كانت العلاقات بين الرجلين موسومةً بالثقة والإحترام، وبـلا شكّ كانت معرفة العقيد دوما للغة العربية، قد سهّلت التواصل المباشر بينهما (1).

لعل هذه القصيدة من أروع أشعار الأمير. فهي بمثابة لوحة زيتية، بل هي بمثابة جدارية fresque في منتهى الجمال: تلال شقراء من الرمال يداعبها نسيم الصباح، تتلألأ فيها درر رملية. حدائق مفروشة بالزهور تتطاير في هوائها العطور، قطع من الأغنام والماعز ترعى أطيب النبات، مطاردة للصيد من غزال وظبي على ظهر أجياد سريعة، هوادج مزينة بالألوان تتمايل على ظهرها عذارى ذات العيون السود، ينظرن من حولهن إلى الطبيعة من خلال ثقوب مخفية، دون أن يراهن أحد.

خيام بدوية نصبت في قلب السهوب بدخانها وروائحها، صهيل الخيل بسروج مطرزة بخيوط الذهب والفضة، قوافل من الإبل شبهها الشاعر الأمير بسفن أرضية. وتأتي خاتمة النص، تتويجا لعرس شعري في قوله:

1- راجع كتابي: الأمير عبد القادر مغلوبا لكن مظفرا. من لـويس فيليـب إلى نابليون الثالث. منشورات وزارة الثقافة. الجزائر 2007.

http://www.al-maktabeh.com

مَنْ لَمْ يَمُتْ عِنْدَنَا بِالطَّعْنِ عَاشَ مَدًى
فَنَحْنُ أَطْوَلُ خَلْقِ اللَّهِ فِي العُمُرِ

مبرزًا بذلك محاسن البداوة في صحة الجسم، ومُشيدًا في نفس الوقت بالشجاعة والشهامة العربية .

تناول الأمير عبد القادر في شعره مواضيع مختلفة: الخيل، السَّيف، البارود، الصلاة، مكة المكرمة، النبي(صلّى الله عليه وسلّم) الصوفية والحب. لنقف لحظة عند بعض المقاطع من هذه المواضيع.

كان يكّن لوالدته عاطفة كلها تقدير وحنان. مثلما كان يحّب زوجته التي نظرت إليه بعد مبايعته مباشرة وكأنها تسائله، فقال لها: « إن أردت أن تبقي معي، من غير التفات إلى طلب حق، فذلك لك. وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك، فأمرك بيدك، لأني قد تحملت ما يشغلني عنك. »

ما أسمى العبارة وما أثقل الدلالة. ذاك هو الأمير الزَّوج، العطوف الصادق العادل، الذي يمارس الشُّورى والإنصاف والحوار بقناعة وصدق، في حياته الخاصة مع أهله، كما في حياته العامة مع قومه.

وإذ أسجِّل هنا، عبارة لكاتب فرنسي غاب عنِّي إسمه: «إذا فقد الآخر صفته كمصدر إلهام، فإن الحب قد مات ». فإن

مكتبة المهتدين الإسلامية

الملاحظ أن مشاغل الدنيا وهموم الدَّولة وأهوال الحرب كلها، لم تطفئ لدى الأمير حيوية شعلة الإلهام، ولا حيوية الحب الذي ظل يكنه لزوجته الكريمة، فكان يكتب لها - كما جرت العادة - رسائل شعرية، منها هذا المقطع :

وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي
بأن مناياهـــم بسيفي وعسالي
سلي الليل عني كم شققت أديمـــه
على ضامر الجنبين معتدل عال
فما همتـــي الا مقارعة العـــــدا
وهزمي أبطالا شدادا بأبطالي
فلا تهزئي بي ، واعلمي أنني الذي
أهاب، ولو أصبحت تحت الثرى بالي

ويضيف هذه الصرخة المشبعة بالكبرياء والإستعلاء، التي قد تبدو للبعض ضربا من ضروب المبالغة اللفظية، قائلا:

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

كلاّ، إنّها مجرد طريقة في التعبير، أراد الأمير من خلالها التأكيد على أنه دائما في طليعة جيشه زمن الحرب. فليس ذلك إذن، سوى ضرب من ضروب البلاغة الشائعة عند العرب، للتعبير عن روح السَّخاء المكشوف ونكران الذّات أمام الخطر.

http://www.al-maktabeh.com

ويذكرنا هذا بالأسلوب الشعري لـــ عنترة بن شداد، ذلك الشاعر الفارس، المستعبد الذي انعتق وتحرّر بفضل شجاعته، فأصبح أسطورة من أساطير عهد ما قبل الإسلام.وهذا الأسلوب ما هو إلا تأكيد ملفتٌ وقويٌ على الشجاعة الجسدية التي يتباهى بها العرب، خاصة أهل البادية:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلـــم
يخبرك من شهد الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وإذ نذكر الشاعر عنْتَرَة بن شدَّاد في هذا السياق، فإنه من المفيد والمستحسن أن نستعين برأي الدكتور طه حسين في تحليله لشخصية هذا الشاعر المتميز، هذا الرأي الذي أورده في كتابه (حديث الأربعاء)، ونجد فيه الكثير من العمق والشمولية والدِّقة ، ومنه قوله : " إن عنترة فيما يظهر، قد كان حلو النفس، رقيق القلب، قوي العاطفة . جاءه ذلك من أنه عزَّ بعد ذُلٍّ، وتحرَّر بعد رقٍّ،فهو قد تألم في طفولته وصباه،واحتمل الأذى في شبابه، وأيُّ أذى! هذا الذل يداخل النفس ويختلط بها اختلاطا، فيُصَفِّي عواطفها تصفية، ويلطِّف مزاجها:

ولقد نزلت فلا تظني غيره
من بمنزلة المحب المكرم

مكتبة المهتدين الإسلامية

لدى عنترة تحبب إلى صاحبته، وتهالك عليها، وحنين متصل إليها.فهو إذا فخر لا يفخر على صاحبته،وإنما لها.يريد أن يقنعها بأنه خليق أن تحبه وتميل إليه. ولا تقتصر رقة عنترة على صاحبته، بل نجدها حتى لدى تعامله مع عدوه، أليس هو القائل:

- فشككت بالرمح الطويل ثيابه
ليس الكريم على القـــنا بمحرم
- ينبئك من شهد الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم
- الشاتمي عرضي و لم أشتمهما
والنـــادرين إذا لم ألقهما دمي

تتوسع مشاعر العطف والرقة لدى عنترة، لتتجاوز الإنسان إلى غيره من الحيوان. فهو يتألّم لألم فرسه، ويشقى لشقائه، يتأثر لبكائه،ويتوجع لأنين جروحه، حين تصيبه الطّعنات ويعبث به الأعداء، فيعبر عما يضطرب في نفسه من حزن وشكوى:

فـــازور من وقـــع القنا بلبانه
وشكا إلي بعبرة وتحمحـــم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

***

كما نجد لدى الأمير قصائد أفرزتها الاهتمامات السياسية، كالقصيدة التي خصصها الأمير للدّفاع عن الوحدة التُّرابية

http://www.al-maktabeh.com

لتركيا، المهددة أثناء حرب الكريمي Crimée 1854، مادحا الخليفة عبد المجيد، على الرغم من أن علاقته به كانت خالية من الثّقة.غير أن واجب الذود عن أرض إسلامية، دفع عبد القادر إلى مناصرة الخليفة، وتناسي موقفـــه المستنكر لسياســـة البـــاب العالي.

وهناك قصائد كلها تمجيد وإكبار لمكّـــة المكرّمة والمدينة المنوّرة، يصف فيها الشاعر الجاذبية والحماس اللذين يغمران الزّائر في البقاع المقدّسة، ملتفتا إلى صورة انطلاق الحمام إلى العلوِّ في السماء، رمزًا ورسالةَ سلام وأمان، مختتما قصيدته قائلا:

أنا الحب و المحبوب والحب جملة

أنا العاشق المعشوق، سرا وإعلانا

إن هذا الإيقاع الموزون للحب في الأخذ والعطاء، وهذا الحضور الوحيد والمزدوج في آن واحد، تحت سلطان حبّ قويّ وهادئ لله،كلّ ذلك يذكّـــرنا بشعر أستاذه الكبير الفيلسوف الصوفي محي الدين بن العربي،الذي يوظف في الحب الصوفي نفس الإستعارات التي يستعملها في الحب الدنيوي .

ليس من الغريب أن يأتي شعر الأمير مرتبطا بالمناسبات التي تصادف ذوقه وطموحاته الشخصية، كوصفه المعارك عند الانتصار،أو أثناء رحلاته إلى البقاع المقدسة، فتتحول قصائده إلى شبه صلوات. أو عندما يذكر اسم النبي (صلعم) بإكبار

مكتبة المهتدين الإسلامية

وإجلال، كما في قصيدته (أبونا محمد) التي يختار فيها كلمات موزونة وجمل قصيرة، كأنها تعبير إيحائي لما يشعر به الإنسان – وهو في حالة خشوع مهيب وتأثر عميق– من تواضع العبد الضَّعيف أمام خاتم الرُّسُل و الأنبياء .

ولما يكتسيه هذا الموضوع، أي الشعر الصوفي الديني، من أهميّة بالغة لدى الأمير، سوف نعود إليه في مناسبة أخرى سانحة، لنوفيه حقّه من الدرس والتحليل، وإبراز ما يتّميز به هذا الشعر من عمق في التفكير وسموّ في التذكير، وابتكار في التصوير وقوّة وأناقة في التعبير.

****

عندما يتناول الأمير عبد القادر موضوع الحب في شعره، فإنه يفاجئنا تماما. فهو شخصية فذة مركبة، الإمام العارف بعلوم الدّين، الصوفي المتعمق المتبصّر، قائد الحرب المغوار ورجل الدولة المهاب، الذي نجده فجأة يتجرد من كل هذه الصفات، ليصبح إنسانا عاديا، عاشقا لا أكثر ولا أقل :

أود بأن أرى ظبي الصحارى
وأرقب طيفه، والليل سار
وأطلب قربه، فيزيد بعدا
فقديما من وصال في نفار
وهذا الظبي لا يرعى ذماما
ولا يرعى مؤانسة لجار

http://www.al-maktabeh.com

يتيه بدله، ويصول عمـــدا
غني بالجمال فلا يـــداري
أمازحه، فلا يرضى مزاحا
وأســـأله المراء، فلا يماري
ويعاتبني، فيكسو القلب بسطا
لأن العتاب يطفي حر ناري

شعر الأمير هو شعر الخطابة والفروسية، الذي يجد في نصوص فحول الشعراء العرب من مرحلة ما قبل الإسلام حتى العصور المتأخرة، ذاكرته ومرجعيته الثقافية - الفنية،التي ينهل منها ويستلهمها في كتابته. لذلك، من الطبيعي أن يجد الأمير تشابها دقيقا بين المحبوبة وغزال الصحراء، كما فعل دلك قبله الكثير من الشعراء العرب.

أيجوز لنا أن نفترض الأمير عاجزا عن خطب ودّها ؟ كلاّ، بل نرى في لذلك إحساسا منه أو ربما قناعة راسخة بأن المرأة الطاهرة كغزال الصحراء لا تغرى ولا تُفتن.فهي تدافع عن عفـــّتها وتحمي فضيلتها وتكتسي بثوب عزّة النفس.ويذهب الشاعر، وقد امتنع عليه الحديث معها، إلى تقبّل لومها، وينتهي إلى قوله :

ألا: هل يجود الدهر بعد فراقنا
فيجمعنا، والدهر يجري إلى الضد

لقد ارتبطت حالة الفراق أو البعد بين الأحبة، عند الشعراء العرب وغيرهم منذ القديم، بمشاعر الحسرة والأسى والبكاء،

مكتبة المهتدين الإسلامية

مثلما جاءت في بعض الأحيان، صورا مشحونة بتعابير مبتكرة عن العواطف في منتهى اللطافة والدقة والجمال.

وهكذا كان الحال لدى إبن زيدون الأندلسي (1003-1071)، الذي كان يحب الأميرة ولاّدة، هي الأخرى شاعرة وبنت أمير قرطبة المستهدي بالله. وكان يراسلها شعرا وأي شعر. فلما علم الأمير بذلك رماه في السجن.فاستطاع الفرار من سجنه وذهب إلى إشبيليا، حيث استقبله أميرها المعتضد بالله، فأصبح كاتبه الخاص ثم وزيرا.

فطال زمن الفراق بين الشاعر وولاّدة، فكتب لها رسالة في شكل قصيدة شعرية، شهيرة برقـّـة ألفاظها ومعانيها، التي تعلقت بها وتغنت أجيال من القراء والمعجبين، خاصة في قوله:

وقد نكون وما يخشى تفرقنا
فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأيـــا ولم نتقلـــد غيره دينا

ونحن في ظلال هذين البيتين الجميلين، نستذكر ما جادت به قريحة الأمير من شعر الحب والحنين :

غريق، حريق، هل سمعتم بمثل ذا
ففي القلب نار، والمياه على الخد
حنيني، أنيني، زفرتي، ومضرتي
دموعي، خضوعي، قد أبان الذي عندي

http://www.al-maktabeh.com

ومن عجب، صبري لكل كريهة
وحمـــلي أثقالا تجـــل عن العد
ولست أهاب البيض، كلا ولا القنا
بيوم يشيب فيه الطفل مع الـــمرد
وأرجاؤه أضحت ظلاما، وبرقه
سيوفا، وأصوات المدافع كالـــرعد
وقد هالني، بل قد أفاض مدامعي
وأضنى فؤادي، بل تعدى عن الحـــد
فراق الذي أهواه، كهلا ويافعا
وقلبي خلى من سعاد ومن هنـــد

إذا كان عبد القادر رجلا لا يخشى السيوف والمدافع، فهو لا يستطيع مقاومة سلطان الهوى. فهو بدوي عنيد متشدد، غير أنه بعد استسلامه لسلطان الحب، تأبى بداوته إلاّ أن تنقلـــه من قساوة الذات إلى وداعة الخلق.وإن قهره الحب قهرا،وعذّبه وأفناه،فإنه لم يلجأ إلى معاتبته أو شتمه،إنما آثـــر أن يمتدحه ويكسوه برداء من العطف والحنان.

ذلك هو السلوك الطبـــيعي للأمراء والسلوك التلقائي للشعراء.وإذا كان هذا الأمير هو ذاك الشاعر، فإن الجمال يجد نفسه في بيته متجليا مدللا، يتألق شعرا فياضا بدلالاته العميقة وصوره المشبعة وإيقاعه المتدفق.كأنه حديقة متناسقة النباتات والزهور، مشعة متناغمة بألوانها وظلالها وعطورها.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لا تشكل هذه المقاطع الشعرية في حياة الأمير العاطفية إلا محطة للاستراحة، إذ أنه في كثير من الأحيان، في زمن الحرب وتحت ضغط الأحداث والظروف، يحضر القائد المحارب ورجل الدولة بديلا عن الشاعر المحب، كما يحضر المفكر الفيلسوف زمن التأمل والتصوف.وفي كل الأحوال، كان الأمير يحتفظ للشعر بمكانته المرموقة، ليستعين به على هموم الدنيا، ويخفف به عن القلب المكدود والنفس المتألّمة.

كان الشعر العاطفي لدى الأمير عذريا عفيفا، مليئا بالسخاء، مطبوعا بطابع الوفاء والفضيلة.يترع فيه دوما إلى السرّ وكتمان اسم محبوبته، فلا يكشف عن أيّ شيء يتعلق بشخصها،من قريب أو من بعيد. وفضلا عن ذلك، فهو مصدر إعجاب ومتعة ذهنية وبصرية وسمعية على السواء، بمعانيه الرقيقة وصوره الجميلة، بموسيقاه الدافئة وقافيته الفاتنة.

***

كان الكاتب الفرنسي الكبير ستندال Stendhal، معجبا بنابليون بونابرت Bonaparte، أي بالأسطورة المزدوجة، للقائد الطموح والفارس المدمن على ملذّات الخلوات.عاش حياة غرامية خائبة في مدينة ترياست Trieste، حيث كان قنصلا لفرنسا. ألف ستندال كتاب (من الحب) وترك عبارة شهيرة: « ففي خيمة العربي البدوي، ينبغي البحث عن مثال وموطن للحب الحقيقي. أرى أننا كنا نحن الهمجيين تجاه المشرق، عندما اتجهنا إليه لنعكر عليه صفوته بحروبنا الصّليبية ».

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

فاطمة نسومر، المرأة المتمردة

كانت، وعمرها ثلاثة وعشرون عاما في 1853، بمسقط رأسها (جُرْجُرَة)، تستعيد في ذاكرتها الكلام الذي سمعته في القرية، وشوشات الرجال أثناء السهرات، الأخبار الآتية من حين إلى آخر عن انتشار القوات الفرنسية في الساحل، والسلوك المتعجرف والمهين للمستوطنين الفرنسيين، الذين استقروا في البلاد منذ قليل.

سؤال واحد، كان يتردد على شفتيها، في قلق وحزن وتعطش شديد لمعرفة الحقيقة: ماذا كان مصير الأمير عبد القادر؟ هذا الرجل الذي هزَّ قلبها بعد أن هزَّ قلوب شعبه، كانت وقتها طفلة، وهي لا تدري بذلك شيئا.

كانت تعرف فقط أنه يسمى عبد القادر، كان فارسا شجاعا مقداما، متصدرا دائما الصف الأول للمعركة، القائد المغوار الذي يعرف كيف ينطق البارود ويطمئن النفس المضطربة بذكر الله. لقد علمت ذلك أثناء خروجها لركوب الخيل مع والدها، أو استماعها للمناقشات التي كانت تدور في القبيلة.

كانت طفلة، عندما بدأ الأمير هجرة أخرى إلى بروس Brousse بتركيا، بعد أربع سنوات من الإقامة الجبرية في فرنسا. كم من مرة كانت تحلم برفع السلاح، للإلتحاق به في مواجهاته العسكرية ضد القبائل الخائنة أو المتردِّدة، وخاصة ضدٍّ الإحتلال الأجنبي.

http://www.al-maktabeh.com

كانت خلال السنوات الأولى من شبابها منغمسة في معاينة الأحداث واستشراف الغد الآتي،في سكون الليل أو خلال جولاتها وحيدة في غابات جرجرة،كانت تمعن في التفكير والتأمل،تبلور رؤيتها المستقبلية وتصنع معالم شخصيتها الفــذة، وترسم مسارها المقدر لها بكل تأني: إمرأة كتب لها أن تقود الرجال الأوفياء في زمن صعب، على طريق الواجب المتقاسم.

كانت تحسن القراءة والكتابة، مطلعة على القرآن الكريم وعلوم الدين التي أخذتها عن أخيها سي الطاهر[1]، مؤهلة للمناقشة وإبداء الرأي في مواضيع مختلفة، مع قدرة متميزة في الإبلاغ والإقناع.

كانت تعلم أنه خلال مقاومة الأمير عبد القادر، لم يذكر إسم أي امرأة إلى جانب أسماء خلفاء الأمير، خلال انتصاراتهم العسكرية أو مواقفهم المشهودة. وبالتالي، كانت تدرك أن الطريق الذي سطرته لنفسها شاق وصعب للغاية، إذ رفضت أن تكون مجرد مساعدة للرجال في معاركهم من الصفوف الخلفية، والإكتفاء بالبقاء داخل البيت- كما كانت تفعل من قبلها - زوجات المقاتلين والشهداء. بل صنعت لنفسها وضعا اجتماعيا متميزا، تمسكت به بكل قواها طول العمــر، هو وضــع المــرأة المتمردة.

1- كان أخوها سي الطاهر متعلما متفقها، مما أهله ليصبح شيخا للزاوية الرحمانية في المنطقة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت المتمردة حتى داخل عائلتها،إذ زوجها أبوها ضد رغبتها، من ابن عمها، وعمرها آنئذ ستة عشر عاما. لكنها تظاهرت بالمرض عند زفافها، فأعيدت إلى متزل والدها، وظلت طول حياتها في عصمة زوجها، الذي رفض الطلاق.

ولدت فاطمة نسومر عام 1246 هـ/1830م [1]، كأن القدر كتب لها أن تجيء إلى العالم سنة الإحتلال الفرنسي للجزائر، لترفع راية المقاومة ضد هذا الإحتلال.

كانت تسكن جبال جرجرة الشاهقة [2]، التي لم تطأها بعد أقدام أي أجنبي، غير أن الأخبار بلغتها، أن قوات فرنسية تتجه نحو الجبال،التي ظلت مجهولة حتى ذلك الوقت بالنسبة للغـزاة.

بينما كان الرتل الفرنسي يرفع راياته ومشاعله، ويستعرض عتاده الحربي وسط سكان أصابهم الفزع، وصل إلى أسماع فاطمة نسومر معلومة غير متوقعة، مفادها أن شخصا يدعى الشريف بوبغلة، تشهد له القبائل أنه كان خليفة لدى الأمير، يرغب في لقائها.

1- ولدت بقرية (ورجة)، وبعد وفاة أبيها، انتقلت إلى قرية (سومر) حيث كان يقيم أخوها الأكبر سي الطاهر. وإلى هذه القرية جاءت نسبتها.

2- تحمل أعلى قمة في جبال جرجرة إسم لالة خديجة،إسم والدة فاطمة نسومر.

http://www.al-maktabeh.com

كان بوبغلة في الواقع قد اتصل مع مجموعة من زوايا (الطريقة الرحمانية)، معبرا عن رغبته في مقابلة فاطمة نسومر.وقد نصحه شيوخ هذه الزوايا بما يتوافق مع التقاليد،أي الإتصال أولا بأخيها الذي سيتكفل بتحديد المكان وتفصيل اللقاء، وذلك ما تم فعلا.

كانت الزاوية الرحمانية تضم حوالي ثلاثمائة ألف من الأتباع / المريدين[1]، وذلك استنادا إلى رأي المؤرخين ومدوني وقائع تلك المرحلة، مثل العقيد تروملي/Trumlet، الذي ألف عدة كتب عن مصاعب حملة الإحتلال. هؤلاء الاتباع (الأخوان) الذين قاموا بدور هام في مقاومة بوبغلة وفاطمة نسومر، حيث زودوها بشباب المقاتلين وشبكات الدعم والتموين التي كانت في حاجة إليه.كما ساندوا فيما بعد، بمجموعات من الفرسان الشجعان انتفاضة المقراني سنة 1871.علما أن الزاوية الرحمانية كانت بالنسبة لكليهما، نسومر والمقراني،مصدر إلهام روحي وتعبئة شعبية.

عندما التقى بوبغلة بنسومر، كان مذهولا بشخصيتها، امرأة في عنفوان الشباب والجمال، ذات نظرة ثاقبة نافذة، ويد قوية صارمة وإرادة حديدية. تبادلا حديثا سريعا، لكنه كان في نفس الوقت مكثفا وصريحا.

---

1 - تأسست الطريقة الرحمانية على يدي سيدي محمد بن عبد الرحمان، المسمى بوقبرين في آيت اسماعيل، قريبا من (بوغني) بمنطقة القبائل الكبرى حوالي 1715. علما أن والد نسومر، سيدي محمد بن عيسى كان شيخا من شيوخ الطريقة الرحمانية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

والنتيجة أنه، بعد أن كان بوبغلة خليفة لدى الأمير، سيصبح ضابطا لدى نسومر. كانت تكن له إعجابا مكتوما، وهو ذلك الرجل الآتي من بعيد، من أجل مواصلة المقاومة التي ابتدأها قبل سنوات مع الأمير، دفاعا عن قضية وطنية عادلة، لم تكن في نظر كل منهما خاسرة أو منتهية.

بمرور الأيام والأشهر، تولد بينهما في صمت حب سري عفيف محتبس، قد يصعب أو يتعذر الحديث عنه في ظل احترام التقاليد السائدة آنذاك، والذي كانت أولوية المعركة تؤجله إلى وقت لاحق. وقد زاده تعقيدا وضعها الإجتماعي، لكونها زوجة لازالت في عصمة رجل.

كان بوبغلة وهو المقاتل ببسالة تحت راية الأمير، المتمرس على إستراتيجية العدو والوسائل الضرورية لمجابهته، قد بذل كل جهده وطاقته في تنظيم المجموعات المسلحة وتأهيلها للتصدي للغزو. فعل ذلك بكل قناعة وفعالية القائد الحربي، وفعل ذلك بتحمس حاد ألهمته إياه رغبته في بلوغ قلب فاطمة نسومر واكتساب ودها.

كان يتأتى له في كثير من الأحيان، أن يبوح بذلك إلى شقيق نسومر، لكنها تبقى غير متأثرة، لا لأنها ترفض الفكرة مبدئيا، إنما لكونها ما زالت زوجة في عصمة رجل يرفض الطلاق. أمام هذا العائق الذي يصعب تجاوزه، قرر بوبغلة دفع أغلى ما يمكن أن يقدمه من تعويض لإقناع زوجها بالطلاق، لكن هذا الأخير رفض في تشدد وعناد.

http://www.al-maktabeh.com

هكذا، ظلت المرأة الشابة التي غدت أيضا قائدا حربيا، ظلت عازبة راضية طوال حياتها، مما جعلها متمردة اجتماعيا وسياسيا في آن واحد، لتصبح في آخر المطاف - دون أن ترغب في ذلك، ودون أن تعلم ذلك أبدا - بطلة وطنية بأتم معنى الكلمة.

فقد توضح الأمر إذن بالنسبة لهما، وفرض نفسه عليهما فرضا، ولم يبق أمامهما في انتظار أيام أجمل، إلا توحيد طاقاتهما نحو قدر محتوم في مقاومة الغزاة المحتلين.

كانت المصادمات الأولى مع العدو خاطفة، ثم تحولت إلى مواجهات عنيفة ودموية، متبوعة بعمليات انتقام، إحراق للقرى وخطف للرهائن واعتقالات جماعية.وبقدر ما كانت قوات العدو تتقدم في مسيرتها نحو المرتفعات الملتوية، كانت المعارك تغدو متعددة وأشد دموية.

ولتقدير حجم تلك المعارك الشرسة، ينبغي العلم أن تعداد القوات الفرنسية المهاجمة في جرجرة، كان يقدر بخمسة وأربعين ألف جندي، يقودهم ستة جنرالات برئاسة الماريشال راندون Randon شخصيا، الذي كان حاكما عاما للجزائر. بينما كانت قوات فاطمة نسومر لا تتعدى في مجموعها سبعة آلاف مقاتل. اشتهر الماريشال راندون بأعمال العنف والاستخدام المفرط لقوة البارود ضد الأهالي العزل، غير أن ضربات المدفعية الثقيلة، لم تستطع أن تنال من عزيمة المقاتلين.

أصيب بوبغلة بجروح في معركة خلال عام 1854، وبينما كانت فاطمة نسومر بجانبه، متخوفة من أن ينسحب من القتال

مكتبة المهتدين الإسلامية

متأثرا بجراحه، صرخت بملأ أنفاسها قائلة: « الشريف، اللحية ليست من التبن ».

فأشعلت صرخة المرأة الغاضبة المدوية عزيمة المقاتلين، فالتهبت شجاعتهم وتحولت جرأتهم إلى مغامرة تلقائية، فسقط الكثير منهم بالرصاص أو ضربات المدفعية.بينما ظل الشريف بوبغلة واقفا، يحث المقاتلين هنا وهناك بذل المزيد من المقاومة والتصدي.

أما في معسكر فاطمة نسومر، فإنه إذا ثبت على أحد المقاتلين الإنسحاب أو الرجوع إلى الوراء، فإنه يكوى بالنار في أحد أجزاء جسده حتى تثبت عليه الخيانة إلى الأبد. وقد جعلت الأسطورة الشعبية من هذا الموضوع قصة رائجة.

اعتكف بوبغلة في مكان سري ليداوي جراحه، وفي الوقت الذي بدأ فيه يتعافى بصعوبة، عمد العدو إلى استعمال وسائل أخرى، فاستغل بعضا من المتواطئين معه للوصول إلى بوبغلة والكيد به.فاغتالته الأيادي الآثمة ذات مساء من ديسمبر 1854، في موقع قريب من قرية (تازمالت).

كان مقتل بوبغلة خسارة كبيرة وضربة قاسية لفاطمة نسومر، التي أصبحت تقدر منذ ذلك الحين، ما كان يمثله الفقيد بالنسبة إليها، كضابط ورفيق سلاح، وأكثر من ذلك، كإنسان كان من الممكن أن تقاسمه الحياة في شرف وتقوى.

لكنها أحست كأن هذه الوحدة الفجائية حافز قوي لأداء الواجب ومواصلة المقاومة على مدى سنوات شاقة مؤلمة حافلة

http://www.al-maktabeh.com

بالمصاعب والأهوال، كانت تشعر فيها بحضوره إلى جنبها، كأنه حي لم يمت. وما كان يثيره في نفسها من مشاعر الفخر والإعتزاز، لكونها استطاعت أن تمدد، معه ومن خلاله، في عمر المقاومة الطويلة التي خاضها الأمير عبد القادر.

استمر مقاتلو نسومر في مناوشة العدو ونصب الكمائن، والقتال بالأسلحة والذخائر التي يغنمونها من العساكر المقتولة. وبقدر ما كانت قوات العدو تتقدم صعودا من قمة إلى قمة، تحت غطاء المدافع، كان مقاتلو نسومر يصعدون إلى أعالي الجبال أكثر فأكثر، يقودون الأطفال والنساء والعجزة، نحو ملاجئ أكثر أمنا، يصعب الوصول إليها.

كان القتال شرسا، يصل خلال المواجهات المفاجئة في شوارع القرى المهجورة إلى حد التلاحم الجسدي، حيث يكون السِّلاح الأبيض بديلا للبارود. وأمام تلك المقاومة الباسلة والتَّضحيات الغالية، قررت قيادة أركان العدو شن هجوم شامل غير مسبوق:

« في شهر ماي 1857، تجمعت ثلاث فرق عسكرية تحت قيادة ماكماهون MacMahon، يوسف Youssef، رونو Renault. كانت فرقة أخرى لـــ مايسيا Maissiat ستهاجم من جنوب ممر (تيرودة) قدوما من قسنطينة. وتأتي فرق أخرى بعد ذلك من (البويرة) وصور الغزلان وأماكن أخرى. أعطى الماريشال روندون Randon الأمر بالهجوم في 24 ماي، يوم عيد الأضحى». [1]

1- وثيقة حول فاطمة نسومر، ملحة بن ابراهيم. ص 248.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تم اعتقال فاطمة نسومر والسلاح في يديها، بعد شهرين من حصار الفرق الثلاث للمنطقة كلها، وهجوم غير مسبوق. كان ذلك في 11 جويلية 1857. « تم توقيف فاطمة نسومر من طرف الجنرال يوسف، فقادها جنده إلى معسكر الماريشال روندون في (تيمزغيدا). سجنت في زاوية بني سليمان بـ (تابلاط)، حيث توفيت في سن الثلاثة والثلاثين عاما. وظل قبرها لأمد طويل مزارا لسكان المنطقة ».[1]

لما وصلت نسومر إلى المعسكر تحت حراسة مشددة، استقبلت من طرف حراس سجنها بشيء من الإعجاب المكتوم، وبارتياح كبير لهذه النهاية. غير أن الذي كان أكثر اهتماما بهذه المقابلة، هو الماريشال روندون، الذي ظل في حيرة متواصلة أمام إصرار

هذه المرأة وقدرتها على قيادة الرجال:«جاءت امرأة فوق حصان، ملتحفة ببرنوس أبيض، وضعت رجلا على الأرض بمساعدة سي الطيب، ومتكئة على ذراعه، فدخلا إلى خيمة الحاكم.

يسألها روندون: لماذا نقض سكان قبيلتها المعاهدة، فأطلقوا الرصاص على الفرنسيين ؟

تجيبه: الله أراد ذلك.ليس ذلك خطأك، وليس خطأي. جنودك تركوا صفوفهم ليدخلوا إلي قريتي، وجنودي قد دافعوا عن

1- وثيقة حول فاطمة نسومر، ملحة بن ابراهيم. ص 248.

http://www.al-maktabeh.com

أنفسهم. أنا الآن سجينة، لا ألومك في شيء، ولا يجب أن تلومني في شيء. هذا ما كتب». [1]

هذا ما كتب، وهو يذكرنا بما قاله عبد القادر:« لقد كافحت طالما أراد الله ذلك، وتوقفت عندما أراد الله ذلك ».

كانت مؤمنة متمسكة بالقدر بعد أداء الواجب: «الآن أنا سجينة، لا ألومك في شيء، ولا يجب أن تلومني في شيء». هكذا كانت تقول فاطمة نسومر إلى الماريشال الغازي المبتهج. كان الفصل النهائي له،بسبب نقص السلاح وعدم توازن القوى. ذلك هو منطق الحرب غير المتكافئة، التي تجسدت بالنسبة لها في تضحيات غالية من أجل الحرية، وتجسَّدت بالنسبة له في تكاليف وخسائر معتبرة من أجل الغزو.

* * *

جسدت فاطمة نسومر المرأة في مختلف تجلياتها وأبعادها الذاتية الروحية، الإجتماعية، السياسية والعسكرية. وهي بالتأكيد لا تنحصر فقط في شجاعة رفع السلاح. كانت رمزا مشعا لشجاعة المرأة الجزائرية، المرأة المتمردة البطلة، التي ألهمت المجاهدات المناضلات، اللواتي انخرطن تلقائيا في ثورة أول نوفمبر 1954، لتحرير الأرض والإنسان. وكذا كل نساء الجزائر اللائي وجدن فيها رمزا للإباء والشرف والبطولة، للحرية والكرامة والوطنية.

1- جون ديجو: نساء الجزائر. ص 165.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ستبقى روحها الطاهرة الخالدة ترفرف حمامة سلام وأمان في سماء بلادي العزيزة، وإسمها محفورا مرسوما على صخر لا يلين في جبال جرجرة الشامخة، متجذرا محفوظا في قلوب الشعب الجزائري العظيم. كما سيظل صوتها متعاليا مؤثرا كنشيد الحرية، تتردد أصداؤه البعيدة في قمم الأوراس وأعالي الهقار.

لا، لم تمت فاطمة نسومر،ولم ترحل عن ذاكرتنا أبدا. وهذه الأسطر التي كتبت على عجل،في غمرة الإنفعال ومشاعر واجب العرفان، ليست سوى تحية متواضعة محتشمـــة لعظمـــة روحهـــا الخالدة.

لقد شبه جنرالات الجمهورية الثانية فاطمة نسومر بجان دارك Jeanne d'Arc منطقة القبائل. وبعد أن ماثلوها بها، راحوا ينتزعونها من أغوار جرجرة، ومع ذلك فهي لم تسمع أصوات سماوية، و لم تتحرك لتعيد ملكا إلى عرشه وتتوجه في مدينة ريمس Reims، هذه المدينة، ومن حقنا أن نتذكر ذلك، التي شاء القدر أن تشهد عام 1825 تتويج آخر ملوك فرنسا، شارل العاشر Charles X الذي قرر غزو الجزائر.

لقد كافحت فاطمة نسومر فقط من أجل إنقاذ وتحرير وطنها من الإحتلال، في عز شبابها المرتعش بوعود السعادة.توفيت نسومر في سبتمبر 1863 وسط مائتي من رفقائها السجناء، منهكة بالمرض، حاملة معها في قبرهـــا المجهـــول، حبا قويـــا رائعا لوطنها وشعبهـــا.

أجل، لقد انتزعت فاطمة نسومر مكانها في مقبرة عظمـــاء الأمة.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

المقراني
المقاومة بصيغة الجمع

إذا ما تحدثنا عن المُقْرَاني، وجب أن نتحدث عنه بصيغة الجمع، لأن كل شيء فيه يتعدد ويتضافر: الأسماء والمناظرات السياسية، المغامرات الثورية وحكومة باريس الثورية، انتفاضة سطيف والحضنة، توافق التواريخ وتصادفها، محاكمة المتهمين، بما فيهم الأبرياء منهم، على أن يقذف بكل ذلك في جزيرة نائية وسط محيط زاخر (كاليدونيا الجديدة). يا لها من نزهة فروسية غريبة! ويا له من قدر ساحر أخاذ، ولكن يا لها من عودة لا مرد لها إلى حركة التاريخ!

أجل إن الحديث عن المقراني هو كل هذا الذي ذكرنا، كل ذلك وأكثر، كما سنرى بعد حين.

لنبدأ بالمقراني أو قل المقرانيين أو أسرة المقراني. كانوا كثيرين، أجيالا متعاقبين لأسرة امتدت على مدى خمسة قرون، كان جدهم الأول سيِّد (بمجانة) (بمنطقة سطيف) الذي لا ينازع، وكان الأحفاد يقتضون من الأتراك المستقرين بمدينة الجزائر وبقسنطينة حق المرور على تراهم كلما أرادوا ذلك.

أسرة متألقة بلغت من الإشعاع والشهرة، ونقاء الأخلاق والتمسك بالتقاليد، والتشدد في اللياقة ما جعل بعض المؤرخين يفترضون انتماءهم إلى أسرة الدوق مونمورانسي Montmorency الأميرية. وكأن المرء لا يمكنه أن يتصور من أعلى الجبل الذي

http://www.al-maktabeh.com

يطل على سطيف، إلا أرستقراطيا أوروبيا تتوفر فيه مثل هذه الخصال والسجايا.

كان الحاج محمد المقراني الشخصية البارزة أو المركزية التي كثر عنها في هذه السلالة من الأرستوقراطيين. مات أبوه صاحب الهيبة والنفوذ سنة 1853 في طريق عودته من مكة، حين كان يتجه بعد نزوله بميناء مرسيليا إلى (كومبيان Compiegne)، حيث دعي لحضور عرس نابوليون الثالث بزواجه مع أوجيني دو مونتيجو Eugenie De Moutijo ابنة مركيزة أسبانية.

كذلك، اتجه الحاج محمد المقراني باش آغا دائرة مجانه إلى (كومبيان) سنة 1862 مدعوا من الإمبراطور. وكان هذا الأخير قد قدم قبل سنتين على مدينة الجزائر التي لم يمكث فيها إلا بضعة أيام، لأن الإمبراطورة التي رافقته فقدت أختها في باريس، لكنه أمكنه أن يحي "الأعيان من الأهالي"، وشهد على الخصوص استعراضا كبيرا للفرسان اتجهت فيه الأنظار إلى الباش آغا، وعندما أطلق الفرسان العرب طلقات البارود من بنادقهم دفعة واحدة مدوية أمام خيمة الإمبراطور لم يتمالك هذا الأخير نفسه، ليصيح قائلا: " هذا ليس شعبا، إنه جيش".

هل كان ذلك تنبها منه أم تنبؤا ؟ فقد سبق لهذا الشعب أن كان جيشا من الفرسان، عندما قاد الأمير عبد القادر جموع المقاتلين وحمل لواء الكفاح. وسيغدو جيشا من جديد بعد تسعة أعوام، عندما يعبيء المقراني نفسه فرسان القبائل ويستنفرهم للقتال.

مكتبة المهتدين الإسلامية

تولى نابوليون الثالث الحكم، فتلقاه الجمهوريون بانتقاد شديد، مستنكرين انقلاب الثاني من ديسمبر سنة 1851، وكان فيكتـــور هيجو المنفي في (جيرزي Jersey) ثم في (غرنيـــزي Guernesey) " أكثر الناطقين باسمهم جرأة، أكثرهم صيتا وأوسعهم انتشـــارا. وذلك بفضل كتاباته وشهرته، حيث أصبح الشعر هـــو الخـــادم العذب، واللسان الرائق للسياسة.

كان مجيء نابوليون الثالث إلى الجزائر مثارا لآمال عريضة لدي الجزائريين. ألم يكن هو ذاته الذي أدى زيارة للأمير عبد القادر، لكي يبلغه خبر الإفراج عنه وانسحابه إلى تركيـــا؟ إن الإلتـــزام الذي لم يف به لويس فيليب Louis Philippe قد وفّى به نابوليون الثالث ورعاه. إنه إذن رجل يمكن الوثوق به. وهذا الأمر وحده كفيل بإحداث تأثير إيجابي في الرأي العام الجزائري.

كانت قرارات المشيخة Senatus consulte[1] الصادرة ســـنة. 1863 ثم سنة 1865، قد أذنت بحدوث هذا التغيير في الموقف إزاء الجزائريين إذ كانت الرسالة التي بعث بها الامبراطور إلى الحاكم العام للجزائر بيليسيه Pelissier، تشير إلى مسلك في الحكم يتجه نحو حماية مصالح "الأهالي" المادية، واحترام عـــاداتهم وأعـــرافهم وتقاليدهم الدينية.

1- نص صدر عن مجلس الشيوخ في العهد الروماني، ثم قرار (بمثابة نص قـــانوني) مصادق عليه من طرف مجلس الشيوخ في عهد الإمبراطورية الأولى والثانية الفرنسية.

http://www.al-maktabeh.com

لا نريد أن نتناول هنا أحكـام وقـرارات مجلس الحكـام Directoire بالدراسة والتحليل. فإذا كانت النزعة العامة في سياق العصر تسجل موقفا جديدا لصالح "الأهالي"، فإن مفاهيم كثيرة ما تزال تتعارض وهذا التوجه، ولا تتلاءم معه.

لقد أعطى نابوليون الثالث صورة مشرفة للملك مستنير، حساس لمصير السكان العرب الذين تعرضوا للهوان والإذلال. لقد قـام برحلة إلى الجزائر سنة 1865، حيث أقام فيها أكثر مـن خمسـة أسابيع، ألقى خلالها عشرات الخطب، تنقل في البلاد من الشرق إلى الغرب، وصافح أيدي المعمرين والقساوسة. كانـت هـذه الرحلة حدثا بارزا، ولها صدى بعيدا في أوساط "الأهالي".

أراد الامبراطور أن يعرف كل شيء، فتنكر ذات مساء وخرج يتنزه في المدينة بمعية مرافقه الجنـرال فلـوري Fleury والحـاكم العام الماريشال ماك ماهون Mac Mahon، فدخل إحدى المقـاهي العربية. ولما هَمَّ بدفع ثمن قهوته، ملقيا بقطعة نقـود مـن فئـة خمسة فرنكات، اكتشف أمره، وأفهمه المعتادون علـى ارتيـاد المكان، بأنهم يفضلون ألا يأخذوا شيئا من ضيفهم الكبير، وهـم البؤساء التعساء.

وعندما قام في يوم من الأيام بزيارة رسمية لناحيـة غليـزان، استوقف عشرات الأشخاص من المـتعممين المتبرنسـين وذوي الثياب الرثة موكب الإمبراطور، وطالبوا بالإفراج عـن ذويهـم المعتقلين في جزيرة كورسيكا.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان أولئك الناس من قبيلة بني فليحة، ضحايا الجنرال بيليسيه Pelissier نفسه، الذي كان من أشد الناس تحمسا لطريقة استعمال حزم الحطب لحرق وخنق السكان الفارين المحتمين بالأنفاق والمغارات، تماما كما كان قبله العقيد سانت أرنو St Arnaud الذي كان صانع انقلاب الثاني من شهر ديسمبر 1851، بعد أن أصبح جنرالا في باريس.

هكذا يمكن أن نفهم بمنتهى اليسر، تلك الطريقة التي تلقى بها بيليسيه رسالة الإمبراطور المتضمنة تعليمات، والتي سبق أن أرسلها إليه قبل ذلك.

لكن جرأة نابوليون الثالث، وهي بحق جرأة بالقياس إلى روح ذلك العصر، لا تقف عند هذا الحد، بل تذهب إلى أبعد منه. فقد أطلق فيما يخص الجزائر فكرة مملكة عربية: " ليست الجزائر مستعمرة، ولكنها مملكة عربية ".

لقيت هذه الفكرة معارضة شديدة، لا سيما من لدن المعمرين. فهم لا يرضون "باقتسام" الأراضي مع العرب، بل ولا يقبلون بوجودهم إطلاقا فوق أديم الأراضي الزراعية الخصبة، ناهيك بأن يسمح لهم بامتلاك عقارات، أو حصولهم على أية وضعية قانونية تجعل منهم رعايا فرنسيين، دون أن تبتر تلك الوضعية وتحذف منها بعض الحقوق الأساسية.

كان قرار مجلس الشيوخ الصادر سنة 1865 غامضا لاعتبارات كثيرة. وعلى الرغم من أن المعمرين لم يتحرجوا في تجاهله، فإنهم

http://www.al-maktabeh.com

واجدون في بعض الحالات حججا فيه ثمينة تدعم موقفهم. وسرعان ما بدأت حملة واسعة لمعارضة السِّياسة الداعية إلى إنشاء المملكة العربية، بمجرد عودة الإمبراطور إلى باريس، وسرعان ما أُتبعَت تلك الحملة بتدابير عملية، تجرد العرب من ممتلكاتهم وأراضيهم عن طريق انتهاج السياسة المعروفة بسياسة تجميع القبائل. وكانت عمليات نزوح حقيقية منظمة ومُدبَّرة بإحكام إلى الأراضي الجرداء والجبال القاحلة.

وتحت غطاء مساواة سخية في الفرص، بلغت بهم السخرية إلى حد قبول مشاركة الأهالي في المزادات لشراء الأراضي، إلا أنهم كانوا قد احتاطوا قبل ذلك، واتخذوا من التدابير ما يجعل قدرتهم (أي العرب) على التدخل دون طائل، لأنهم وهم المدفوعون إلى الجبال والأراضي القاحلة لا يستطيعون شراء العتاد الفلاحي ولا البذور دون اللجوء إلى الاقتراض، وأعطيت امتيازات كثيرة لعدد من الشركات الفرنسية أو الاوروبية ولا سيما السويسرية منها لاستغلال الأراضي أو الغابات.

كان رد فعل الأهالي المصابين بعجز حقيقي، يتمثل في إحراق الغابات استدرارا لبعض المراعي الهزيلة، لكن الرد الإستعماري كان من السرعة والعنف ما عَجَّل بإسكات غضبهم، وحبس دموعهم وخنق أنفاسهم، ووقعت منافرات ومشاهد رهيبة من العنف. ولم يجد الأهالي في كثير من الحالات والمواقف بدا من امتشاق الحسام، وتناول البندقية لإحقاق حقوقهم، وكثيرا ما كانت تلك الإنتفاضات تنتهي بمذابح تذهب ضحيتها عائلات كاملة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وافق المعمرون أيضا، استجابة لرغبة نابوليون الثالث، على أن يغدو " الأهلي " مواطنا من مواطني الإمبراطورية، لكن بشرط أن ينسلخ عن "قانونه الشخصي" أيْ عـن شخصـيته الإسـلامية وانتمائه العربي. وهكذا، فبعد تجريده من ممتلكاته المادية، اتجهت النِّيَة الآن إلى تجريده من مقوماته الروحية، ومن تراثه الثقافي بكل ما يتضمنه هذا التراث، من ارتباط بالعقيدة، واتصال بالتقاليـد والأعراف السائدة في المجتمع العربي.

كانت الصدمة شديدة، والرفض كليا، والمرارة عميقة. ومـن الأمثلة على ذلك ما أوردته مستندات تلك الحقبة مـن الـزمن، وحفظته وثائقها من رواية حادثة مؤداها: أن شخصـا يـدعى بودربه، دعي للمثول في دار البلدية، لكي ينال حقه في التقاعـد والإحالة على المعاش، وطلب منه أن يحضر معه أوراق هويتـه، وبعد أن فحص مأمور البلدية الوثائق بدقة وعناية، أخذ يضحك وقال: " هل أنت متعلم؟ يمكنك أن تتحول إلى مواطن فرنسي، لكن يجب عليك قبل ذلك، أن تطلق زوجتك التي اقترنت بهـا وفق الشريعة الإسلامية، ثم التَّزوج بهـا مـن جديـد حسـب مقتضيات القانون الفرنسي".

هل يمكن تصور رد فعل هذا الرجل أمام إهانة كهذه ؟ لقـد تمزقت أحشاؤه حنقا وغضبا، كما كان الشأن بالنسبة إلى جميع الذين تعرضوا لمثل هذه الإهانة، وشعر بارتباك وخجل من أمـره ،لأنه هان عليه أن يرجو الحصـول علـى مثـل هـذه الوضعيـة القانونيـة.

http://www.al-maktabeh.com

عندما يفقد الرجل المرتبط بأرضه حق العمـــل في ممتلكاتـــه، ويفقد حتى حق ملامستها بنظرة منه مشوبة بالحنين والتوقـــان، فإنه لا يكون بعيدا عن الثورة. ولكن عندما يشعر نفس الرجل، بعد كل مظاهر الإحتقار والظلم، بأن المطلوب منه هو الإنسلاخ من روحه، ومن خفقان قلبه ونبضاته، ومن عقيدته الدينية وعبادة ربه، فلا أحد يستطيع أن يبعده عن التمرد والثورة.

لكن علينا أن لا نستبق الأحداث، لأن الأمور شهدت مراحل وتحولات متعاقبة. تلاحقت الأخبار على باريس، فكان نابوليون مضطربا بين الغضب الشديد حينا، والقلق والحيرة حينا آخـــر. الغضب من عصيان حكام الجزائر لأوامره، والقلق والحيرة مـــن أحداث مستقبلية، قد تتسبب فيها مثل هذه المواقـــف المتنـــافرة والمتعاكسة. فما كان منه إلا أن أوفد بعثة لاستقصاء الأحـــداث واستجلاء حقيقة الأمور.

وجد مبعوثا وفيا له في شخص إسماعيل أورابان Urbain. كان هذا الرجل الكريولي الأصل المترجم العربي للإمبراطور. درس في القاهرة، وأتقن اللغة العربية . ولما كان متزوجا من امرأة مسلمة، فقد كان حساسا لمصير هذا الشعب العربي المسلم، لكنه كـــان مقتنعا مثل الإمبراطور، بأنه لا يضمن الوجود الفرنسي على هذه الأرض إلا التعايش مع شعبها، على أساس من العدل والمســـاواة واحترام لهويته. والتعايش وحده هو الكفيل بإثمار حضارة جديدة على هذه الأرض تقـــوم على العبقريـــــة العربيـــــة والفكـــر الأوروبي البنَّاء.

مكتبة المهتدين الإسلامية

قام أوربان بعدة رحلات، وزار عددا من الأهالي، وخاصة أعيانهم ومنهم الهاشمي بن باديس جد الشيخ عبد الحميد. والتقى عددا من المعمرين، منهم الكثير من الفرنسيين مثل الدكتور فيتال Vital المناهض للإستعمار، الذي تبادل معه رسائل كثيرة ومفيدة. كما التقى، بطبيعة الأمر، الماريشال ماك ماهون الحاكم العام للجزائر.

كان الإنطباع الذي خرج به أوربان من خلال تحاليله الطويلة للوضع في الجزائر، هو أن " المملكة العربية " كما تصورها الإمبراطور، لن تشهد النور، لأن المعمرين وحماتهم في الجزائر وفرنسا قد نصبوا في طريق تحقيقها عوائق لا تخترق، وحواجز من التعنت والتصلب تتكسر عليها كل المحاولات، وتلين دونها كل الطاقات. ومع ذلك فإنه لم يفقد الأمل، وواصل النضال بكل ما أوتي من قوة حتى سقوط الإمبراطورية.

وفي تلك الأثناء، صارت الحالة الإقتصادية في البلاد أمرا لا يطاق، فقد التهم الجراد سنة 1866 جميع المزروعات من القمح والشعير وحتى الجذور، وجرد الأشجار من أوراقها، وأتى على الأخضر واليابس. وظهرت السهول في الصيف بمظهر الخراب اليباب، وبلغ الجفاف سنة 1867 حدا لا يتيح للحبوب أن ينبت، وهلكت الماشية جوعا لانعدام العشب، وهزل الناس لكثرة الحرمان وشيوع الفقر والعوز، وأضحوا نهبا للكوليرا والتيفوس. واستمر هذان الوباءان يفتكان بالناس حتى سنة 1868.

http://www.al-maktabeh.com

قد كتب الجنرال لاكريتال Lacretelle الذي لا يعرف للعطف ولا للين سبيلا نحو "الأهالي" يقول في كتيب له:

" ان جماهير من السكان الذين استحالوا حيوانات متوحشة، لا تعيش إلا على جذور النباتات والأقذار، وتغالب الموت بأغذية منفردة، فتنازعه آخر يوم من الآلام والإحتضار. وقد بلغ عدد الضحايا في مقاطعة وهران ما يزيد على مئة ألف، أي قرابة خمس السكان. وأن آلاف الأشباح التي ستسلم الروح بدورها لتجوب البلاد ساحبة أجسادها المنهكة الهزيلة، وناشرة عدوى الأمراض بجميع أنواعها، والتي هي نتيجة طبيعية لتعاسة شاملة كهذه ".

وبعد أن قَدَّر الأسقف/ الكاردينال لافيجري Lavigeri عدد الجزائريين المحكوم عليهم بالهلاك جوعا بما يزيد على خمسمائة ألف نفس أضاف يقول:

"إن العرب عاجزون على مقاومة الجفاف، لأن المعمرين الأوروبيين انتزعوا منهم أراضيهم، ومنعوهم حتى الوصول إلى مجاري الماء والإنتفاع بها. ولأن الينابيع القليلة في الأراضي الجبلية التي حشروا فيها حشرا، والتي لا تكفي لسقي مواشيهم في الظروف العادية قد نضبت مياهها، وزالت من الوجود تماما. ولأنهم أخيرا لا يملكون في قراهم صناعة ولا تجارة، ولذلك فإن عدم توفر الحبوب، وضياع الماشي، يجعلانهم دون موارد ".

إذن، هكذا نرى أن الأزمة الإقتصادية التي بلغت درجة الكارثة، والتي أصابت الجزائر لا يمكن إلا أن تزيد الوضع

مكتبة المهتدين الإسلامية

السياسي تعقدا، ولا يمكن الا أن تؤدي إلى تجاوزات واضطرابات لا حصر لعواقبها، ولا عد لمآسيها. فطيف الموت كان يحوم في كل مكان، والنساء والأطفال الذين يحسبون أجسادهم النحيلة، يجوبون الطرق وحتى مشارف المدن، ولكن الذين يصلون منهم أحياء إلى ضواحي مدينة الجزائر كانوا يردون بعنف، ويصدون بكل قوة مخافة أن تنتقل عدوى الأمراض إلى المدينة، التي اعتصم بها عدد كبير من المعمرين.

ولما كثر عدد الأطفال التائهين كالحيوانات الشاردة بأجسام نحيلة هزيلة وهم يتضورون جوعا، ويعانون مرضا واعتلالا، أيقن الكاردينال لافيجري أن الوقت قد حان لإسعاف الأبدان قصد "إنقاذ أرواحها". فعمد إلى تنظيم عدة مؤسسات دينية لإيواء الأيتام والمساكين، لا سيما منها المؤسسات التابعة لسلطة أخوات (سان فانسان دو بول St vincent de paul)"، وجعل منها ملاجيء حقيقية مهمتها تعميد الأطفال وتمسيحهم أو تنصيرهم.

وبينما كان الماريشال ماك ماهون - الذي لا تشاطر زوجته الكاردينال في وجهته تلك، وما قام به من عمل في الموضوع- معارضا وثائرا على هذه الممارسة، التي يرى أنها ستثير ردود فعل عنيفة من الجزائريين، تصدى رؤساء السكان الأهالي وأعيانهم لهذه المحاولة التنصيرية بكل قوة مُذَكِّرين السلطات الفرنسية بما سبق لفرنسا أن وعدت به عند نزول قواها بأرض الجزائر من احترام معتقدات السكان الدينية.

كان المقراني من بين هؤلاء المحتجين الساخطين. فقد وضع الحاكم العام (ماك ماهون) أمام مسؤولياته، ملمحا بما يوهم أن

http://www.al-maktabeh.com

هناك تهديدا بقيام ثورة. ولم يقتصر دوره على الإحتجاج والوعيد، بل فتح أهراءه ومخازن حبوبه في قصر مَجَانة، واستَقْبل آلاف الإخوة المتضررين. ولما أنفق مبالغ هائلة من ثروته الكبيرة اقتضته الحاجة إلى الإستدانة من صاحب بنك يهودي يدعى مسرين Mesrine. ولما كان المبلغ المقترض مبلغا باهضا، طلب من الحاكم العام توفير الضمان الذي اشترطه المصرفي، وتأمين الكفالة المطلوبة. ووافق ماك ماهون على الطلب، لكن الالتزام لم يوف به عقب سقوط الإمبراطورية.

إن المقراني الذي أخذ يشعر بأن الوقت قد حان للإنتقال إلى مرحلة العمل وتنفيذ الثورة، اقترض ذلك المبلغ الضخم من المال لا لتمويل صناديقه، مما يبدو عملا مشروعا لدى سيِّد من كبراء القوم معروف بالكرم والسخاء، بل إنما اقترضه أيضا بشكل خاص، لكي ينفقه في شراء الخيل وتوفير الحبوب اللازمة للغذاء، بعد أن تنحسر الكارثة وتدبر السَّنوات العجاف. وقد قام بذلك في وقت لا حق علنا وجهارا، إلى درجة أن أوساط المعمرين، لا سيما المستقرين منهم في ناحية سطيف القريبة من قصر (مجانة)، أشاعوا أن المقراني بصدد الإعداد للثورة.

لم يخطئوا فيما ذهبوا إليه من تخمين، وأشاعوه عنه من شائعات. لكن المقراني لم يكن بالرجل الذي يركب رأسه، وتغويه المغامرة دون أن يحسب لها حسابا، ويهيىء لها سلفا شروطها الضرورية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت قضية الجزائر في صميم المناقشات الدائرة في باريس. وزيادة على نابليون الثالث الذي كان يتابع تطورات الوضع السياسي والإقتصادي بعناية قصوى، تحول نواب البرلمان الفرنسي الذين استنفرهم المعمرون، وأوعزوا إليهم أن الوضعية السائدة في الجزائر مردها إلى " المكاتب العربية " وإلى السياسة التي سلكها القادة العسكريون من جنرالات وعقداء. تحوّل أولئك البرلمانيون إلا قليلا منهم ومن الجماعات اليسارية الصغيرة، إلى مدافعين عن مصالح المعمرين وناطقين باسمهم.

أتيحت لهم فرصة ذهبية لتحقيق أمانيهم. ذلك أن لجنة برئاسة النائب البرلماني (لو هو LeHou) قد اتجهت إلى الجزائر لدراسة الحالة الإقتصادية فيها، واقتراح التدابير اللازمة لتقويمها، مع الحرص على عدم تجاهل وجود المعمرين، ولا وجود "الأهالي"، الذين يطلب منهم -جميعا تقديم العون والمساهمة في تحقيق هدفها، وكان الإحتفاء بالنائب (لو هو) عظيما في أوساط المعمرين، الذين تلقفوه وأغدقوا عليه من ألوان الضيافة والتكريم، ما جعله يتحول إلى محام لهم ومنافح عن مصالحهم.

وانقلب الملف الإقتصادي الذي حمله معه إلى سياسي، وأكدت ليلة الرابع أوت من سنة 1870 انتصار المستعمرين، ذلك أن الهيئة التشريعية قررت أن " النظام المدني يوفر التوفيق بين مصالح الأوروبيين ومصالح الأهالي ". وقد بلغ الحماس لدى المعمرين درجة عالية جعلتهم يحتفلون بالحدث، ويعربون عن فرحتهم الشديدة به.

http://www.al-maktabeh.com

رحبت بذلك الصحف الفرنسية الصادرة بالجزائر، فأصدرت صفحات مزدانة كما فعلت جريدة (صدى وهران L'Echo d'Oran) التي كتبت (واترلو المملكة العربية). بينما كان الأهالي من الجانب الآخر على حافة اليأس الشديد، لا لأنهم كانوا يجدون في نظام المكاتب الأهلية مؤسسة توفر لهم الحماية، بل لأن النظام المدني إذا ما تم إقراره وانتصب في الحكم، فستكون الكلمة الأولى والأخيرة فيه للمعمرين، وسيزداد خطر الإستعمار عمقا واستفحالا. أمعن المقراني في التفكير، وانتهى إلى الرأي بأن النظام العسكري هو نظام السيف، وأنه لذلك نظام مؤقت.

أما الإستعمار أو إسناد الحكم إلى المستوطنين، مع قوانين تمليها فرنسا وتطبق وكأنها في أرض فرنسية، ومع ما يصحب ذلك كله من وسائل هائلة وسلطات لا حدود لها، فإنه سيُثَبِّت دعائم الإستعمار لمدة غير محدودة، وأنه لا ردَّ لذلك إلا بوسيلة واحدة هي حمل السلاح في يوم من الأيام.

شعر الماريشال ماك ماهون بوخزة أصابته في كرامته فقدم استقالته كحاكم عام للجزائر. واقتفى أثره المقراني، لكنه رجع عن استقالته تحت إلحاح من الماريشال الذي وعده، وأقسم له بشرفه أن الأمور ستجري، فيما يخص الجانب الجوهري منها، كما كانت عليه في السابق.

كانت الشؤون الأوروبية في تلك الأيام باعثة على القلق، إذ كان نابوليون الثالث الذي يحن إلى الإنتصارات العسكرية، وما سبق أن حققه سلفه الإمبراطور بونابارت، قد أنشأ منذ عشر

مكتبة المهتدين الإسلامية

سنوات جيشا قويا. كانت تحيط به ثلة من الكتاب الطموحين أمثال إيدموند أبوت Edmond About الذي لم يكن ذا شأن كبير في الكتابة، وبروسبر ميريمي Prosper Merimée الذي جاء إلى القصر، لأنه كان يعرف الامبراطورة في شبابها بإسبانيا، فأعلنوا فيما كانوا يكتبونه عن وشك نشوب حرب ضد ألمانيا.

ونحن نعرف بقية الحوادث، فقد كانت معركة (سدان Sedan) سببا في سقوط الإمبراطورية، ووقع أربعمائة ألف جندي في الأسر، وأودع نابوليون الثالث السجن. وفي الرابع من شهر سبتمبر1870، أعلنت الجمهورية من جديد في فرنسا. وعاد إليها عودة الظافرين أنصار الجمهورية المبعدون، وفي مقدمتهم فيكتور هيجو.

عمت الدهشة أوساط الجزائريين، وكانوا مع ذلك قد أرسلوا عشرين ألفا من أبنائهم لمحاربة الجيش الألماني، قتل منهم النصف في المعارك. كان المقراني مثل سائر رؤساء "الأهالي" يتمنون انتصار الإمبراطور، وهو الأمل الوحيد الذي بقي لهم، بل وكان على استعداد لخوض غمار ثورة، ولكنه لم يفعل، معتقدا عن خطأ أو صواب - تلك مسألة أخرى - أنه لا ينبغي أن يشهر السلاح في وجه فرنسا ما دامت في حرب.

وقد سبق أن قال وكتب إلى الجنرال لالماند Lallemand والجنرال أوجيرون Augerand معلنا أنه لن يثور على فرنسا وهي في حالة حرب، وأنه يوم يقرر حمل السلاح، فسيعلن ذلك

http://www.al-maktabeh.com

مسبقا، ويخبر به كتابة. وهذه من الموجبات والأسباب التي جعلت بعض المؤرخين يكتشفون لديه سمات تتفق والسمات العائلية التي تتصف بها أسرة "مونتمورانسي".

وفي الشرق الجزائري، قام شخص يدعى الطاهر قليبوتي الذي كان على صلة وثيقة بمحي الدّين، نجل الأمير عبد القادر الذي كان مع ناصر بن شهرة (وهو مقاوم آخر في ناحية الأغواط) على الحدود الجزائرية التونسية بالقرب من بلدة (نقرين)، قام بتثوير ناحية سوق أهراس، وأثار الخبر حمى ساخنة في أوساط المعمرين، الذين نسبوا هذه الثورة إلى مبادرة ماكرة من المقراني.

على الرغم من أن هذا الأخير كان غريبا عما قام به قليبوتي من عمل، إلا أنه تلقى الخبر بارتياح شديد وبتعاطف كبير، لأن ما كان يهمه في المقام الأول هو أن يلعلع السلاح في كل مكان.

انطلاقا من هذه الفكرة ضبط خطة عمل مفصلة، فلا بد من القيام في مثل هذا المناخ الإجتماعي المطبوع بطابع النزاعات والإنشقاقات، وتشتت القوى بفعل سياسة "فرق تسد" بمساع توفيقية لإصلاح ذات البين، ومصالحة الإخوة المتعادين، والتقريب بين القبائل المتنازعة المتعادية، وإخماد النزاعات الدينية والمخاصمات المذهبية.

كانت (الطريقة الرحمانية) ذات النفوذ القوي يقودها الشيخ الحداد، الطاعن في السّن، وكان لهذه الطريقة أتباع في البلاد يربو عددهم عن ثلاثمئة ألف شخص. إنها عبارة عن جيش حقيقي يرتدي رداء التقي والورع، وكان لابد من كسب ودها

مكتبة المهتدين الإسلامية

واستمالتها وجلبها إلى القضية، ومـــن أبنـــاء الشـــيخ الحـــداد المشهورين ابنه محمد الذي كان رجل دين، والذي حـــارب إلى جانب بومعزة سنة 1852، ومن أبنائه أيضا (عزيز) الذي كـــان أكثر تحررا وتحللا من الدين، وكان شابا مندفعا يتابع الأحـــداث السياسية في الجزائر وفي فرنسا، فصيح اللسان، يطالع الصـــحف في لغة "فولتير Voltaire" ومتحمسا لفكرة الثورة.

وبفضل هاتين الشخصيتين، اجتمع المقراني بالشيخ الحداد، وتم التصالح والإتفاق والإلتزام بإعلان ثورة في موعد قريب، خـــرج الشيخ الحداد من خلوته محمولا على كتفي ولديـــه، واتجـــه إلى ساحة صدوق حيث دعا بالجهاد في سبيل الله، وحثّ أتباعه على حمل السلاح ومقاتلة الكفار، ولما انتهى من خطابه ألقى بعصـــاه إيذانا بالمعارك، وأمر أتباعه بالإنتشار عبر الســـهول والجبـــال، مقاتلين مجاهدين.

أما المقراني من جهته، فقد جمع مجلس حرب، ورد له شـــارته بوصفه باش آغا، كما رد مبلغ راتبه، وكتب البرقية الآتية الـــتي وجهها إلى السلطات الفرنسية:

" إلى السيد الجنرال أوجيرون.

أشكركم أيها الجنرال على ما قمتم به تجاهي من حسن فعال، ولكني لا أستطيع أن أجيبكم في شيء واحد، وقـــد ســـبق أن قدمت استقالتي للماريشال ماك ماهون الذي رفضها، وإذا مـــا وقفت موقف المنتظر فذلك لسبب واحد لا غير، هو أن فرنســـا كانت في حرب ضد بروسيا، وإني لم أكن أود أن أزيد المتاعب

http://www.al-maktabeh.com

تفاقما، واليوم وقد عاد السلام، أود أن أتمتع بحريتي، ولا يسعني أن أقبل بأن أكون عونا لحكومتكم، ولن أتبادل مع أعوانها إلا طلقات البندقية، وإني لأكتب كذلك إلى النقيب أوليفي Olivier لأخبره بأني أرفض حوالتي المالية، وأن عليه أن يحترس لأني مقبل على محاربته، وليحمل كل منا اليوم بندقيته، الوداع ".

كما بعث برسائل عديدة أيضا إلى رؤساء القبائل والعشائر شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، فأصبح رئيسا للقبائل، وكان لها بمثابة الرأس المدبر واليد الفاعلة، مستندا إلى القوة السياسية الجبارة التي تمنحه اياها الطريقة الرحمانية.

تحولت النار، نار الحرب إلى جمر شديد الإلتهاب والإتِّقَاد، وتعرضت القوات الفرنسية لهجومات مستمرة تأتيها من كل جانب، برج بوعريريج وسطيف، تيزي وزو، الحضنة وبجاية، جبال البابور والبيبان، وادي الصومام وجيجل، الأخضرية وصور الغزلان، وشرشال..الخ...

وقد بلغ من انضمام القبائل الى حركة الثورة، وشموليتها ما جعل نيران الحرب تصل إلى أبواب الجزائر. وبلغ هلع قوات الإحتلال أوجه عندما وصل فرسان المقراني إلى مسافة عشرين كيلومترا من العاصمة، فشكل الجنرال لالماند القائد الأعلى للقوات المسلحة الفرنسية طابورا بفضل نجدات وصلت إليه من فرنسا، على إثر سقوط "سدان "، واتجه به إلى (وادي سوفلات) حيث كان يعسكر المقراني، وكانت المعركة دامية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان المقراني على رأس قواته المرابطة فوق قمة ربوة تشرف على الوادي، و لم يكن بالذي يمكن التعرف عليه لأنه كان مرتديا برنوسا أبيض مثل سائر المقاتلين الآخرين، وإذا برصاصة تصيبه في جبينه، وكان ذلك في 05 مايو 1871. وقد زعم البعض أن الرصاصة أطلقها عليه أحد الخونة من أتباعه، وقال آخرون أنه كان يصلي عندما أصابته الرصاصة، والواقع أنه أمام ذلك التحرك الكبير من القوات الهائلة، وقف في مقدمة الصف ليتولى هو شخصيا قيادة المعركة.

كتم مقتله عدة أيام، ونقل جثمانه سرا عبر الجبال إلى قلعة بني عباس حيث ووري التراب، و لم تنظم له مراسم جنازة تليق بمقامه اللهم إلا صلاة الجنازة، التي أمها إمام رابط الجأش من الطريقة الرحمانية. والشخص الذي نظم الموكب الجنائزي دون دمعة تنهال من عين، أو كلمة يفوه بها لسان، ليس إلا أخوه بومزراق الذي تولى قيادة جيش المقاتلين مكانه .

كان القتال تحت قيادة بومَزْراق الذي كان من قبل متواضعا، خجولا وصموتا، بالغ الشدة والعنف، بالغ السرعة في التحرك، دقيق الإصابة إلى درجة أن العدو الذي كان مزهوا بنصره عند مقتل المقراني، سرعان ما أحس بمرارة القتال، وبالخوف من الهزيمة والإندحار. كان بومزراق في عنفوان اندفاعه، يحدوه عزم على الإنتقام لأخيه، وهو شعور قوي لدى سكان الجبال. لكن كان يحدوه أيضا موقف سياسي أقوى وأعمق من موقف سلفه. وقد برهن على ذلك في المعارك العديدة والطويلة التي خاضها هو

http://www.al-maktabeh.com

شخصيا، يتنقل من جبهة إلى جبهة، ويستحث المقاتلين، ويعاقب المتقاعسين أو العصاة المتمردين، وينسق الهجمات والإقتحامات مع ملازميه، لا سيما مع (عزيز) الذي لا يقل عنه بسالة وإقداما واندفاعا، وخاض في المجموع ثلاثمائة وأربعين معركة.

أما قوات الجنرال لالماند المهاجمة من كل جهة، فقد جمع مجلس حرب، وأصدر أمرا لقادته بتدمير كل شيء، وباستعمال مدافع الميدان، ووضعها في طليعة المواكب العسكرية، وبدك القرى وإحراق الغابات، مستندا في سياسته تلك إلى أمر صدر سنة 1845 باتخاذ تدابير زجرية صارمة، تتمثل في مصادرة أراضي القبائل الثائرة، وارهاقها بالضرائب، وفرض غرامة ثقيلة على كل بندقية يحملها ثائر.

اضطر بومزراق إلى الإنسحاب جنوبا، فتوجه صوب الحدود التونسية، حيث طلب نجدات ومواد غذائية من بوشوشه، الذي كان الحاكم بأمره في ورقلة. لكن زوبعة رملية رهيبة شتتت رجاله وما كان معهم من المواشي والأنعام، وفي الصباح الباكر من يوم 20 يناير 1872، عثرت دورية فرنسية على شخصين ممدودين كانت تحسبهما ميتين، و لم يكن الشخصان غير بومزراق ورفيق له إسباني الأصل، أصر على مرافقته واصطحابه، وقدم الأسيران للجنرال دولاكروا De la Croix، الذي أخبر بومزراق بقرب مثوله أمام القضاء لما اقترفه من جرائم في حق فرنسا، وهو ما رد عليه بومزراق على الفور قائلا: " وستقولون في يوم من

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأيام أنكم قبضتم علي، والحال أنكم فاجأتموني وأنا مستغرق في النوم من شدة التعب والإرهاق ".

مثل بومزراق بالفعل أمام محكمة الجنايات في قسنطينة، وبعد مناقشات ومرافعات طويلة قام بها نائب جاء من فرنسا هو الأستاذ كريفي Grevy. مع ذلك قد بذل جهدا خارقا لاقناع القاضي، وحمله على تخفيف العقوبة، وأبان في ذلك عن مهارة عقد فيها مقارنة مؤثرة، لكنها غير مطابقة لدقة التاريخ، لأن الأمير عبد القادر أُرْسِل إلى فرنسا ليقيم في قلاع محصنة ،بدلا من الإسكندرية التي وعد بها مكانا للإنسحاب إليها والإقامة فيها.

اختتم الأستاذ كريفي مرافعاته قائلا: عندما هزم يوغرطه، أثقله المنتصرون عليه بالسلاسل وقادوه إلى روما، حيث ألقوا به في غياهب سجن رهيبة، مات فيها جوعا بعد ستة أيام من آلام مبرحة.

وبعد عشرين قرنا، استولى الفرنسيون بدورهم على شمال إفريقيا، هُزِم عبد القادر، فاستسلم لفرنسا التي لم تقلد روما في وحشيتها، بل خصت مغلوبها بمكانة جديرة بها وبه.

إني أطالبكم، أيها السادة، بتبرئة ساحته دون قيد أو شرط، وإني أطالب بذلك باسم مباديء الحرية والتسامح، والأريحية.

أنتم أحرار، ولكم مطلق السيادة أيها المحلفون، وسيكون حكمكم حكما لا يقبل النقض أو الإستئناف، يجب أن يكون حكما عادلا. وليكن عملكم بحيث يمكنني بعد أن أعود إلى

http://www.al-maktabeh.com

المجلس الوطني، أن أقول لزملائي: لقد وجدت على أرض الجزائر شعبا عادلا، وأن الجزائر التي عاد إليها السلام والهدوء، لا ترضى بأي تعسف مهما يكن شكله. ومهما تكن الجهة التي يأتي منها، وحتى يمكنني أن أنقل إليهم أخيرا، أن الجزائر كانت وستظل دائما جديرة بالحرية ".

عندما سئل بومزراق عما إذا كان يود استئناف الحكم، رفض العرض، وألقى نظرة فيها كثير من السكينة والطمأنينة على الحاضرين لدى نزوله من قفص الإتهام، وبينما كانت النسوة ينظرن إليه نظرة إعجاب، صاح قائلا: " إنه لا يهمني أن أموت عاجلا أو آجلا، ما دام الموت قضاء محتوما لا مفر منه ".

خُفِضَت عقوبته بالنفي والإبعاد إلى مكان بعيد. وركب الباخرة إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة، رفقة عزيز ومحمد الحداد وخمسمائة وتسع وستين من الجزائريين الآخرين، وبقي في منفاه ذلك حتى سنة 1904، تاريخ عودته إلى الجزائر التي توفي بها بعد سنة من عودته. وقد استُشِيرت السلطات الفرنسية في مدى مناسبة عودته إلى مسقط رأسه، فرفضت رفضا باتا، مُعتبرة إيَّاه رجلا ما يزال خطيرا. وهكذا سمح له بالتوجه إلى ابنه مفتي مدينة (أورليان فيل) (الأصنام، الشلف حاليا) والإقامة عنده.

أي مصير أكثر تأثيرا من مصير هذا الرجل؟

من سخريات القدر، بل ولعله من الأقدار المأساوية والعذبة في آن واحد، أنه جاور في كاليدونيا الجديدة، دون أن يكون على

مكتبة المهتدين الإسلامية

علم بذلك دون شك، دعاة الثـــورة والجمهورية الباريســـيين. وربما التقى في طرق (جزيرة الصنوبر) الملتوية روشفور Rochefort و لويز ميشال Louise michel اللذيْن حكمت عليهما محـــاكم باريس بالنفي والإبعاد مثله. إنه مصير مأساوي ومحتـــوم ذلـــك المصير الذي يجمع بين ثوار ذوي قضايا مختلفة، من بلدان مختلفة ومجتمعات متنوعة، ولكن يُوحِّد بينهم نداء واحد، هـــو نـــداء الحرية في عاصفة سنة هوجاء هي سنة 1871.

– نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة)، ع 100، الجزائر 1988.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

بوعمامة.. من طوماسين إلى ليوتي

من المعروف عن بوعْمَامة أنه أسَّس في (مَغْرَار) بأقاصي الجنوب الوهراني سنة 1876 زاوية قوية بعيدة النفوذ. وكان من إشعاع هذه الطريقة الصوفية أن تسارع الأتباع والمريدون إليها بأعداد كثيرة. وتضاعفت الهدايا والهبات، وانهالت الأرزاق عليها والأموال. وكان بوعمامة قد نذر نفسه للتأمل والزهد والنسك، لكنه دون أن يحصر تأمله ذلك في أبعاده الصوفية. بل كان تفكيره يشمل نظام الحياة وواقع الناس والبلاد، أي جوهر النظام السياسي للبلاد،لينتهي في آخر المطاف إلى طرح مشكلة احتلال القوات الأجنبية للتراب الجزائري. ولما بلغ هذا الطور من التأمل والتفكير، قرّر أن يُنظِّم نفسه، ويُعِدَّ العُدَّة لمحاربة القوات الفرنسية قبل أن يستفحل أمرها، وتحتل الجنوب الجزائري كله.

والذي يسترعي الإنتباه لدى هذا الزعيم الديني، أو الشيخ الناسك بالمصطلح المعروف والشائع حتى اليوم، هو أنه لا يتحدث إلا بالقرآن، ولا يكاد ينطق في أحاديثه واستشهاداته إلا بكلام الله. وهذا الكلام كما هو معروف، لا ينطوي على الحقيقة المُنزّلة المُوحي بها فحسب، بل ينطوي زيادة على ذلك على قوة تجنيدية فائقة. ألم يكن الشاعر الروسي الكبير بوشكين Pouchkine يقول، وهو يقرأ ترجمة لمعاني القرأن: " القرآن؟ يا له من علم فلك بغيض؛ لكن، يا له من شعر رفيع ساحر ".

http://www.al-maktabeh.com

كان بوعمامة قد قرّر سنة 1881 الدخول في حرب مع القوات الفرنسية، بعد أن تُجنى الغِلال وتُجمع المحاصيل, أي في فصل الصيف. لكن حَدث أن قُتل الملازم الفرنسي ويمبرينر Weimbrenner من نادي "جيريفيل" (البَيِّض)، عندما تقدم لإحدى القبائل قصد اعتقال مبعوثي بوعمامة، كان ذلك بتاريخ 22 أبريل من السنة نفسها.

سرعان ما بادر بوعمامة إلى الدعوة لاجتماع مجلس حرب. استنكر الحادثة، ورأى أن اختيار الظرف لخوض غمار الحرب قد فُرض عليه فرضا، بينما كان يودُّ لو أنه كان صاحب المبادرة، بعد أن تتوفر جميع الشروط. هكذا اضْطُرَّ إلى إعلان الحرب، وأُجبر عليها إجبارا، فأعلنها وعلى لسانه شاهد من القرآن الكريم يقول: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهكلة ". فدخل المعركة وهو أشدُّ ما يكون وعيا بأن قراره هذا سابق لأوانه، وأنه مقدم على حرب قاسية. لكنه، وهو المؤمن القوي في إيمانه، كان شديد الثقة في الله.

لا نجد عن حياة بوعمامة من صدى في الجانب الجزائري إلا ما يتداوله الناس من أخبار شفوية عنه. إذ فضلا عن انعدام أيِّ أثر تاريخي مكتوب، فقد يكون لدى هذا الشعب، المُتكَون من البدو الرُّحل الأشاوس في القتال، ميل إلى التَّخفي والتستُّر، ونزوع إلى التكتم. مما يجعل الرسالة تنتقل وتخلد عن طريق الهمس أو الوشوشة المتواطئة والملتزمة .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وحينئذ فإن حجاب السرِّية الذي يلفُّ الكلمة أو يحيط بالفعل, يُؤهِّل المستمع لكي يغدو بصورة من الصور، أفضل موَصِّل للرسالة وأزكى مُبلِّغ لها. وبالمقابل، نجد في وثائق الولاية العامة وتقارير الضباط، كثيرا من التفاصيل التاريخية عن هذا الزاهد الثائر.

تُرْوَى لنا شخصية بوعمامة على طول مدى ملحمته، من خلال عدد من الملح والطرائف الأصيلة. عندما زاره النقيب دو كاستر De Castre الذي كان يحسن العربية ويتكلمها بطلاقة، وقدم عليه في موقعه بـ (مَغْرار) (دائرة عين الصّفْراء،ولاية النعامة) على رأس فوج من "القوم" (جزائريون مجندون في الجيش الفرنسي) ليستطلع أخباره ويسبر نياته ومقاصده باسم السلطات الفرنسية، وعرض عليه مساعدة في شكل أطباء وأدوية وأغذية. كان جواب بوعمامة: " قل لحكومتك أن هؤلاء السكان لا يحتاجون شيئا، وأهم يقنعون بقليل من التمر والماء، ولكنهم ينفرون من الظلم ويستفزهم العدوان ".

وعندما هاجم ورشات جمع محاصيل الحلفاء في الهِضَاب العُليا, بعد دخوله الحرب مع القوات الفرنسية، وجرَّ وراءه في اتجاه الجنوب ثلاثمئة إسبانيا، كانوا يعملون في الورشات المذكورة. استقدم أحدهم إلى خيمته، ثم قال له بعد أن استَفْسَره عن ظروف الأسر والإعتقال: " لو أنكم جئتمونا رجالا مسالمين، لشاطرناكم طعامنا وقاسمناكم خبزنا، لأننا نحترم دينكم كما لنا ديننا، ولقد قال الله في كتابه المبين: "وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا

http://www.al-maktabeh.com

تعتدوا " غير أنه لا يسعُنا وقد اختلطتم بجيوش العـــدوان، إلا أن نقاتلكم، وقد قررت إخلاء سبيلكم. وعليه، فعودوا إلى دياركم في إسبانيا ".

ثم أشركه في طعامه، وناوله جزءا من كِسْـــرَته. إن اقتســـام الرَّغيف مع شخص أجنبي على الرمـــال الســـاخنة المحرقـــة في الصحراء، يعني قسما بعدم إعتداء، بل ومعاهدة للسَّلام والوئام.

وتوجه لرفاقه الذين جمعتهم المناسبة به، فصرَّح يقول: " يجب ألا يُفهم قتالنا في إسبانيا وأوروبا على أنه عداء مزمن ومستحكم بين المسيحية والإسلام، أو بين المسيحيين والمسلمين، بل على أنه كفاح لتحرير الوطن السَّليب واسترداده ".

وماكان من أمر الرعايا الإســـبان الـــذين كـــان المعمـــرون يستخدموهم بثمن بَخْس، إلا أنهم سارعوا بالرحيل إلى إسبانيا، في حركة يسودها الخوف والهلع الشامل. وكان الحدث سببا في قضية دبلوماسية شائكة بين باريس ومدريد.

هكذا، طرح فيرنان نونيز Fernann Nunez سفير إسبانيا بباريس على وزارة الخارجية الفرنسية مسألة التعويضـــات في الصـــيغة الآتية: "إن التقارير الرسمية التي تلقتها الحكومة صاحب الجلالـــة من الأعوان القنصليين الإسبان في الجزائر، تحمل على الإعتقاد أن الأحداث التي جرت في هذا البلد، من الخطورة ما يجعلني أطلب من سعادتكم لفت انتباه حكومة الجمهورية إليها.

فمنذ أيام قليلة، كان آلاف الإسبان مستقرين في مقاطعـــة (سَعَيْدة) تحت حماية دولة قوية مثل فرنسا، وفي ظل لوائـــــها.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولم يبق الآن من أسرهم وممتلكاتهم وعملهم إلا الخراب الشنيع والموت والإهانة والتعاسة. إن حكومة ملكي المعظم لتعرف كل المعرفة ما تكنّه لها حكومة الجمهورية من مشاعر نبيلة، لما يربطهما من صداقة خالصة. لكن على الرغم من ذلك، ترى من واجبها أن تطالب وبحزم شديد، باتخاذ تدابير فعالة لتقديم يد العون والمساعدة إلى ضحايا إعتداءات بوعمامة الفظيعة. وأرجو، سيدي الوزير، أن تجري السلطات الفرنسية تحقيقا للكشف عن أسباب الجرائم المرتكبة وتحديد مداها، وأن تستمع في إجرائها ذلك إلى رأي الأعوان القنصليين الإسبان في الجزائر.

وإني على يقين أن الحكومة الفرنسية ستقدم تعويضات لأبناء وطني، وتكفل لهم ضمانات الأمن والسلامة في المستقبل، حتى يمكنهم البقاء في البلد، والتمتع بالراحة التامة والطمأنينة الكاملة".ولما لم يكن الردُّ الفرنسي مُرْضيا لإسبانيا، ولا مُقنعا إيّاها، فقد أجابتها على لسان رئيس دبلوماسيتها بما يأتي: " يبدو أن تصريحات السيد وزير الشؤون الخارجية قد حلت القضية المقصودة حلا نهائيا. وليست تصريحاته بالتي تُرْضيني.

إننا لم نطلب لمواطنينا الذين أُهِينوا إهانة دنيئة في أشخاصهم وأموالهم معونة، كالمعونة التي تُبْذل للفقراء من الناس, إنما نطلب تعويضا عادلا مثل التعويض الذي منحته فرنسا في أعقاب حصار باريس، أو الذي تلقاه بعض الأجانب في إسبانيا، بعد حوادث قرطاجنة" (1).

1- بعض نتائج الثورة الجزائرية سنة 1881 في إسبانيا .خوان بوتيستا فيلار Juan Bautista Villar.

http://www.al-maktabeh.com

وأمام كل هذه الضجات والإضطرابات والإرتيابـــات مـــن مغامرة السلاح، قرّر الحاكم العام في الجزائر أن يتفاوض سرّا مع بوعمامة. فانتدب الجنرال طوماسين Thomassin مفاوضا ماهرا في شخص"بوحفص"، لكي يتفاوض مع بوعمامة على وقف القتال بواسطة شريف الوزاني. لكن بوعمامة رفض كل شـــكل مـــن أشكال التعامل والتصالح، وصرح قائلا: " إذا أراد الفرنســيون السلام، فما عليهم إلا أن يغادروا هذه الأرض التي ليست لهم ". وعندما جرى التلميح إلى نجل بوعمامة الذي كانـــت تحتجـــزه السلطات الفرنسية، وقيل له: إنه يمكن إعدامه في حالـــة مـــا إذا رفض التفاوض، كان جوابه: " فليقتلوه إن شاءوا، ولن يكـــون دمه المَسْفوح بالذي يُثبِّط من عـــزيمتي، أو يُـــوهن إرادتي. بـــل سيكون حافزا آخر على مواصلة الكفاح ورفع رايـــة الشَّـــرف عاليــــــا".

كان الجنرال طوماسين ذاته قد استطاع، بواسطة (بـــوحفص) نفسه، أن يعقد إتفاقا مع قائد ثائر آخر هو سي قدور بن حمزة، الذي انسحب هو أيضا إلى الحدود الجزائرية المغربية. لكن هـــذا العدو الخطير للفرنسيين، الذي كان بوعمامة يلتمس وقوفـــه إلى جانبه، قد أوقف القتال بالفعل، إلا أنه امتنع عن قبول أية منافع يخوّلها له الإتفاق. على أنه لم يبارح قط معسكره، بل ظل مرابطا فيه، يعيش مع رجاله عيشة تقشف وزهد، مستديما جو الحـــرب تحت مظاهر وهمية من السلام.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولما طاردته قوات الإحتلال بوسائل حربية هائلة، وطاف بكثير من القُصُور (جمع قصر، قرية صحراوية) في الجنوب، ورأى الديار مهدمة وسط حدائق مخربة، وأطفالا ونساء مشردين ،هم كل من أبقت عليهم المدافع والبنادق، عقد مجلسا آخر من مجالس الحرب. وقرّر مع ضباطه جر هؤلاء المدنيين الناجين من الموت، الجرحى منهم والمرضى، إلى أقصى الجنوب لانتزاعهم من مخالب الموت والمجاعة، وصرح قائلا: "واليوم وقد دمر العدو كل شيء، فإن الواجب يفرض علينا ألا نتخلى عن الذين واللواتي بذلوا لنا كل شيء، ودفعوا الآن ثمن إخلاصهم وتفانيهم".

لقد أصغى بوعمامة إلى مشاعره وأحاسيسه، وأرضى ضميره ولو أدَّى ذلك إلى إبطاء مسيرته، ونشوء أعباء جديدة وهموم مضاعفة. وهكذا تغلبت الحاسة الدينية على الإستراتيجية العسكرية.

انسحب بوعمامة في سنة 1882 إلى الجنوب, لتجديد قواه والإستعداد لخوض معارك جديدة. ولن نتحدث هنا عن معركة تازينه Tazina حيث هُزم الكولونيل اينوسونتي Innocenti، ولا عن غاراته العسكرية المفاجئة الأخرى، ولا حتى عن تفاصيل الكفاح الذي خاضه بوعمامة.

فهذا الكفاح كان من طول المدة والضراوة على مدى ربع قرن، ما آثار له أصداء سياسية هامة ملأت أرجاء أوروبا، وصار حديث الخاص والعام، وشغل بال الحكومات كما سبق أن رأيناه وسنراه بعد حين. فهناك قادة عسكريون أمثال أوسمونت Osmout وسيريز Cerez قد أقيلوا من مهامهم بتهمة التهاون والتقصير.

http://www.al-maktabeh.com

وأخَّر بكفاحه ذلك موعد احتلال الجنوب الوهراني بعشـــرين سنة. وسنرى أنه كان يشنُّ غارات في مطلع القـــرن، بأقصــى الجنوب الوهراني، خلف الجبال الصحراوية في عَين الصَّــفْراء (1) إلى درجة أنه أزعج حكومة باريس والســيد جونـــار Jonnart الحاكم العام في الجزائر. واختِير له خصم منــاوئ ذو شـــأن في شخص الجنرال لِيُوتي (1854- 1934)، الذي استقدمه جونـــار إلى الجزائر. تماما كما سبق أن اختِير من قبل خصم، آخر للأمير عبد القادر في شخص الجنرال بيجو Bugeaud (1779 - 1845).

كان هذا الضابط الألْزَاسي المنشأ، وخريج المدرسة العسكرية (سان سير Saint Syr) قد مارس السلاح في (طونكـــان Toukin) وبمدغشقر تحت قيادة الجنرال غالييني Gallieni. هذا الجنرال الذي أقال الملكة "رانا فولنا " الثالثة في أنتناناريفو (عاصمة مدغشـــقر) وأعلن الحماية على الجزيرة. وان شعار ليوتي هو: "فرحة النفس في العمل والنشاط". وقد نقش هذا الشعار على خاتمه (2)، وكان جده قائدا عسكريا (جنرال) شارك في الحرب مع نابليون.

1- "عاصمة صغيرة للقطاع الوهراني ذات طابع صحراوي, فريدة وحيـــدة في واديها الرملي بين ضخامة الهضاب العليا الرتيبة وسعير الجنوب المحـــرق, صــــحراوية جدا, وغفية مسترخية للغاية, بقصرها الأصهب في سفح كثيب ذهبي اللون، وبقبابها المقدسة وحدائقها المائلة إلى الزرقة.. وحتى تجاوزت آخر أشجارها مـــن الحـــور والصفصاف, فإن دربا مليا ينتهي بك فجأة إلى سفوح كثبان تختلف كل الإختلاف عن الخلفية الزرقاء اللون والعابسة التي تمثلـــها الجبـــال (إيـــــزابيل أيبرهـــاردت Isabelle Eberhardt).

2 - ليوتي: رسالة إلى أخته.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لم يكن ليوتي رجل عمل ونشاط فحسب، بل كان دبلوماسيا محنّكا أيضا. وقد أفلح في مدغشقر فاستطاع إخضاع رئيس القبائل المحلية (رابزافانا Rabezavana) المقاوم الرهيب، الذي سلبته طوابير ليوتي كل ما يملك من مواشي واحتياطات غذائية، لكي تفرض عليه السلام فرضا.

فقد كان القائد الثائر العجوز عنيدا وصعب المراس في آن واحد. وكاد الحاكم العام جونار أثناء زيارة تفقدية له في الجنوب سنة 1903، أن يقع في أيدي رجال بوعمامة فيختطفونه أثناء معركة (مجاز زناقه) الجبلية قرب الحدود المغربية.وهي معركة تمّ خلالها الإستيلاء على قافلة تموين، وقتل خمسة وعشرين مرافقا لها.

كان ليوتي يتّبِع سياسة ذات وجهين: سياسة القبضة القوية التي طالب بها، ونال من الحكومة الفرنسية الإعتراف به سيِّدا مطلق السيادة على مقاطعة عين الصفراء، يخضع لأوامره "جميع المصالح العسكرية وكافة المصالح السياسية، ويخضع له كل شيء بما في ذلك ضباط الإستخبارات ".

وتتمثّل السياسة الأخرى بالنسبة إليه في القيام بمبادرات تهدئة, وعمليات إغراء ومهادنة في اتجاه ذوي النفوذ من رؤساء القبائل والعشائر، وذلك حتى يحرم بوعمامة من كل دعم أو تعزيزات عسكرية.

وهكذا قام بزيارة لإحدى أكبر عائلات أولاد سيدي الشيخ (قبيلة كبيرة بالجنوب الغربي للجزائر)، وهي من الفروع التي تلتقي بالنسب مع أبي عمامة.كتب قائلا:

http://www.al-maktabeh.com

" نحن هنا نقوم بعمل لا هوادة، وفي صـــميم فرومانتـــان(1) Fromentin وديكامب (2) Descamps وغيـــومي(3) Guillaumet. فقد حافظ الإقطاع العربي هنا على أبهته وسلامته. لم أكن أظن أن هذا النظام مايزال قائما ومحافظا على مثل هذا الـــنمط مـــن الحياة ومن الصبغة والطبيعة.. إنني هنا عند أكبر سادة الجزائـــر كلها، وربما إفريقيا كلها. وأعني بهم أولاد ســـيدي الشـــيخ، وسأعمل على أن أكون مثلهم، مما يشكل دون ريب أحســـن وسيلة للسيطرة عليهم والإستحواذ عليهم ،وهو ما لا يفهمـــه كثير من الناس هنا وحتى العسكريون منهم ".

ثم رسم لوحة لليل: " القمر ساطع، وأشجار النخيل تعكس لونا فضيا، والظلال الشديدة الممتدة من ديار الطوب الأحمـــر، والقبة الناصعة البياض، والنيران التي تشوي عليها الخراف وسط حلقة مستـــديرة من ذوي اللحي الذين يتفكهـــون ويمزحون،

---

1 – أوجين فرومنتان: (1820- 1876) رسّام وروائي فرنسي، أبـــدع في وصف الحياة الشرقية والإفريقية الصحراوية .

2 – ألكسندر ديكومب Alexandre Descamps :1803-1860 فنـــان فرنسي من أشهر الرسّامين المستشرقين الرومانسيين.

3- غوستاف غيومي: 1840 – 1887 رسام فرنسي انطباعي، قام بزيارات عدة إلى المغرب العربي،ومنه منطقة بوسعادة، بحثا عن الإلهام والأصالة . انشغل خاصة بالمناظر والحياة اليومية لسكان الواحات بالصحراء الجزائرية. كما عبّـــر عن ذلك أيضا بالكتابة من خلال مؤلفه (لوحات جزائرية).

مكتبة المهتدين الإسلامية

وشخصان عربيان يصليان، وجنودنا من السَّباهين ذوي اللـــون الأرجواني يمرون، غادين رائحين، وأصوات المزامير والـــدفوف تنبعث من بعيد، وواجهة الجبال التي تسد الأفق بظلالها المديـــدة واللطيفة، إنه المشهد الأخاذ والفتنة الكبرى." (1)

كان بوعمامة قد أقام معسكره شمال الحدود الجزائرية المغربية، فأراد ليوتي أن يستخدم "حق المطاردة" الذي منحه إياه معاهـــدة 1845 التي أبرمها مع المغرب. وازداد هذا الوضع الجديد خطورة بفعل ما حصل في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى (منطقـــة وجدة) من ثورة القبائل والعشائر على السلطان عبـــد العزيـــز، الذي كانت تعتبره مفتونا بالحضارة الغربية التي أفسدته، وتتهمه بالطيش والترق وسط مستشارين بريطانيين، واختارت رئيسا لها شخصا يسمى "بوحماره" ويلقب بالروغي. وقد تراســـل هـــذا الأخير مع بوعمامه لمقاومة الاحتلال الأجنبي.

أرسل ليوتي سَرِيَّة استطلاعية بقيادة رئيس أركانه الرائد لنريس lenrys الذي أنشأ مركز مراقبة "برأس العَيْن" في(برقنتBerguent) وهو موقع ماء هام تتوفر فيه الشـــروط العســـكرية والسياســـية اللازمة لتغطية الجنوب.

1- لـــيوتي: رسائل من الجنوب الوهراني 1903.

http://www.al-maktabeh.com

وأثارت هذه القضية ضجة كبرى. وأخبرت المفوضية الفرنسية في طنجة (المغرب) بذلك وزير الشؤون الخارجية، الذي تأثر بها أيَّما تأثر. وأصدر مجلس الوزراء الذي انعقد بباريس أمرا إلى ليوتي بإخلاء المركز، لكن هذا الأخير ردَّ على الأمر الصادر إليه في برقية عاجلة هذا نصها:

" فرع عين الصفراء العسكري إلى وزير الحرب..

إن وجود فريق المراقبة في رأس العين، هو وحده الكفيل بكبح قبائل كانت من قبل تشارك بوعمامة أهدافه... إن العشائر المنضمة إلينا كلية لتطلب منا بإلحاح أن نستمر في حمايتها، وألا نتخلّى عنها، فتتعرض لأعمال بوعمامة الإنتقامية. وقد التزمت بذلك التزاما قاطعا، لأني لا أعتقد إمكان هذا التخلي.

ونظرا للمواقع التي يحتلها بوعمامة ورجاله الألف المسلحون ببنادق في التراب المغربي، لكن لتهديد حدودنا، فإن رأس العين هو الموقع الوحيد الذي يمكن أن نضع فيه فريقا من المراقبين. علما بأنه لا يوجد أي موقع ماء آخر في الأماكن المجاورة. وأي تخل في الوقت الراهن، لا يمكن أن يفسره السكان إلا بفرار منا أمام الطامع في الملك وبوعمامة.

ومهما يكن الموقع الذي نسحب إليه طابورنا، فإن الإجراء ستترتب عليه كارثة حقيقية، وانعكاس سيء على كافة جبهاتنا الحربية حتى منطقة (فيغيغ وعين الشعير)، وسيؤدي إلى ارتداد جميع القبائل المترددة التي كسبناها بعد عناء كبير منذ ستة أشهر. لذلك فإن البقاء مؤقتا في (رأس العين) يسهل تبريره وتعليله بما يأتي :

مكتبة المهتدين الإسلامية

- أولا: الضرورة القصوى لحماية الحدود الجزائرية، نتيجة للمواقع الجديدة التي يحتلها بوعمامة، والدعم الذي يجده لدى الطامع في الملك.

- ثانيا: ضرورة حماية قبائل (حميان) المستقرة حاليا في الشط الغربي منهما.

"إن هذا التراجع المخالف لكل التزاماتنا التي التزمنا بها إزاء السكان، الذين سيتعرضون لأعمال انتقامية فورية سيقضي قضاء مبرما على نفوذنا، وعلى صدقنا أو مصداقيتنا، وسيفقدنا كل انتفاع من الوضعية المكتسبة منذ عشرة أشهر. وإني أناشدكم بأعمق القناعة، وأخطر الشعور بمسؤوليتي على أمن الجنوب الوهراني، تلك المسؤولية التي أسندتها الحكومة إليّ، أن ترفعوا إلى الحكومة هذه الملاحظات، التي قد تخفى على من لا يكون حاضرا في عين المكان، وأطلب منها تأجيل التنفيذ على الأقل حتى يصلكم تقرير مفصل، وحتى تتضح الحالة، وتتبين جلية الوضع المحلي الناشئ من التقاء الطامع في الملك وبوعمامة . ولا يفهم منا أننا نفرّ منهما ونتخلّى عن السكان فيتعرضون لثأرهما.

ولما كنت قد التزمت شخصيا إزاء السكان باسم فرنسا. وهو أننا لن نتخلى عنهم أبدا، وأننا سنحميهم، واستطعتُ بذلك أن أحملهم على التجمع حولنا والتمتع بالأمن، والعودة إلى مباشرة أعمالهم وتنقلاتهم التي لم يعرفوها منذ سبعة أعوام، فإني لا أستطيع أن أباشر بنفسي تنفيذ هذا الإجراء دون الإخلال بالشرف وما تعهدت به. وإذا ما تمسكتم بتنفيذه، فلن يسعني إلا

http://www.al-maktabeh.com

أن أطلب بكل احترام إحالتي فورا على الإيداع حتى أكون وحدي موضع الإتِّهام من السكان، وحتى يدرك هؤلاء السكان أنني أنا وحدي، الذي ألزمت الحكومة الفرنسية دون حق، وحتى يتجه أصبع الإتهام بنكث العهد إلي بمفردي، لا إلى حكومة الجمهورية، فيما إذا علموا تنصُّلِي وعدم وفائي.

وإني أؤكد متعهدا بشرفي في الختام، أن الوضعية المكتسبة منذ ستة أشهر، دونما استعمال قوة أو إراقة قطرة دم فرنسي، ستتعرض للخطر على الفور. وإني لأتمنى بكل تقدير واحترام أن أدعى إلى باريس، إذا أمكن ذلك، لأقيم الدليل على ما أقول، ولأثبت أن مصلحة فرنسا وشرفها يقتضيان تأجيل تنفيذ هذا الإجراء،الذي من المؤكد أن بعده المحلي قد خفي على المدارك". (1)

ولما طالت المساومات والمؤامرات والمناقشات المحمومة، وجد الدبلوماسي ليوتي الحل المناسب في رأيه فاقترحه على حكومته. "التفاهم مع السلطان، وإضافة تشكيلة مغربية إلى القوات التي احتلت موقع رأس العين. وهو حل قد يوفق بين الحفاظ على كرامة الحكومة المغربية وعلى أمن السكان". (2)

1- ليوتي: بقلم " أندري مورروا André Maurois.

2- نفس المصدر.

مكتبة المهتدين الإسلامية

هكذا كافح بوعمامة مدة ثمانية وعشرين سنة، حتى وافته المنية في "العيون" (قريبا من وجدة) بالمغرب سنة 1908. أما ليوتي، الذي اجتمعت له تجارب وخبرات في طونكان ومدغشقر والجزائر، فقد أرسل إلى المغرب لتحضير عملية طرد الإنجليز منه، وبسط النفوذ الفرنسي فيه.

إنه هو الذي كان يراقب الحدود من مركز القيادة في وهران قبل أن يتوجه لاحتلال وجدة، حيث كان ينتظره جنبا إلى جنب،كل من بوعمامة والروغي. وهو الذي كان السبب في رحيل السلطان عبد العزيز، الذي كان يعد لينا مفرطا في اللّين ومحبا للإنجليز، وفي تعويضه بأخيه عبد الحفيظ "المتعصب دينيا " دون شك، لكنه الأكثر مصداقية.

لكن هذا الجنرال الكبير، ترك لنا في "رسائله من الجنوب الوهراني" انطباعاته عن بوعمامة: " مايزال بوعمامة هو العقبة الكبرى، وتتجه جهودي كلها إلى عزله ومحاصرته، ووضعه تحت رحمتنا. فهل أفلح في ذلك كله ؟ ولما أخفقنا في القبض عليه مدة إثنتي وعشرين سنة، فإني لا أزعم إمكان القضاء عليه خلال ستة أشهر. [1] ثم هذا التصريح الآتي [2]:

1- ليوتي: رسائل من الجنوب الوهراني.

2- نفس المصدر.

http://www.al-maktabeh.com

" عين الصفراء، 14 نوفمبر 1903.

يبدو أن بوعمامة، هو الذي يجب أن نعزو إليه جميع همومنا، وما نعانيه دائما من مضايقات، فموقفه موقف واضح العداء منذ مدة طويلة. إننا واجدون أثره في كل مكان: في (حارة تاغيت) وفي قضية (المنقار) وحتى في (الجيوش) الذين يضايقوننا في (عين الصفراء). ويرى أنصارنا جميعا أنه هو العدو الألد، وأن الزوابع والفتن والإضطرابات هو الذي يقف وراءها،وهو الذي يجب أن نقضي عليه ونتخلص منه.

وتتجه رغبتي في القيام قريبا بمهاجمته، وانتهاز أول فرصة لإطلاق كل رجال "القوم" المتوافرين في "حميان" و"الترافيس" و"عمور" مدعومين من الخلف ببعض مجموعات من القوات النظامية الباقية في ترابنا غير المنازع فيه، قصد القبض عليه، وهو ما لم أعد متيقنا من إمكان تحقيقه، أو تشتيت زاويته تشتيتا كليا على الأقل ".

وبعد انقضاء أربعة أشهر، كتب ليوتي يقول:

"يجب ألا يغرب عن البال، لاسيما وأن هناك بوعمامة، العدو الدائم ومنطلق كل الإعتداءات. إنه عقدة القضية، وللتخلص منه يجب أن تتجه جميع جهودي. وإذا ما سقط هو، سقطت معه تقريبا جميع المتاعب التي نعانيها على حدودنا في الجنوب الوهراني.

إن غاية الغايات، هي أن نسعى إلى فصل العناصر التي تدور حول المشاغب، وتدمير نفوذه الروحي والمعنوي، وذلك بتوفير

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأمن المادي والحماية الفعّالة، للذين نكفلهما في المستقبل للذين يقصدوننا ويركنون إلينا، وخلق المشاكل لاتباعه وأنصاره، عن طريق محاولة بعث تأثيرات طرقية أخرى تعارض طريقته ".

وقد ذهب بعض المراقبين الفرنسيين في ذلك العهد، من بين الضباط السامين إلى حدٍّ الافتراض، أن فكرة بوعمامة مستمدة من حركة (الإمام المهدي) في القاهرة. ولم يكن ذلك منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلا جهل للحقائق وواقع الأمور. فالشرق الأوسط الذي كان يتخبط في اضطرابات سياسية بإيعاز بارع من الباب العالي، كان يجهل المغرب العربي ومشاكله. إنما كان عمل بوعمامة يندرج في انتفاضة وطنية أساسها الدفاع عن الأرض وحماية العقيدة. وكان الأول الذي أوعز بذلك هو الأمير عبد القادر.

لقد كتب الجنرال ب. ج. أندري P.J.Andre من أكاديمية العلوم الكولونيالية، يقول في كتابه (مساهمة في دراسة الطرق الصوفية الإسلامية): "إن مثال بوعمامة ليُبيِّن مدى قدرة شخصية القائد على التأثير في القبائل، وجرِّها والحَيْد بها عن الجادة المتبعة عادة ".

تلك كانت قصة بوعمامة، التي ألممنا بها إلماما خفيفا، تركز على النقاط البارزة من حيثياته التي تحدّد في آن واحد، ثبات مشاعره وأحاسيسه، والقلق والاضطراب اللذين أثارهما عمله ونشاطه. ومهما تكن المصائب والبلايا التي حاقت به في غمرة

http://www.al-maktabeh.com

كفاح، لم يكن متكافئا بطبيعة الأمر، فإن الدّعامة الصوفية الـــتي استند إليها عمله، كانت المصدر الأول من مصادر طاقته.

تلك الطاقة التي عرف كيف ينقلها إلى رجالـــه، وإلى البـــدو الذين اعتادوا الإكتفاء في كل مكان وزمان بمـــا يقـــيم الأود، والقناعة بما يسد الرمق، ولكنهم لا يرضون بحال من الأحوال أن يحرموا من الحرية.

لئن كان بوعمامة شخصية أسطورية, فإنه كان أيضا مقاوما عنيدا ومكافحا صنديدا، يرتدي برنوسه الصوفي، ويحتزم جزمته كفارس من فرسان الصحراء المغاوير. تلك الصحراء التي هام بها، ودافع عنها حتى آخر أيامه، والتي طالما اتخذها موطنـــا للتأمـــل يفحص نجوم السماء، وكأن حياته لا يمكن إلا أن تكون قَـــدَرا مشتركا بين الصلاة والقتال، بين صمت الجنـــوب وســـكونه، وهدير البارود ورنينه.

--- نشرت هذه المقالة بمجلة (الـــمسار الـــمغربي) ع 6، الجزائر 1988 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

محمد بلخير
شاعر الهوى والوغى

« كانت لغته عربية وشعره صافيا وكفاحه مثاليا. »

عبد الحميد بن باديس

« بلخير المتغني بالشجاعة البدوية والحب الخالد، يقترح علينا من خلال الأشكال الصافية النقية رسالة الغـد والأبـد.»

جـاك بـيرك

«لا أحد من شعراء هذه المنطقة،من الجنوب الوهراني،لديه شهرة سيدي بلخير،مُنْشِد انتفاضة أولاد سيدي الشيخ.»

إيـميل درمنغهام

إن الحديث عن محمد بلخير يعني الحديث عن المقاومة والثقافة الشعبية في آن واحد. وإن كلمة "مقاومةّ " لتحمل وحدها مـن الصدى والرّنين ما نجده في نهاية مطاف العنف، قـد تحـول إلى بسمة الحرية. وإن كلمة " ثقافة " لتحمل من الإشارات والدلائل الموحية، ومن السمو والتواضع والإنفتاح والعمق ما يرفع الإنسان إلى مستوى حقيقي من السُّمو يستوفي فيه كمال وجوده.

إن محمد بلخير صـاحب القلـب المشـحون بالأحاسـيس والإنفعالات، وروح تنافح عن المبادئ وتحميها، ليمثل شخصية جذابة. إنه ـ وهو شاعر الحب والحرب، ومنشد الهوى والـوغى ـ

http://www.al-maktabeh.com

يتناول في شعره المواضيع المتداولة في الشعر العربي الفصيح: الحب والصَّبابة، الفرس والفروسية، الكرم والجود، الشجاعة والبطولة، القتال والإسْتِبسال، والتوسُّل والرَّجاء.لذلك كان من النـــادر أن نرى شاعرا يستعمل بمثل هذه المهارة لغة القلب ولغة الحرب.

الشعر كله وفي آن واحد، صبابة وحب، رجولة وفحولة، متعة ولذة. وكلماته منتقاة من اللغة الشعبية، لكنها محبوكة على نحـــو يكفي معه أن نطبق قواعد النحو والصرف، لكي نجعل منها شعرا عربيا فصيحا. فليس هناك أية ركاكة لفظية أو ابتـــذال، ولا أي هزل مألوف. يقتبس الشاعر صور وصف الحبيبة من الطبيعة التي تحيط به، مثل ضوء القمر، الغزال أو الـــريم والنعـــام ومـــا إلى ذلك،تماما كما كان الشعراء العرب قبل الإسلام يتغزلون بالظبي ويتغنون بالناقة :

تتمثل في الخطا الاقمري شارب
يتمشى حواس ما عابوه اسهام
فوق اجريدي تشد بحزام مذهب
جربي مرقوم سومته باميا يتقام
والعشوة فايت الهلال إلي راقب
والنور اللماح يفجي كل إظلام
واكحال الدور ريش من وصف المنكب
دواوه خيل في جلايب رف إنعام

مكتبة المهتدين الإسلامية

واكحال العين جاء موالم كل ذهب
ازويجة صافية وطابعها تسقـــام
والابرق على شفر برج لولب
من جاء نيشان يقسموه بروح اسهام
سبحان الحي ما مصور في الحاجب
نونات املاح في جرايد طرف أزمام

ها هو ذا، بعد وصفه مشية المرأة في دلال وغـــنج ورشـــاقة، يعمد إلى وصف حبيبته وصفا مفصلا دقيقا، والملاحظ أن العين تحتل في مجال بلخير حيزا غالبا. فلنلاحظ هذا البيت مثلا :

وعيونك كابوسين في حكومة باي اسطمبول

يبرز بلخير هنا جانبا من جوانب الحياة الإجتماعية والسياسية في الجزائر. إنه الرُّعب الذي توحي به اسطنبول، ومن وراء جمال العَين يرتسم تعبير النظرة: نظرة جذلى أو غاضبة، عابرة أو فاترة، حائرة أو هادئة:

عينيك بومشطة ومولاها قياس ما يطلق حتى صحيـــحة
خدك ورد منين فتح في الاغراس بين أسواقي كي اتروحي
أسنانك ياقوت على الجوهر بقاص تسليمه بأميات لقحـــه

من النادر جدا أن يتحدث الشاعر عن القبلات. وهو مستعد لبذل أي رجل يلتقيه مئة ناقة، بعد أن يحصل على قبلة يرتشفها من ثغر حبيبته. ولا يعد بذل مئة ناقة مكافأة، إنما هو تعبير عـــن

http://www.al-maktabeh.com

فرحة وسعادة يجدهما بعد أن رضيت حبيبته بأن يضع شفتيه على مبسمها، ولا شك أن إدراكه لمدى صعوبة الحصول على هذه الحظوة،هو الذي ألهم خياله هذه الرغبة أو النية بنذر مثل هذا النذر الكبير، احتفاء بما ناله من عظيم الحظوة والقُرْبى، فهو إذن قربان على مذبح الحب :

ارجـــلها والـــمشطا   ابحال ريم الـــوطا
الأجدر زين النظـــــة   وطابعينـــه خطوط
واسلاسلها لـــقطـــة   ابحـــال فرق القطا
حطـــة تتبع حطـــة   اغزال بين الحيـــوط

بعد أن يستنفد الكثير من أساليب التعبير الرقيـــق والأنيـــق، ويحتفل بغرامه، موردا لذلك عبارات لطيفة ظريفة، وكثيرا مـــن المدح والإطراء لا يكاد القارىء أو المستمع يَتبيَّنه لفرط خفائـــه ولطافته، ها هو ذا يعترف بأنه قصير الباع في البلاغة والفصاحة، ويعقد لواء الزعامة في ذلك للشاعر العربي القديم امرئ القَيْس:

أمجرح قلبي بلا تمظـــام اماس   اليهـــا طار بغير جنحا
صار لي ما صار لامرؤ القيس   من عهد ما كان فصحه

وهو أيضا كما يبدو لي، اعتراف غير مباشر بقلة باعه في فنون الثقافة، فهو الذي ما فتح كتابا قط، وما تـــردَّد في حياتـــه إلى مدرسة، وما كان له في يوم من الأيام معلم أو أستاذ. لذلك كان التنويه بامرىء القيس على أنه أبلغ وأشعر شعراء الحب والغرام،

مكتبة المهتدين الإسلامية

دليلا على مدى ما يعتلج في قرارة نفسه من ثقافة شعبية، في حضنها يسخو القلب ويجود، وفي رحابها تشتد مطالب الروح وتسود.

ومن هنا، يأتي ما نراه، من تمسكه الشديد بمقومات الشجاعة،وفضائل الشهامة والبطولة، لأنه لا مكان للحب في نظر بلخير ما لم يكن المرء جديرا به وأهلا له. فمن حق المحبوبة أن تشترط في الحبيب واجب الحرص على حسن الصِّيت والسُّمعة، والمقدرة على الترال وعُلُوِ الهِمة، وإنها لمجموعة مفاهيم تلقنها الحياة البدوية للفرد والجماعة على السَّواء، يعبر عنها الشاعر لأنه يتقمَّص صورة الرَّجُل الذي أورده كمثال ونموذج، لكن في حدود التواضع دائما:

الماشي يمشي مع أولاد الثناي
يتولاو مشارب الجعب
لا تبغيني كان ما اظهر شي اشناي
من يشكر روحه الا اكذب
اللي قال أنا رجيل يغزى امعاي
يعرف خوك اسطا والا اهرب

سنرى كيف يشرك الشاعر جواده في شجاعته وبسالته،وهو الذي يحب الجياد والخيل، ويشغف بها أيما شغف.

http://www.al-maktabeh.com

فوق من هذا الغاشي حساب اكثير
قاع كانت في يد اشياخنا تهدي
يوم في القارة القشوى اهار اكبير
كاملين ثلث ضربات في عودي
كامل الخصلة يجري بلا شبير
ثاقل بالاجراح باليمنى يردي
ضرب نطح من الرقبة الى حد الدير
ما اكذبتش كل اهار يا شهودي
كي تتسمى لي هربة انعود انسير
في حرم زينين الخيل ميعادي

عندما انسحب بلخير مع رفاقه، بعد معارك عديدة، الى المملكة المغربية، واستقر في تافيلالت (مدينة بالجنوب)، لم ينقطع عن قول الشعر والتغني به،لكن موضوع قصائده هذه المرحلة تمحورت حول الكفاح والاستنفار للحرب. وقد احتل الحصان فيها مكانة مرموقة لا يدانيه فيها إلا البندقية.

وما أن يرسم خياله لوحة لجواد أو بالأحرى لجياد، أي لحركة موكب خيل جامحة مطلقة العنان، حتى يمزجها برائحة البارود. وفي تلك اللحظات والمواقف يغدو الشاعر فنانا بارع الريشة، وشعره لوحة فنية جذابة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

فلنقرأ هذا المقطع الذي يحلم فيه، وهو في مدينة تافيلالت، بجبل "كْسَال" (قرب البيِّض) حيث ولد وترعرع، وحيث جاهد وكافح :

واش يجيب اجبل اكسال للفلالي
بكري كان يجيني طير حر يحوم
في ذاك المضرب ضاري انمرق خيلي
ويستنى عودي حتى اتجيه القوم
هذي تحريكة تغدى وذيك اتوالي
ومن درك العلفة بارودها كمكوم
يطلع في راسي حمان به انشالي
ويلعب عودي لعب ازفافني ملطوم

إذا استثنينا الشاعر عنترة بن شدَّاد، نجد أن الشاعر الجزائري الوحيد الذي ترك لنا وصفا للفرس، بلغ فيه مثل هذا المستوى الرفيع، لكن في لغة مهذبة صقيلة، هو دون شك، المجاهد المغوار والشاعر الفحل الأمير عبد القادر، إلى درجة أن الجنرال أوجين دوما Eugène Daumas الذي كان شديد الولع بالخيل، أبى إلا أن يبادله وفي تواضع وإكبار، أثناء مقامه في المنفى بفرنسا، رسائل كثيرة احتل فيها الفرس مكان السيادة.

إن الكرم أو حسن الضيافة من الفضائل التي يحتفي بها بلخير كل الإحتفاء، لا لأنه مطلب من المطالب الخلقية، وصنيع جميل وحسب، بل لأنه كذلك، عمل يحفظ العلاقات الشخصية

http://www.al-maktabeh.com

ويصونها، ويديم الحوار ويتيح الصلة والتواصل. فالإتِّصال أو التواصل في تلك السهوب الجرداء يُنهي حالة الصمت ويُؤْنس الوَحْشة، يكسِر العزلة ويوصل الخطاب، يُبلِّغ الرسالة ويرعى حق الأخوة.

همفي وانبان كالسراب تحت الغيام
حارز عرضي ولساني
الي قاتل بوي انضيفوا بالطعام
نضحك للي عاداني

ليس لنا أن نختار ضيفنا بالضرورة. فكل وافد علينا يجد لدينا التكريم والترحاب الدائم، مهما يكن اسمه ومركزه في المجتمع، وأيا كانت ثروته وجاهه. إن وجوده بيننا في حدِّ ذاته ليفرض احترامه، ويوجب ضيافته وإكرامه. وكل من يُخِلُّ بهذه القاعدة ويخالفها، وكل من يشوِّه معناها أو يحرِّفه، وكل من يخلط بها أو يقصد من ورائها أغراضا أخرى تمَّحي شهرته ويَضْمحل. وهذا تصور بلخير:

متربص ولبيق حافظ بلا قراري
نعطي حق الناس والواجب
عمري ضيفي ما يبور ونا اهناي
عرضي خفت عليه ينتغب

مكتبة المهتدين الإسلامية

عين العقيد نيغريه Négrier علـــى رأس قـــوات الإحـــتلال في الناحية، وأمام قيام بلخير بالإستنفار للجهاد والمقاومة، وتوسُّـــلِه لجمع المقاتلين والسلاح، باسم الوليّ سيدي الشيخ لم يتورّع هذا القائد العسكري عن تلغيم مقام الوليّ الصـــالح وتفجـــيره [1]. فاستشاط بلخير غيظا وامتلأ صدره غضبا، واغتنم هذه الحادثة، فأخذ يجوب المداشر والقرى، ويحرِّض الرجال على القتال، وينفخ فيهم عاطفتهم الدينية وحميتهم الوطنية، وينـــادي فـــيهم أن لا كفارة لغسل هذه الإهانة الا بالبارود.

يا الفارس حشمتك عيد الأخبار
واش حال القرمامي رايس القوم
اليانّك من الأبيض فرحوة والابشار
الشيخ اتبنى والا مازال مهدوم
نوبة ان داروا بالقبة الكفار
غير غار نمل والا فرق جحموم
هدّموا قنطاس الهمة والاوقار
ولا ابقى حد على السلطان مكعوم

1- قام نيغريي بتفجير قبة سيدي الشيخ دون أوامر أو إذن من قيادته. فعوقب على فعلته هذه، غير أن الصحافة الكولونيالية في الجزائر التي كانت تدعو إلى حرب إبادة، وقفت إلى جانبه وأهدته (سيف الشرف)، فتم إبطال العقوبة. وقد منع بعدها مـــن دخول التراب المغربي رفقة جنده ".

- شارل روبير أجيرون. (الجزائريـــون المسلمون وفرنسا) ص 65.

http://www.al-maktabeh.com

وامنين هذه ليّاه حياة الاعمار

والمجـــاهد فرحة وسرور وانعوم

من طياح القبة ما ابقى عار

ولا ابقى واحد في السادات محروم

وبعد أن هُزمت المقاومة ومُنيت بنكسة عسكرية، نظرا لآلة الحرب الهائلة المسلطة على الناحية، لم يجد بلخير بدا من اللجوء إلى مدينة المنيعة (بولاية غرداية، جنوب الجزائر)، تلك الواحة النائية، حيث راح تحت ظل النخيل يواصل الدعوة إلى القتال، وإلى الإستمرار في النضال، وها هو ذا يشرح لماذا آثر الهجرة:

خاطر وغريب وانجليت لذي الاوطان

راني في عـــاركم وذيعــة

ونا سيد الشيخ سقام الفرسان

بجاهـــه امعـــمر الفرعـــة

ما داير فالطة اهجرت على الايمان

ما هي سرقه ولا خديـــعة

هربت نفسي من النصارى والشيطان

والغايب تصحبه الشفـــعة

واكرمني خالقي من الفضل والاحسان

بثمارة شجـــرة اربيـــعـــة

واقريت بلا كتاب من عند الرحمان

ما ازينها يا نـــاس طـــاعـــة

مكتبة المهتدين الإسلامية

سامع بصير عالم السر والاكنان
في ملكـــة ما أمـــعاه صنعـــة

يا سايلـــني اذا اتســـول　　في الدنيا ما تدوم شـــدة
سولني على الجواب الأول　　الصبر اخيارته الافـــادة
أنا عندي جواب ساهـــل　　اذا قالوا الجهـــاد عـــادة
نغدا للشـــوف ما انجمل　　رباط الشوف كالعبـــادة
الـــروم انفاضـــها اتزعل　　ونا في صـــربة الزيـــادة
النـــفس الهوها امســـبل　　خير من المال والقـــيادة
نوقف عند العلام الأول　　تحظر الايمان والشهـــادة

هكذا نرى إذن، أنه ذلك الرجل الصنديد، الحازم العنيد، الذي لا مكان عنده لأية تسوية أو مصالحة.فقد أخـــذت الســـلطات العسكرية التابعة لحامية البَيِّض Geryville عائلته كرهينة، ونقلتها إلى الثكنة تحت حراسة مشددة من جنود مسلحين. وكان بلخير يعلم أن من بين أفراد العائلة أخا له مريضا، فتقـــدم إلى المركـــز العسكري، مسلما نفسه للعدو مقابل الإفراج عن عائلته، فألقي القبض عليه، ونُفِي إلى جزيرة كورسيكا Corse.

لم تثن الغربة، على شدتها وقساوتها، من عزيمته، ولم تنل مـــن قريحته أو حماسته. فقد وصلتنا من منفاه بقلعة (كـــالفي Calvi) قصائد مؤثرة قوية، إذ أخذت الذكريات تلازمـــه وتحاصـــره، ذكريات الصحراء والرمال التي كان يحبها ويهيم بها، ذكريـــات

http://www.al-maktabeh.com

جولاته، وذكريات بوعمامة الذي كان شديد الإعجاب بصلابة عوده، وقوة إيمانه:

يا حسراه ارفاقي واحنا هجار
واثرن درك الناس غير أنا نبغـــيه
يا حسراه على ملاعب في الأقوار
مشليّة منا ومشـــليّة منهـــيه
جرّاحين الخيل بشبور التسطار
ولبوس الهمة المـــجبود يواتيه
ياحسراه منين كان الشط اعبار
والمـــغلوب يفوت حقه ويخليه
يا حسراه منين سلسلنا الكفار
كذا من قبطان باعلامه طاويه
ياحسراه على انقار قبال انقار
كان العز الا من البيض والهيه

إن بوعمامة الذي يرمز في نظره إلى المقاومة ويجسّدها، لا يفتأ الشاعر يذكره، فيتأثر لذاكره أشد التأثر. ومـــع أن شـــاعرنا لم يحارب إلى جانبه، لأنه كان يقاتل آنذاك في ناحية أخرى، فإنـــه يضع نفسه تحت سلطته المعنوية وزعامته الروحية :

مكتبة المهتدين الإسلامية

بوعمامة مولى سطوة وزيار
وأباه بين اكتاب النبي المعصوم
بوعمامة يعطي تسبيح الاذكار
وبوعمامة سره للناس مفهوم
وانت مرافقني في صحراء وقفار
وشاد إعلامك بيدي به محروم

. بالمناسبة، نلاحظ أن الراية هي التي تحمي الجندي، وليس العكس، وهنا نلمس نفحة صوفية تضفي على العلم المرفوع ضربا من القداسة، بحيث يكفل للمقاتل حصانة ومناعة. لكن إذا جاء الأجل وحقّت المنية، فإن الشاعر لا يساوره منها جزع أو هلع، بل يستقبلها وكأنها خلاص من متاعب الحياة:

الدنيا في الزمان الاول   قالوا تريس واحدوا تذل الفين
اللي يدير الخير ما يجمل   موت الحرمة ولا تمرميد الحيين

كان الشاعر بلخير يلاحظ ويرصد من أعالي قلعة كالفي، ما يحصل من تحولات في مجتمعه،في ظل التسويات والمصالحات، ويقول في ذلك:

يبكو حقي وحقهم في الدهر وتبادالو
سبع قضاة قاع اتفقوا عن كراية
حق المسكين غاب واداه الي بريالو
ياسيدي من قوة الدراهم تعواج الآية
سيدي كن امعاي

http://www.al-maktabeh.com

يدي حق الناس ويقول كتبي قالوا
ياسيدي بعتنا وجبت امعاك الشراي

فالنقد كما نرى يبلغ هنا درجة الإستنكار الشديد، بل والحكم القاطع والنهائي بالإدانة. غير أن هذا كله مردُّه في ذهن الشاعر إلى معادن الناس وأروماتهم، أي إلى الأصول الرفيعة والوضيعة. وفيما يلي أبيات شهيرة يعرض فيها تصوره للرجل الخسيس الوضيع، والرجل الشريف ذي الأصل الأصيل:

دنق للعرف اذا طوال ذاك من الشجرة راوي
والقاصف بعد ما تكمله يسمى موصول
والرقبة بعد ما تكنه كالبارود القوي
دنق جهد البارود قاع من صال عليه يصول
والجايح بعد ما تعظمه ما يرجع شي ساوي
دنق للي مبداه شين مامات الا مذلول

* * *

عاد بلخير إلى الوطن في آخر القرن، فكان يخضع للرقابة. لكنه كان مُحترما يحظى بالتقدير، ومات في حدود سنة 1905، دون أن تُلْحق به أية إهانة أو يصيبه أيُّ أذى، وقد وَجَد عند ذويه كل التقدير والتكريم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

إن شعره الذي تخطى القرن، قد ظل خالصا صافيا رغم مرور الزمن وكلل الذاكرة، محافظا على جمال لفظه الأصلي وإيقاعه الفني، متسما بثراء قُدَّ من قوافيه، فلم تنل منه الرواية الشفوية التي تقصر عادة دون الإحاطة المعمقة بخفايا اللغة وعطفاتها. و لم يتحقق ذلك إلا لكون البيت الشعري رائقا جذابا، والحادثة فيه شديدة الوقع في النفس، والقضية عادلة ومؤثرة، مما يجعل هذا الشعر يخترق الأذن بسرعة فائقة، فتتلقفه الذاكرة ويرسخ فيها.

إن ما يحيط به من سحر فتان، وما يبعثه من بهجة وحبور، وما يثيره من اهتمام، لمن العوامل التي تتضافر جميعا لتخليد إيقاعه ووزنه، ثم لا يضيره بعد ذلك أن تنتقل روايته من شخص إلى آخر عن طريق الهمسات.

هكذا كان شعر بلخير، وكذلك سيظل مستقبلا، متى كنا في بوادينا وحواضرنا، وفي أسْمارنا وسهراتنا، وعند تجوالنا عبر طيات القرن الماضي، نسعى إلى بعث ما في النفس من حب استطلاع، وإحياء ما في القلب من لهفة إلى الإطّلاع، على ما يمثل تراثنا الثقافي والحضاري بكل ما ينطوي عليه من طلقات نارية قاصفة، وطعنات بالسَّيف قاصمة، ورعشات غرامية أو آهات ونغمات بدوية ساحرة.

http://www.al-maktabeh.com

ذلك لأن محمد بلخير الشاعر والمتيم، كان يحب وطنه ويهـيم به. كان يحبه كما يمكن أن يحبه بدوي قوي القَنَـا، شـديد البطش في الهيجاء. كان يحبه كما قال سـتـاندال Stendhal وهـو يتحدث عن بونابرت: "بكل ما يتَّصِف به المحب المُتَيَّم من تجاوز وتسامح ".

– نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة) ع 92، السنة 16، مـارس – أفـريل ، الجزائر 1986.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الأمير خالد حفيد عبد القادر
الميراث الخالد

لكل إنسان قدر ومصير. وكثيرا ما يكون لهذا القدر أو المصير آيات وإرهاصات. وقد هيأت الأقدار الأمير خالد ليكون له شأن وأي شأن. ومن آيات ذلك أنه ولد حفيدا للأمير عبد القادر ووليدا لابنه الهاشمي, وشهد النور يوم 20 فبراير 1875 بدمشق الفيحاء، أي بعد أربع سنوات من ثورة المقراني التي كانت امتدادا لملحمة عبد القادر، وقبل ستٍّ سنوات من ثورة بوعمامة التي كانت إحدى محطاتها البارزة أيضا. ونشأ في العاصمة السورية التي كانت آخر مرحلة من مراحل اغتراب ذلك القائد المغوار، الذي حارب فرنسا حتى سنة 1847، وترعرع في ظل هذا الإسم المَهِيب، وفي كنفه النَّجيب.

لقد ساق القدر الأمير خالد عبر طريق قطعه بخطى وئيدة في بادئ الأمر، طابعها الخجل والحياء، ثم بخطى مترددة حينا، وجريئة حينا آخر. وانتهى به المطاف فإذا به رجل يفرض نفسه على وجدانه وعلى محيطه، سواء كان هذا المحيط جزائريا أم فرنسيا.

تلقى تربيته الأولى وهو طفل صغير، كأي أمير آخر من بني عمومته، في جو يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، ومراعاة متطلبات الحياة وشؤونها. وهو احترام لا تفتأ تقلبات الزمن

http://www.al-maktabeh.com

وظروفه،كالتي عاشها الأمير في الجزائر ومنفاه بسوريا، بعد مقامين اثنين في فرنسا وتركيا، أحدهما معاد بارد، والآخر حذر مرتاب. على أنه ليس هذا باغتراب حقيقي ما دامت دمشق، ذلك الموطن الجديد، وأرض الإخوة العربية الإسلامية قد استقبلته. فهو في وطنه وبين أهله وذويه، ولا ينقصه سوى الشوق والحنين إلى الوطن الضائع والأرض السليبة.

وفي ظل الصورة الأميرية السامية التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة عن مقاومة مجيدة باسلة، والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخيما وإفاضة، وجد الفتى خالد - وعيناه تتقدان ذكاءا وتتحرقان شوقا إلى المعرفة والمزيد من الإطلاع- لدى جده رئيس الأسرة المالكة، شخصية القائد الذي لا يملّ ولا يكلّ، الفيلسوف الورع الجذاب، والشاعر الفارس المغوار.

كان الأمير عبد القادر كثير العطف والحنو على خالد، شديد الرعاية له والإهتمام به، إلى درجة أنه قال لابنه الهاشمي، وهو لاشك كان يشتم في حفيده اقتدارا خاصا على مغالبة القدر ومقارعة الأعداء: " يجب أن تعلم هذا الفتى حرفة السلاح ".

هنا يبدأ مجرى حياته المهنية ومسار ما رصد له من مهام نضالية، فبعد مرحلة دراسية تحت إشراف كبار علماء دمشق، وآخرين مثلهم في ثانوية (لويس لوغران Louis Le Grand)، في باريس، دخل خالد مدرسة (سان سير Saint-Syr) العسكرية،

مكتبة المهتدين الإسلامية

لكنه دخلها بصفة (أهلي Indigène) وبصورة إســـتثنائية "ريثمـــا يتجنَّس بالجنسية الفرنسية ".

لكن هذا الشاب اليافع، كان قد اختار وجهته وهويتـــه مـــن قبل، إذ أنه صرخ قائلا: " إنني عـــربي، وأريد أن أبقى عـــربيا، لا أتخلى أبدا عن قناعاتي ومطامحي ".كان ذلـــك ســـنة 1893. وهكذا استقال من المدرسة سنة 1895، ثم استأنف الدراســـة في السنة المواليـــــة.

وسرعان ما غادر الشاب مدينة باريس ليلتحق بمدينة الجزائر، حيث تحقق حلم قديم طالما راود أباه الهاشمي، ذلـــك أن هـــذا الأخير كان معروفا بمعاداته للسلطات العثمانيـــة، ولأن قنصـــل فرنسا الذي كان يتعهد علاقاته بأسرة الأمير ويحيطها بكل عناية ورعاية، قد نصح سلطات باريس بالموافقة على اســـتقبال هـــذا الحليف "المزعج" لتركيا بمدينة الجزائر، وإلا فإن أقواله وتصرفاته ستؤدي إلى إحناق الباب العالي وإغضابه.

هكذا جاء الهاشمي إذن إلى مدينة الجزائر، والتحق به خالـــد. لكن خيبة الأمل كانت كبيرة. فبدلا مـــن أن تســـتقبله الإدارة الفرنسية باعتباره أحد أنجال عبد القادر، فتخصه بمـــا يســـتحقه مقامه من الإحترام والتقدير، فقد استقبله ببرودة واستخفاف، بل بأسلوب يقارب الإهانة.وكان السبب في هذا المسلك التنكيدي من الإدارة الفرنسية، هو ما يستثيره فـــيها من حذر وارتيـــاب،

http://www.al-maktabeh.com

فهو رجل قادر على استرجاع سمعة أبيه ونفوذه لخوض غمار كفاح جديد .

أحس خالد بشيء كثير من الإهانة والإذلال، فهو إن كان ضابطا صغيرا من المنتسبين إلى (مدرسة سان سير العسكرية) لا يزيد على كونه ضابطا من الدرجة الثانية. وكان هو أيضا محل رقابة أو ملاحظة، تلاحق لقاءاته ومحادثاته، وتتبعه أينما حلّ وحيثما ارتحل، إلى درجة أن أسرة الهاشمي تلقت أمرا في صيف عام 1894 بالإرتحال إلى مدينة بوسعادة. ومع ذلك فإن بجوار هذه المدينة قبائل أولاد عامر التي كانت من أشد أنصار الأمير، كما كانت قبائل ونوغة سنة 1871 (أي في زمن أقرب إلى الزمن الذي نحن بصدد الحديث عنه) من أشد رفاق بومزراق المقراني حماسا.

كذلك يمكن أن تنسل إلى التاريخ مناطق خفية لا يفقه المنطق فيها شيئا. إذ كان في وسعه أيضا أن يلتقي في مدينة بوسعادة إيتيان ديني Etienne Dinet، ذلك الرسام الفرنسي الشهير, صديق العرب الذي دخل الإسلام، فأصبح بذلك أخا في الله وفي الدين.

أدرك خالد، وهو يواجه هذه العقبات، ويصطدم بجدران الحذر والإرتياب، أنه لابد من مواصلة الكفاح لإثبات الذات وفرض الوجود.

أرسل إلى المغرب الأقصى سنة 1907، حيث نال شاراته العسكرية كنقيب، وهي أعلى مرتبة عسكرية يسمح بها "للأهالي" في ذلك الوقت، لكن النقيب خالد لم يكن ذا مزاج

مكتبة المهتدين الإسلامية

متساهل أو ملائم، فقد تدخل في أمور سياسية. وكان على المغرب الأقصى بالفعل بموجب قرارات مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 أن يتخلّى لفرنسا وإسبانيا عن حق الشرطة في ثمان من الموانئ المغربية، على الرغم من المعارضة الشديدة التي أبدتها ألمانيا. والسبب في هذه الوضعية الجديدة هو سلطان المغرب مولاي عبد العزيز، الذي كان ملكا يفتقر إلى كثير من العزم والحزم، واقعا تحت نفوذ مستشاريه الأوربيين وحاشية فاسدة. وحلّ محل مولاي عبد العزيز أخوه مولاي حفيظ، باسم الكفاح ومحاربة الأجنبي. وانتصر الأمير خالد لهذا الأخير جهارا وعلى رؤوس الأشهاد، وما كان ذلك يروق للماريشال ليوتي Lyautey، الحريص قبل كل شيء على مصالح فرنسا، فأبعده عن المغرب وأرسله إلى حامية مدينتي الجزائر والمدية ،ليذوق مرارة الضجر والسآمة فيها.

كانت مرتبة النقيب "الأهلي" أعلى مرتبة عسكرية يُرقّى إليها خالد " ومن البديهي أنه التُجِئ إليه، وإلى استخدام سمعته ونفوذه سنة 1914 لقاء مكافآت، لإعادة الجنود الجزائريين المتمردين إلى ساحة القتال. واستحق بذلك تنويها "بولائه وإخلاصه" في جلسة عقدها مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1919. لكنه كان هذه المرّة أشدّ ما يكون اقتناعا، وأعمق إحساسا، بأنه ظل ولا يزال "عربيا" "أهليا"، يمكن أن يتلقى، بل ويجب أن يتلقى تشريفا بالقتال في سبيل فرنسا: لا أكثر.

http://www.al-maktabeh.com

وابتداء من تلك الآونة، بدأ كفاح خالد السياسي بصورة منهجية وحكيمة، لا كما كان كفاحه من قبل عبارة عن ردود فعل متفرقة وظرفية. بأي سلاح تراه يخوض هذا الكفاح؟ لقد اختار خالد ميدان الشرعية في مواجهة الإستعمار، ومفاجأته باستعمال أسلوبه بالذات والرجوع إلى مؤسساته الخاصة.

بدأ منذ سنة 1919 بضبط قائمة رغبات الجزائريين المستعجلة " إلغاء القوانين الإستثنائية، تساوي الجميع أمام الحق العام، تمثيل الجزائريين في المجلسين (مجلس النواب ومجلس الشيوخ) إجبارية التعليم باللغتين الفرنسية والعربية، إلغاء نظام الأحواز (البلديات المختلطة).

لكن لما كان المعمرون من المستوطنين يطالبون بذاتية السلطة الإستعمارية الكاملة، أي بالحكم الذاتي إزاء "الوطن الأم" (فرنسا). وهذا يعني تولي أقلية من الأوروبيين النازلين بالجزائر زمام الأمور، وسحقهم الأهالي سحقا كاملا. طالب خالد بإلحاق العمالات / الولايات الجزائرية الثلاث (الجزائر، وهران، قسنطينة) بفرنسا بلا قيد ولا شرط.

شارك في الإنتخابات المحلية بمقتضى إصلاحات سنة 1919. وفازت قائمته فوزا ساحقا، لكن الإنتخابات ألغيت بقرار من والي الولاية بدعوى أن الحملة الدعائية التي سبقتها كانت ذات نزعة دينية طرقية متعصبة. أعيدت الإنتخابات وتجدد الفوز فيها والإنتصار. هكذا ولد الحزب " الوطني المرابطي "، إذا لم يكن

مكتبة المهتدين الإسلامية

في واقع الناس، ففي أذهان المستوطنين على الأقل. وكان لابد إذن من اللجوء إلى مختلف الإجراءات وأساليب الإعاقة، بل حتى التهديد والترهيب لشل حركة المنتخبين من " عناصر الشباب الثورية وإبطال فاعليتهم ".

أدرك خالد ذلك، فنشر في جريدته (الإقدام) المقطع الآتي، أي واجب الإستقالة: "رسالة إلى رئيس المجلس العام لعمالة الجزائر، إلى رئيس المندوبيات المالية " "على أن الحقيقة هي أنه من الصعب على بعض الناس في الجزائر، بلد الإمتيازات الكبرى، أن يتصوروا إمكان تمتع الأهالي بالحريات المحلية، شأنهم في ذلك شأن الأوربيين. ومع ذلك فليس في الأمر ما يدعو إلى التخوّف، لأن هذه الحريات تافهة لا شأن لها، ووهمية إذا ما قورنت بالواجبات المفروضة فرضا، والتضحيات المبذولة بسخاء. ثم أليست جميع القوانين التي تهم الأهالي وتخصهم عرضة للتعطيل بمجرد قرار يصدره الوالي العام، فيحرِّفها عن هدفها الحقيقي؟

"ولما كنا أقلية مغمورة وسط أغلبية طاغية، وكان العدد الكبير منا تابعا لغيره، فإن أصواتنا وأعمالنا أضحت باطلة كليا. ومن ناحية أخرى، فإنه لما كانت للإدارة اليد العليا على جميع القرارات الصادرة عن المجلسين، نتيجة لتركيبة المجلس الأعلى الذي تتكون غالبية أعضائه من الموظفين، فإني لا أرى فيما يخصني أية فائدة أو فاعلية لوجودنا في هذين المجلسين". (الأخبار 24 ماي 1921).

http://www.al-maktabeh.com

أدت جريدة (الأقدام) التي كان يحرّر فيها مقالاته باللغتين العربية والفرنسية دورا بارزا في الحياة السياسية لذلك العهد. ولما كان خالد قد آثر التقيّد بأرضية القانون، فإنه فتح لنفسه سبل تحريك مشاعر القلوب وتجنيد الأفكار.وقد كسب بذلك تعاطف عدد كبير من الأحرار في فرنسا وحتى في الجزائر أمثال سبسيلمان Spcelmann من جريدة (تريدينيون Trait d'union) أو الناشر باريكاند Barrucand الذي نشر في مطلع القرن مخطوط الكاتبة المتوفاة إيزابيل أبرهاردت Isabelle Eberhardt تحت عنوان (في ظل الإسلام الدافئ) واستطاع أن يستميل إليه عددا كبيرا من الشباب الجزائري المثقف، ويجذب إلى صفّه جماهير الفلاحين.

هكذا أصبح النقيب "الأهلي" رمزا للنضال والكفاح في نظر الشباب، ومثلا يحتذى للأرستقراطية النضالية بالنسبة إلى الوجهاء والأعيان، وشخصية أميرية بارزة في خدمة الشعب، واستمرارا معتبرا لكفاح عبد القادر الذي مايزال يستثير – في نبضات قلوب السكان المقهورين– آمال شعب يرفض الإستسلام.

عقد مؤتمر فرساي Versailles الذي ضمّ زيادة على الفرنسي جورج كليمانسو G.Clémenceau والبريطاني "جورج اللويد" G.Lloyd وخاصة الرئيس الأمريكي ويلسون Wilson صاحب فكرة جمعية الأمم المتحدة, والحائز جائزة نوبل للسلام. فتقدم إليه الأمير خالد على رأس وفد للمطالبة بمنح الجزائر وضعية تحظى بالحماية في جمعية الأمم المزمع إنشاؤها، لكن لم يحصل من المؤتمر على شيء يذكر، فأثار صخبا كبيرا وعاد إلى الجزائر،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفي نفسه إعلان الرئيس ويلسون عن مبدأ ترك أصداء بعيـــدة: " إن شعبا يخضع لقانون لم يشارك في صياغته شعب مستعبد" . هذا إذن تأكيد وإثبات لمبدأ ثورة 1789، وبالتالي فهو مبدأ عزيز لدى فرنســـــا.

تابع خالد عمله ونشاطه السياسي بتنظيم عـــدة نـــدوات في مختلف أنحاء البلاد من الشرق إلى الغرب، ومـــن الشـــمال إلى الجنوب. ومن النوادر التي تروي في هذا الصدد، أنه برمج في يوم من الأيام عقد ندوة بمدينة بسكرة، التي تعد بوابـــة الصـــحراء وبعيدة عن التيارات السياسية، فانتقل السكان على ظهور الجياد والبغال والجمال من أماكن تبعد عن محيط بسكرة بما يزيد عـــن عشرين كيلو مترا للإستماع إليه، والهتاف لـــه والتصويت على لائحة سياسيـــة.

* * *

كانت المواضيع التي تناولها الأمير خالد في خطبـــه ومقالاتـــه عديدة، فهي تتناول الدفاع عن ضحايا الجوع، والحرمـــان مـــن نعمة التعليم وسياسة التفقير، وتجنيد السكان للزجِّ بهم في أتـــون الحرب وتقديمهم طعمة للمدافع، والإستهانة بالدين ومسخ الهُوِيَة الثقافية الخ... ونحن واجدون في طيات هذا السجل الحافل مـــن الأعمال مطالب كثيرة وهدايات وإرشادات.

http://www.al-maktabeh.com

والإستشهاد بالإسلام، باعتباره دعامة دفاعية وبوتقة حضارية، أمر وارد باستمرار في أقوال خالد وكتاباته. بل قد تجاوز حدود المطالبة بالإنتماء إلى هذا الدِّين وحضارته، فدعا إلى واجب تقديم الحضارة الإسلامية، والتعريف بأفضالها على الحضارة العالمية.

لقد كان ذلك هو الملاذ المشروع والرفيع للذات الجماعية في الأمة، وفي الحضارة المكتشفة من جديد، بل المسترجعة. ألا نجد في هذا استشعارا لذكريات، ومباحثات دِمشقية كانت تدور تحت رعاية الأمير عبد القادر، ومطالعات مستوحاة من مذاق التاريخ ؟

ألا نجد في هذا تعلقا أساسيا بالأمجاد الضائعة التي كانت تطرح بذاتها مشكلة سقوطها، لأن الذين كانت مخولين بعهدة تشريفها ورعايتها، لم يحسنوا الحفاظ عليها : دمشق، بغداد، قرطبة ؟

لذلك طلب من المثقفين ورجال الفكر القيام بأبحاث عن الماضي، وإعداد تراجم مشاهير رجالات الإسلام، والتنويه باكتشافاتهم وابتكاراتهم، لتواجه بها الإختراعات المدهشة التي تنشرها أوروبا الغازية، التي لا يخشى أن تجعل "عقدة النقص" في صفوف المغزوين أكثر خطورة وعمقا.

ثم ماذا صنع هذا الغازي الدخيل، وماذا فعله لنا ؟

نجد الجواب على هذا السؤال، فيما دبجه يراعه في الفقرة الآتية:"لم يفعل الغازي المحتل شيئا لنا، فما تزال المجاعة تقف أمام

مكتبة المهتدين الإسلامية

أبوابنا وتترصدنا، فنحن إنما نسلك ســككا حديديــة وطرقــا، ومراكز مخصصة كلها لكبار المعمرين من المستوطنين. ولئن كانوا يبنون لنا بعض المدارس، الأكواخ، فــإنهم بالمقابــل يســبلوننا أراضينا. إنهم ينتزعون منا أبناءنا وينسفون اقتصادياتنا، وينقلــون إلينا معاقرة الخمر وتعاطي القمار. وينشرون في أوساطنا علل من يزعمون أنهم متحضرون ورذائلهم ".

" وماذا نقول عن حقوق الأهالي؟ إنها حقوق منكورة وغــير معترف بها. لا يصلح الأهلي إلا لأن يكون جنديا ولا يليــق إلا لدفع ضرائب باهظة، ولو أدى به الأمر إلى بيع آخر بقرة له..."، " ولا يقل القمع الفرنسي عن قمع الألمان أو الإنكليز، ولا يسعنا بعد كل هذه المظالم إلا أن نتمنى الموت. وإذا كانــت سياســة الإدارة المحلية قائمة على مسخ اللغة والدين وتدميرهما، ومبنيــة على تفقير السكان، فإنها قد أفلحت كل الفلاح، لأن الســكان عمهم الجهل وانتشرت فيهم الأمية، والدِّين قد وهن وضــعف أمره، والفقر قد انتشر وكاد يغدو شاملا ".

وحينما قام ألكسندر ميليراند Alexendre Milleraud رئــيس الجمهورية بزيارة للجزائر، طرح خالد المسألة الجزائرية علانيــة، وطالب بإنصاف الجزائريين ومنحهم تمثيلا عــادلا في البرلمــان الفرنسي، وكان الجواب بالرفض.

وعندما علم بانتصار اليسار الفرنســي ســنة 1924، بــادر إلى مراسلة الرئيس هيريوHerriot مجددا المطالب فيما يأتي:

http://www.al-maktabeh.com

1 - التمثيل في البرلمان بنسب متكافئة مع أوروبي الجزائر.

2 - إلغاء القوانين والتدابير الإستثنائية، والمحاكم الزجرية والمجالس القضائية الجنائية، والرقابة الإدارية إلغاء كاملا ونهائيا، مع العودة إلى القانون العام دون قيد ولا شرط.

3 - المساواة في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين فيما يتعلق بالخدمة العسكرية.

4 - التحاق الأهالي الجزائريين بجميع المراتب والمناصب المدنية والعسكرية دون أي تمييز آخر غير الإستحقاق والمؤهلات الشخصية.

5 - تطبيق القانون الخاص بإجبارية التعليم تطبيقا كاملا على الأهالي، مع حرية التعليم.

6 - حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات.

7 - تطبيق قانون الفصل بين الكنيسة والدولة على الديانة الإسلامية.

8 - إصدار العفو العام.

9 - تطبيق القوانين الإجتماعية والنقابية على الأهالي.

10 - منح العمال الأهالي على اختلاف أصنافهم حرية مطلقة للتوجه إلى فرنسا.

مكتبة المهتدين الإسلامية

قارنت الدوائر الإدارية الاستعمارية والصحافة الناطقة باسمها برنامج خالد، بالبرنامج الذي وجهه الزعيم الوطني زغلول باشا إلى بريطانيا، لما بينهما من تشابه كبير. وإذا كانت الأنظمة الإستعمارية تتفق في بعض الوجوه، فإنها تختلف في وجوه أخرى. ولئن كان الأمير خالد متأثرا بالإنتفاضات السياسية التي كانت تهز مصر، فإنه لا بدعة في ذلك ما دام المسعى مسعى "جزائريا لأنه ينبثق مباشرة من السياق الجزائري".

لم يجد خالد بدا، أمام تطرف حكومة باريس وتعنتها من تسمية الأشياء بأسمائها، فحل التصريح محل التلميح، وأفسحت المماحلات الدبلوماسية المجال للأحكام القاطعة والقرارات الفاصلة. وكان القرار الأول هو الآتي: " إذا كانت سياسية الإدارة المحلية مبنية على مسح اللغة وهدم الدين وتفقير السكان، فإنها قد نجحت في ذلك كل النجاح لأن السكان جاهلون، والدين قد أضعف، والفقر قد أشيع وكاد يصير عاما ".

حينئذ، سلطت عليه ألسنة الحقد والغضب، فأمطرته بكل لفظ قاذع وجارح، كالذي فعلته مورينو Morinaud نائب قسنطينة، البرلماني الذي سعى إلى تعبئة مجلس النواب الفرنسي وإثارته على "حفيد عدو فرنسا" كما وصفه الوالي العام في الجزائر ثيودور ستليق Théodore Stecg، بأنه "الرئيس الأوحد للحزب المعادي لفرنسا".

http://www.al-maktabeh.com

وما كان من الأمير خالد، والحالة تلك، إلا أن يلقي بنفسه جسما وروحا في المعركة، فقد حان الوقت في نظره لإحراج الخصم ودفعه إلى اتخاذ أقصى التدابير، حتى تتحول السلطات المحلية عن السبل التي كانت تسلكها حتى ذلك الحين، مستمدة من "مسلك الوطن الأم السخي" مع أبنائه المعارضين، وما هم إلا ضالون، فتلقي بأوراقها وتكشف عن مقاصدها، فكتب يقول: "يوجه إليك أصبح الإتهام باستباق الثورة، أنك كتبت بأن هناك فقراء يموتون جوعا... وتوصم بأنك فرنسي عنيد عندما تطالب بالمساواة بين الناس... إذن فلنكن فوضويين، ولنكن بلشفيين ومناهضين لفرنسا، ووطنيين وكل ما شئتم. لكن علينا أن نبقى رجالا ".

هذا ما كان يروق مواطنيه ويثلج صدورهم. إنها كلمات ثلاث أثارت إعجاب المضطهدين، وأشاعت البلبلة في المعسكر المعادى. وكان حينئذ عرضة للتقريع والتخويف والتهديد بالحبس، وبالنفي النهائي. وأعادوا إلى ذاكرته أن جده أيضا ،كان مضطرا إلى الإستسلام في نهاية المطاف، على الرغم من نفوذه وسمعته، وما حققه من انتصارات وأحرزه من معارك هنا وهناك، وعلى الرغم من القبائل المشحونة المتحمسة التي سارت تحت لوائه .

وعليه فمتى كان القتال غير متكافئ، لا مناص من أن تكون القضية خاسرة سلفا، لاسيما وأن نهاية الربع الأول من القرن العشرين شهدت تَمكُّن الإستعمار ورسوخ أقدامه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وما كان منه حينئذ إلا أن يجيب قائلا: " لن تستطيع تدابيركم الإستثنائية التي اتخذتموها ضد هؤلاء وأولئك أن تفعل شيئا، فالأحداث "القريبة " ستكتسح كل هذا العفن. فقد أنقضت أزمات.. وحان الآوان.. إن فرنسيي الجزائر ليتطلعون بمرارة شديدة إلى اليوم الذي سيضطرون فيه إلى تهيئة حقائبهم للعودة إلى بلدهم الأصلي، والمستقبل بالنسبة إليهم غامض وغير موثوق به، والأفق سديمي مظلم، والعاصفة قريبة.

وقد أخذوا منذ الآن يطلقون حناجرهم بالبكاء والنحيب. إنهم والله لعلى حق، فأي شيء أشق على النفس في الواقع، من الاضطرار إلى مغادرة بلد كانت تعيش فيه عيشة السادة، مغادرة بلا أمل في الرجوع، ومبارحة بلد تكتسب فيه الثروة بدون كد ولا تعب، يخدمها فيه أقنان وعبيد طائعون. إني لأشفق عليهم لما هم محرومون منه، ولذلك الأفق القاتم الذي يواجههم، ولا تلوح لهم منه أية بارقة أمل أو سرور".

تعرض خالد لضغوط سُلِّطَت عليه من كل جانب، فقد جُنِّدت بالمناسبة تلك الفئة القليلة من المثقفين "الفرنسيين"، التي كانت تتحدث عن المساس بالوطن الأم. وقوبل خطابهم بكل احتقار، وصار الخزي والعار يلاحقانهم، وانتشر ذلك في أوساط الناس عن طريق الوشوشات الساخرة المزدرية، كما ساعد هذا الظرف الإجتماعي والسياسي في إعطائه طاقات جديدة وشحذ قلمه. كان الجو مكهربا تكفي فيه أية شرارة لكي تتحوّل النار إلى سعير.

http://www.al-maktabeh.com

نفي خالد إلى مدينة الإسكندرية بمصر، لكنه أبى أن يقيم فيها، ولم يكن رحيله من الإسكندرية ليتم دون متاعب. كانت السلطات القنصلية الفرنسية تراقبه عن كثب، فحاول الفرار من المدينة والإفلات من هذه الرقابة، باستعمال جواز سفر مزيف. مما كلفه حكما بالسجن لمدة خمس سنوات، أصدرته في حقه المحاكم القنصلية، هذا الحكم الذي ألغته في وقت لاحق، محكمة الإستئناف في (أكس أن بروفانس Aix en Provence بفرنسا)، علما أنه استقبل في مصر بكل تبجيل وإكرام، كما يستقبل وطني كبير وزعيم من كبار زعماء القضية العربية.

كان "التحذير" الآتي بيانه، بمثابة نبوءة جديرة بالملاحظة " أحذروا، فلقد دخلنا ولمدة طويلة جدا، في حلقة من الحروب الوطنية والدولية والأهلية، وما إلى ذلك من الحروب والفتن الأخرى.. وإذا استمريتم في جعل حياة مواطنينا الأهالي حياة لا تطاق، فإن الإنفجار لن يكون إلا أشدَّ عنفا... إنكم لتدفعون بالأهالي إلى اليأس والقنوط، وتثيرون فيهم مشاعر الغيظ والحنق . ويوم يستيقنون أنه لا شيء يكسبونه معكم، وأنه لا شيء يخسرونه رغم كل شيء، إذا ما حملوا السلاح، لأنهم أضاعوا في الواقع كل شيء منذ زمن طويل ولا يزالون.

ويوم يُقرُّ في أذهانهم ذلك ويعلمون أنه بسببكم، وبفعل من سياستكم، فسيقولون لكم، ونقول لكم نحن الأهالي عندما تواتينا أول فرصة: " ماذا جئتم تصنعونه هنا؟ عودوا إلى بلادكم ".

مكتبة المهتدين الإسلامية

لا تتعنتوا فيما تمارسونه من قمع واضطهاد، أنظروا ماذا حـــدث في ايرلندة.. أحذروا أن يصرخ في وجوهكم يوم تكثر مشاغلكم وتتراكم همومكم، وتقصرون عن مواجهة الأحداث: " أخرجوا من هنا ". "ولن تستحقوا ما حدث".

" أنظروا ما يحدث في إيرلندة ؟ "

إن الأمير خالد، وهو المطلع على المشاكل الدولية، إنما يـــذكر هنا بحصول إيرلندة على الإستقلال سنة 1921 على الرغم مـــن سياسة طويلة نهجتها بريطانيا، في أرض أشبه ما تكون عناصرها بعناصر الجزائر. إنه تنبيه يكاد يكون تحذيرا، ولما كانت كتاباته يحللها ضباط الولاية العامة تحليلا دقيقا، كـــان شـــبح الخطـــر "الخالدي" يزداد تهديدا وتفاقما.

وهنا، نصل إلى طور حرج دقيق، لا رجعة فيه من أطوار عمل الأمير خالد. فلم تعد نظرته البعيدة محصورة في مجرّد المواجهة بين الإستعمار الفرنسي والجزائر العربية،بل أن الذي حدث هو فصل جديد في هذا العمل السياسي. فقد التقى بالشيوعيين الفرنسيين واجتمع بممثلي مجموع الطبقة الشغيلة الفرنسية. ومع أنـــه مـــن الصعب أن نتصوّر من الوجهة السياسية، أميرا أرستقراطيا يـــمدُّ يده إلى أناس، فلسفتهم أبعد ما تكون عن الإسلام، إلا أنه أدرك مدى أهمية الغاية.

http://www.al-maktabeh.com

ذلك أنه انتهى به المطاف، من المنفى الذي أجبر عليه جبرا، إلى كسب أقصى قدر من الدعم والتأييد لعمله. فقد أُبْعِد بادئ ذي بدء إلى الإسكندرية التي رفض الملك لويس فيليب في وقت مضى أن تكون منفى لجده عبد القادر، على الرغم من الإلتزام الذي التزم به نجل هذا الملك الدوق دومال. ثم قدم إلى باريس ليقيم فيها مؤقتا، لأن باريس كانت صميم الموضوع وقلب المشكلة ذاتها.

ففي باريس تيارات تحريرية كانت تنظر بعين الرضى إلى عمله؛ ومنهم شخصيات شيوعية مثل فايان كوتوريه Vaillant - Couturier الذي درس الوضع في الجزائر، وكان على دراية جيدة به. وفيها أيضا تيارات كاثوليكية تنفتح عناصرها المفكرة على الحوار وعلى مبادئ العدل، والتي لم تَنْسَ أن الأمير عبد القادر سبق أن أنقذ سنة 1860 نحو إثني عشر ألف مسيحي في سوريا من الموت. وفيها أيضا خليط من المهاجرين ينتمون إلى طبقة بروليتاريا مجتثة الأصول، لكنها واعية كل الوعي. وقد أدرك الأمير خالد ضرورة تحسيسها على نفس قاعدة تضامنها الطبيعي والموضوعي، وهذا ما فعله بالضبط.

أصبح الخطاب السياسي ذا لهجة جديدة وأبعاد أوسع, وأسس تاريخية أعمق وأرسخ. ولبس الكفاح لباس الشمولية، فصار يطرح مشكلة تصفية الإستعمار وتحرير الشعوب، واندرجت في هذا المسعى حتى البلدان التي لم تكن من قبل مسجلة في قائمة

مكتبة المهتدين الإسلامية

المستعمرات.وإذا كانت وضعية البلدان قد تختلف أحيانا، فـإن وضعية الشعوب وضعية "واحدة " في واقع الأمر، إنها وضعية مستعمَريـن.

" أيها اللبنانيون والسوريون والجزائريون والتونسيون والمراكشيون, يا أبناء الألزاس وأبناء رهينان (Rhenan), أيها المستعبدون من كل الأجناس والأعراق، ومن جميع الملل والأديان، الذين ينوءون تحت نير بعض الأجلاف الأفظاظ وبعض المترفين البرجوازيين، المنتحلين لأنفسهم حق تدنيس تراب أوطانكم العزيز. إن لكم في بعض مواطن الحرية بالخارج أصدقاء متنورين ".

إنها نظرة رجل سياسي، نظرة واثقة بعيدة العمق.ولئن كان عاجزا عن حل مشكلة من المشاكل بمفردها، أي مشكلة الشعب الجزائري، فإنه يطرح مشاكل أخرى أملا في تسويتها جميعا.

فقد نُظم في التاسع عشر جويلية /يوليو 1924 تجمعا شعبيا كبيرا، دُعِيَ إليه جميع الرعايا من البلدان المستعمرة، فهرع للإستماع إليه آلاف من المنبوذين المحقورين. ما أن ظهر خالد على المنصة حتى تعالت الأصوات بالهتاف له، وبالتصفيق والتحية. ثم أجمع الحاضرون وأقروا بصوت واحد جدول الأعمال الآتي: " إن المنحدرين من المستعمرات، المجتمعين في شارع (بلانكي Blanqui) بتاريخ 19 يوليو، بناء على دعوة من اتحاد

http://www.al-maktabeh.com

المستعمرات المشترك، ليعربون عن مشاعر التضامن مع إخـــوانهم أهالي الجزائر فيما يتقدمون به من مطالب؟

ويطالبون جميع السكان في كافة المستعمرات بإلغـــاء نظـــام. " الأنديجانا " الشنيع، وبإقرار حرية الصحافة وتأسيس الجمعيات، وإصدار العفو العام عن كل ضحايا القمع الذي يمارسه القضــــاء الإستعماري، بتطبيق القوانين الإجتماعية والنقابيـــة. ويحتجـــون على ضروب التزييف والتزوير التي ترتكبها الحكومـــات المحليـــة في المستعمرات، بتواطؤ من السلطة المركزيـــة وفي المســـتعمرات الممثلة في البرلمان. ويطالبون بـــأن يكـــف الإقتـــراع العـــام في المستعمرات التي تعمل بهذا النمط من الإقتراع، عن أن يكـــون صورة هزلية مهينة. ويُذَكّرون الحكومات بالوعود التي التزمـــت بها، لكي تحصل من السكان الأهالي على مساعدة في الســـاعات الحاسمة والعويصة من ساعات الحرب، مستعينة في ذلك بالأهالي الخونة لإخوانهم، ويعربون عن عـــزمهم الراســـخ في الإتحـــاد والإنتظام، لكي ينعتقوا من نير الرأسمالية الإستعمارية المضطهدة.

ويعربون عن ثقتهم، كما يوجهون تشكراتهم لمنظمات الشعب العامل والفلاح في الوطن الأم (فرنسا) على المســـاعدة، الـــتي يعرفون كيف يعتمدون عليها في كفـــاحهم، ويفترقـــون علـــى الهتاف: يحيا التضامن الدولي للعمال مـــن جميـــع الأجنـــاس وكافـــة الألوان ".

مكتبة المهتدين الإسلامية

تحولت باريس في ذلك اليوم المشهود من عاصمة المُستعمِرين إلى عاصمة المُستعمَرين وقد صح المثل القائل "الغريب للغريب نسيب"، لأن التضامن في الغربة زاد القلوب التحاما، والمشاعر الوطنية قوة ورسوخا لدى كل فرد منهم، ولدى الجميع. وحلَّ ذلك كله محلّ مجرد الحلم بالعودة إلى الوطن أو الحنين الرومانسي إليه.

كان الأمير خالد، وهو ما يزال بمدينة الجزائر، قد أسس منظمة أسماها "الأخوة الجزائرية"، انخرط فيها الشبان وغير الشبان من الكهول والأعيان والفلاحين والمثقفين. واكتتب الجميع فيها بمبالغ معلومة من الإشتراكات. ألم تكن هذه "الأخوة " كما نرى بمثابة مقدمة أو إيحاء لفظي، استعملها مناضلو جبهة التحرير الوطني فيما بعد ؟ ألم تكن لفظة "الأخ" مشحونة بالعواطف في صفوف مقاتلي الثورة الجزائرية، بقدر ما كانت لفظة "الرفيق" مشحونة بها لدى الأنصار في القرن التاسع عشر؟

بيد أنه لما كان مستيقنا بأنه من المتعذر عليه، أن ينصب نفسه ممثلا حقيقيا لجميع المنكوبين بالإستعمار، فقد قصر طموحه في مجال كان يتراءى له مناسبا للقيام بعمل مشترك منسق، وفي منأى من الأطماع الباطلة والمنازعات التافهة، ألا وهو المغرب العربي.

يا لها من بصيرة نافذة ونظرة شاملة. فما من أحد تحدث عن هذا الكيان الموحد أو سعى إلى تكوينه منذ القرن الحادي عشر، ومنذ أن قام عبد المؤمن بن علي ببناء المغرب العربي الكبير من

http://www.al-maktabeh.com

مدينة المهدية في تونس إلى الأندلس. لقد برهن الأمير خالد على نفاذ في الرؤية وسداد في الفكر، فاقترح على مقهوري الجزائر والمغرب الأقصى وتونس أرضية مشتركة بإنشاء (نجم شمال إفريقيا)، تلك الحركة التي تولي رئاستها فكان رئيسها الأول.

وإذا علمنا ذلك العدد الكبير من إطارات شمال إفريقيا الذين جاءوا يرتوون من هذا النبع، ويتسلحون فيه بأسلحتهم السياسية الأولى، أدركنا مدى أهمية هذا الحدث ومغزاه التاريخي.

وإذا علمنا مقدار ما أسهموا به جميعا، من حماس وطاقة وثقة وإيمان. ومتى عرفنا مقدار ما استثمروه من صداقة ازدادت قوة ومتانة في بوتقة الحماس المتّقِد، وحرارة العمل المكتوم، أدركنا مدى ما اكتساه الحدث من بعد إنساني، لأن ما حصل بعد ذلك، على أيدي أبنائهم الطلبة في جامعات فرنسا، إنما هو نهضة سياسية وصحوة قومية واعية وحوار مشحون العاطفة. ألم يكن ذلك كله للإشتراك في بناء استقلالهم الفتي، كما كان الشأن بالنسبة إلى كثير منهم، لكي يلقوا بأنفسهم جميعا في كفاح مستميت لاسترجاع الحرية.

هكذا يبدو عمل الأمير خالد، كأنه عمل قام به رائد محنّك، أو كلمة ربانية صدرت عن نبوءة. ومن يدري؟ فلعله لو لم يكن حفيدا للأمير عبد القادر، لما سعى أبدا إلى القيام بما حالفه التوفيق فيه آخر المطاف.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لماذا إذن، لم يشارك في الجهاد الذي نادى به عمه عبد القادر ضد فرنسا، عندما كان عمه هذا لاجئا في المنطقة الإسبانية، في شهر مارس بالذات من سنة 1915؟ لماذا لم يشارك في العمل الذي قام به الوطنيون المغاربة في سويسرا أو في العمل الذي قامت به اللجنة الإسلامية من أجل استقلال الجزائر وتونس، تلك اللجنة التي تأسست في برلين سنة 1916، وحيث كان عمّه علي باشا وابن عمه الأمير سعيد حاضرين؟

قد يكون ذلك لأنه كان يشعر أنه ما يزال ناقص النضج في ذلك الوقت للقيام بمثل تلك الأعمال. وقد يكون ربما، لأنه كان لا يرى أي مسعى حقيقي وفعال إلا المسعى الذي ينجز في الميدان، وبين الأهل. ومهما يكن من أمر، فهذا ما فعله بالذات في مدينة الجزائر وفي باريس، فلم يكن مسعاه باطلا، ولم يذهب عمله أدراج الرياح. ويعود الفضل إليه في إعداد أجيال من الرجال القادرين على الإنضباط، وعلى فرض هذا الإنضباط على الآخرين لخوض غمار كفاح مشترك.

لو لم يكن من مآثره إلا هذا الذي ذُكِر، لكفاه فخرا وجدارة، واستحق عليه الإشادة والتّنويه. ذلك ما كَتبتُ من أجله هذه الصفحات. وهنا لابدَّ أن أؤكّد أيضا، أن هذا التنويه يتجه إلى الشخصية التاريخية الأخرى شخصية جده (الأمير عبد القادر)، الذي وافته المنية في سوريا سنة 1883.

http://www.al-maktabeh.com

لقد مات خالد أيضا في سوريا سنة 1936، وبكـــاه الشـــعب الجزائري. وقد صرح رئيس جمعية الطلبة الجزائـــريين قـــائلا: " كانت حياة خالد مثالا وتجسيدا لكلمة "واجب"، وما يزال فكره سائرا لأنه يساير منطق التاريخ ويجاريه ".

أي منطق تاريخ آخر يرجوه ؟ غير المنطـــق الـــذي حقـــق حلمه:" لا تستريح نفسِي ولا تطمئنُ إلا يوم تتحرَّرُ بلادُنا ".

إذن فلتطمئنْ نفسَك يا خالد، فقد تحرَّر بلدُك.

- نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة). ع 97 ،جانفي- فبراير ،الجزائر 1987 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

عبد الحميد بن باديس
الرائد المفكر الفذ

ولد عام عبد الحميد بن باديس عـــام 1889، مثـــل الشـــيخ الإبراهيمي،صديقه ورفيقه في الكفاح،وخليفته الذي ترأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد وفاته في 16 أفريل 1940،

من ذا الذي لا يذكره؟ فإذا كان إسمه معروفا أكثر من أعماله، فإن هذه الأخيرة ظلت متخفية، مثلما كانت في زمن إنجازهـــا، ضرب من الهالة مايزال يغشى سيرته؛ كما لو أن المحافظة علـــى القدرة الإقناعية لعمله، كانت تتطلب بقاءها في الظل.

ليس من السهل الممكن، لمن يتعرّض إلى شخصية رجـــل ذي مكانة عالمية وأعمال متعددة الأوجه، أن يرسم له في سطور قليلة صورة وافية. فذلك ليس تماما طموحنا ولا مبتغانا.

لم يؤثر ابن باديس في حقبة من تاريخنا فحسب، تلك التي تمتد من الحرب العالمية الأولى إلى بدايات الحرب العالمية الثانية، بل أثر أيضا في تلك الحقبة التي بوأت الجزائر مكانة مرموقة في عصـــر النهضة العربية الإسلامية.

حين نزل الشيخ المصلح محمد عبده، بالجزائر في بدايـــة هـــذا القرن (العشرين)، باحثا عن محاور في أرض الإسلام، هذه الأرض التي كانت تصارع استعمارا شرسا، لم يكن يعلم أنه سيكســـب تلميذا فذا كابن باديس.

http://www.al-maktabeh.com

فبعد دراسة متفوقة في قسنطينة، سافر الشاب عبد الحميد ليواصل التحصيل في جامع الزيتونة بتونس. وقد كان فرض الحماية الفرنسية على تونس الحدث البارز في تلك العشرية. كانت الريح التي هبت من الشرق، حاملة الأمل في تجديد اليقظة العربية الإسلامية تنبيء بوعي سياسي في سبيل تحرير الشعوب المقهورة،كانت تلك الريح تكنس كافة سواحل شمال إفريقيا. وكانت سوريا قد ثارت عام 1925، كما كان الريف المغربي تحت قيادة الزعيم الوطني عبد الكريم الخطابي قد حمل السلاح منذ سنوات.

هكذا، فقد واجهت فرنسا صعوبات جمة بدمشق، فلجأت حينئذ إلى القمع، كما عملت في المغرب الأقصى على ردع الثوار بقوة السلاح. فمن جهة، كانت فرنسا قوة أوروبية تحمل شعار الأفكار النبيلة في صالح المسلمين الواقعين تحت سيطرتها، ومن جهة أخرى، كان هؤلاء المسلمون يعانون الخيبة المريرة من جراء اندحار الوعود في مقابل تعويض موتاهم في جبهات حرب 1914 - 1918.

تلك كانت الوضعية إذن. ورغم وضوحها أمام كل ملاحظ نزيه على الأقل، فإنها كانت محل دراسات وتحقيقات ونقاشات نظرية. فبينما كانت المصالح المتخصصة للحكومة العامة، تعد العدة للإحتفال بالذكرى المائة لاحتلال الجزائر، بتدقيق فائق في تحضير قوائم الجزائريين المستفيدين من وسام الشرف، وسط انتشار هائل لتظاهرات الوئام الجزائري - الفرنسي، كانت

مكتبة المهتدين الإسلامية

كوكبة من الرجال المشاهير من بينهم كتابا وجنرالات وسفراء، تجتمع في باريس، لتدريس محور: " الإسلام والسياسة المعاصرة " الذي نظمته جمعية قدماء الطلبة وطلبة المدرسة الحرة للعلوم السياسية - كان ذلك في 1927.

إن الموضوع المختار ذاته، كان يوحي بظهور مشكل صعوبة التعايش بين المستعمِرين والمستعمَرين وبالأحرى المسيحيين والمسلمين. من هنا، كانت ضرورة دعوة متخصصين في محاولة لتحليل الطرق والوسائل الكفيلة بضمان استمرار بقاء الوجود الفرنسي في البلاد الإسلامية، لاسيما في شمال إفريقيا، بامتداداتها المشرقية الحتمية الناجمة عن حوادث دمشق. لنذكر هنا بعض المشاركين في هذه الندوة: المريشال ليوتي، الجنرال وايغند، جول كامبون، الحاكم العام السابق بالجزائر، أو غستين برنارد ولويس ماسينيون.

لا ريب أنه من المفيد أن تلتقط من تلك الخطابات التي ألقاها رجال مشاهير كأولئك، آراء تنم داخل ذات الرؤية الإستعمارية البديهية، تنم عن فوارق في النبرة واختلافات الخطابة، وتناقضات في التحليل أحيانا، من الترعة الإنتصارية الهاذية إلى الإعتراف بالعجز. هل يعود ذلك إلى اختلاف المدارس فحسب ؟ صحيح أن التكوين يغلب على الرغبة، من حديث الجنرال إلى حديث السفير ومن خطاب الفيلسوف إلى خطاب المنظر الإستعماري. لكن هناك أيضا، كما يبدو لنا، في العلاقات التي قامت بين الحاكمين والمحكومين وبين القامعين والمقموعين تعقدا جعل من

http://www.al-maktabeh.com

الكرم الشفوي للأوائل تجاه الآخرين يضاعف الحساسية بدل أن يقلل من الحذر - إن التصريحات بالنية لم تحل شيئا يوما - بل على النقيض من ذلك, فحين يعظم الأمل تتضاعف الخيبة.

لندع الحديث لأغوستين برنارد، الأستاذ بالمدرسة الحرة للعلوم السياسية والمنظر المتحمس للإستعمار. نلاحظ هنا، أن المنظر حين يوسع المجال للبراغماتي، يصبح ذو أهمية:

" أليس الهدف النهائي هو تأسيس فرنسا ما وراء البحر، حيث سيتم إحياء لغتنا وحضارتنا بالتعاون الوثيق أكثر فأكثر بين الأهالي والفرنسيين، وبكلمة أخرى، في سبيل الفرنسية ؟ يبدو بالفعل أن هذا المبتغى الأخير هو الذي نسعى إليه. إذا، يجب أن ندفع بالأفارقة إلى التحدث بلغتنا، وتبني بعض مناهجنا وأفكارنا والذوبان فينا شيئا فشيئا ".

فبالنسبة إليه، ما يزال الإستعمار صارما قويا، بمدافعه ودرايته، وغنيا بمهارته ونقوده الذهبية. ثم يضيف في باب آخر: " كان ديرو دو لامال قد كتب في 1835، إننا نندهش لكوننا لم نخضع وننظم ونظهر ونثقف كل البلاد الجزائرية خلال أربع سنوات، وننسى أن روما استنفدت مائتي وأربعين سنة لإخضاعها كاملة في حالة مقاطعة موالية وتابعة. لقد قال كاتب إستعماري، يجب قضاء عشرين سنة لتربية إنسان ويجب قضاء عشرين قرنا لتربية جنس ".

مكتبة المهتدين الإسلامية

يا له من تخمين حقير أن يتطرق الحديث إلى تربية جنس. أن يفكر في ذلك أديب إستعماري تافه، فذلك أمر معقول، لكن أن يستشهد أوغستين برنارد، الأستاذ الجامعي الذي يفترض فيه أن يكون صارما ودقيقا، يستشهد بمقولة مؤلف مجهول؛ فذلك ما يدعو للإرتياب على الأقل، دون أن نغفل أن المائتي وأربعين سنة التي قضتها روما ببلاد الجزائر في قمع الإنتفاضات ونهب المهزومين، لم تجعل الشعب الجزائري شعبا لاتينيا كما كان يقول الكاتب الإستعماري الآخر لويس برتراند، هذا الذي سمح له تبجحه الثقافي بأن يكتب: " لا تفسير لهذا الخطأ المهين الذي يرتكبه بعضنا حين يضفون على المسلمين حضارة، لم يكن لهم منها سوى الإنتفاع العقيم ".

قد يجوز أن يكون المرء لاتينيا متعصّبا، وبالأحرى حالما بروما المنتصرة أبدا، وهي تجرجر يوغرطة المكبّل لترمي به في غياهب زنازنها العتيقة ، قصد القضاء على المقاومة النوميدية. بيد أنه لا يمكن للمرء أن يتمادى في الوقاحة الثقافية والجنون اللفظي إلى حدّ اتهام الحضارة الإسلامية بالعقم. ورغم ذلك كان هذا الرجل قد كتب هاته السطور في الوقت الذي كان فيه الطب الذي يدرس في غرونوبل أو ليون ليس إلا طب ابن سينا. لقد تجاهل هذا الكاتب ذو العقل المارد والكفاءة الشيطانية الحقيقة ببساطة مذهلة.

http://www.al-maktabeh.com

كشف أوغستين برنارد نفسه جانبا من مظاهر الإستعمار: "المناورة التي ذهب ضحيتها بعض الزعماء الدينيين الذين سخَّر ابن باديس جزءا من نشاطه ليفضحهم علنيا وليحاربهم بشدة: " من الممكن أن يضمن تعاون بعض الزوايا الدينية، لاسيما شرفاء وزان، الذين سهلوا فيما بعد المركيز دو سوغونزاك توغلاته الرائعة في المغرب ".

وبما أن المغرب - قد تمّ ذكره فلنر القصد من تغيير النبرة تغييرا محسوما - ما رأي الماريشال ليوتي في المسلمين وهو الذي قارعهم بالسلاح في الجزائر وفي المغرب: " من بين المسلمين، لصوص وقتلة لكن لا يوجد من بينهم من لا أخلاق له. ولتفهموا من هذا، أن حتى أفقرهم والمتسولين منهم بريئون من الوقاحة. إنهم نبلاء الهمة واللفظ والأكيد أنهم أيضا نبلاء القلب حقا".

هذه الكلمات الصادرة عن قائد كبير في الجيش الفرنسي، صار عضوا في الأكاديمية، هي كلمات جندي يحترم خصال أو فضائل خصومه- دون أن يعترف بها رغم ذلك في ميادين القتال-. بغض النظر عن المعرفة الشخصية بالرجال الذين تمكن من معاشرتهم، ألا يجوز أن نتلمس تأثره الإيابي بإليزابث أبرهارد Isabelle Eberhardt التي عاشرته في عين الصفراء، حيث ألزمه واجبه النكد بدفن جثمانها الغارق في الواد وعلى إنقاذ مخطوطاتها المبللة لإرسالها إلى الناشر بروكاند بالجزائر

مكتبة المهتدين الإسلامية

العاصمة[1] كان من عادته أن يقضي رفقتها سهرات كاملة طويلة يتحدثان فيها عن أشياء كثيرة وما إليها، خاصة المتعلقة بـــذكر هذا الشعب المهزوم لكن دون أن يخضع.

أما فيما يخـــص لـــويس ماســـينون louis Massignon، هـــذا المستشرق المتخصص في فكر المتصوف الحلاج، الـــذي يســـهر بمعارفه المتحجرة أكثر مما يبهر بقناعاته السياسية، فإنـــه يبقـــى غامض الموقف: " هناك إذن أناس يعترفون، أمام أوروبا بكونهم مسلمين. أقول أمام أوروبان إذ لحد الساعة، لم يكن موقفنا منهم موقفا مرحبا فعلا: إننا لنشعر بصعوبة الوسيلة التي تجعلنا نقبلهم بالمســـاواة".

إن رد فعل الصدق الثقافي يرفض الإحتقار- ثم إن التحـــدث بمثل هذا في ذلك الوقت، يعبر في حدّ ذاته عن صفاء الرؤية. إنها نظرة تلقى بحزن على ذلك العالم من المعوزين، وهـــي في نفـــس الوقت نوع من قرع ناقوس الإنذار، للتحذير من مغبّة مســـتقبل غير متوقع. إن لغة الفيلسوف لا يمكن أن تكون مكشوفة كلغـــة الدركي- ولما ينتقل من تحليل الإنسان إلى تحليل الفكرة، فـــإن رؤيته للأشياء الكائنة لتدهور التاريخ والحضارة، تبلغ حدا مـــن الرهافة يجعل الحكم قرارا.

1 - 1904 – عنوان "تحت الظل الحار للإسلام" نشره بروكاند.

http://www.al-maktabeh.com

" إننا نعلم أن الإسلام عدائي جدا في بعض الأحيان, لكنه قادر أيضا على الوقوف مع المسيحية موقف النّدِّ، الشيء الذي يوجب علينا تمحيصه دون هذا الإنحياز القاضي باعتباره مجرد بروليتاريا إستعمارية ".

تلك هي جملة القلاقل التي كان الإسلام يثيرها في فرنسا، هو الكامن في قلوب ملايين البشر، مع خلفية من الإلتحام نبعث من الألم..، إن كان الألم يدعو أحيانا إلى الرضوخ، فهذا الأخير بدوره، يؤدي إلى المقاومة كلما تعمّق الجرح، أو لم يقل جول فاليس الكاتب الذي تنبأ قبل الساعة بنبض الثورة الفرنسية ؟ " إذا لم تكن حياة الراضخين تدوم أكثر من حياة المتمردين، فإن الأفضل أن يكون المرء متمردا تحت لواء فكرة أو راية" [1].

* * *

لننتقل الآن إلى ضفة أخرى، ضفة الشعر والتأمل.إن المثال يأتينا من بيار لوتي Pierre loti (1850- 1923) (بحار وكاتب فرنسي، شغوغ بالشرق وحياة العرب).

إن عالم الشعراء والفنانين، ربما بسبب الجنوح للتغريب أو دعة الروح، يكن لبلاد الإسلام بقببها وروائعها بصلواتها وإيقاعاتها

1 - جول فاليس: "الحاصل على البكالوريا "

مكتبة المهتدين الإسلامية

وألوانها، نظرة أكثر حرارة. إن مسيرة إتيان دينيه [1] من مدينة وسعادة إلى مكة المكرمة، مرورا بمسجد باريس، حيث كان أحد الداعين المتحمسين إلى إنشائه، إن مسيرته تلتقي بمسيرة بيار لوتي من فاس إلى أسطنبول. إن بيار لوتي يمثل لوحده، نهجا صوفيا بحتا، نهجا يجعل رؤية الشعوب الإسلامية تنصرف عن الحداثة، وتغرق في اجترار الماضي المغري.

إن هذا المنهج اللطيف في حدّ ذاته، وإن كان يولّد الجمود، ندّد به الشاعر الكبير محمد إقبال في أشعاره الآسيوية. لنر إذن ما كتب في هذا الصدد بشأن المغرب: " أيها المغرب الكئيب، ابق زمنا طويلا، منغلقا على نفسك، موصدا أمام الأشياء الجديدة، موليا ظهرك لأوروبا، باقيا على جمودك فيما مضى من الأشياء.

نم طويلا واستمر في حلمك القديم، حتى يبقى - على الأقل - بلد أخير يستطيع الناس فيه القيام بصلواتهم. وليحفظ الله للسلطان انفراداته القشيبة بالأزهار وصحاريه المزينة بالبرواق والسوسن، ليحفظ الله للشعب العربي رؤاه الصوفية وتجمده

1- رسام فرنسي (1861- 1929) اعتنق الإسلام وسمى نفسه (نصر الدين ديني). استقر بمدينة بوسعادة حيث دفن 1930 تنفيذا لوصيته. كان مناضلا متحمسا لبناء مسجد باريس (1822 – 1826)، وعندما دعي لتدشينه الرسمي، رفض تلبية الدعوة، تعبيرا عن احتجاجه على نفي الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر إلى دمشق.

http://www.al-maktabeh.com

المحتقر وأسماله الرمادية, ليحفظ للبدويات الخرسوات أصواتهن الحزينة التي تقشعر لها الأبدان, وللمساجد العتيقة غيبها الحصين وللأطلال كفنها الجيري الأبيض." (1)

يا له من شعر رائع، يا له من بخور مسكر. لكن يا لها من أنانية لا تقهر في رغبتها أن تحول، نزولا عند راحتها الشخصية، حضارة بأكلمها إلى زجاجة عطر يكسرها، لو كان قد اكتفى، كما فعل بإعادة بناء مسجد مغربي في المترل الذي كان قد شيّده على شاطئ المحيط الأطلسي- لتعاطي المتعة مع فنانين وكتاب آخرين وليس لإقامة الصلاة - لكنا قد عذرناه بالفعل.

إذن هكذا كان الجو الإجتماعي السياسي لأوروبا، كما يظهر من خلال الإستشهادات المذكورة.

كانت تركيا العثمانية قد صارت جمهورية بعد أن قضت على آخر خلفائها - بالأمبراطورية التي كانت قد تضعضعت منذ القرن الأخير، كانت تزداد تدهورا بحيث أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية، لا تمثل أبدا تلك القوة التي كانت ترهبها القوى الكبرى الأخرى وتجاملها. فعلى النقيض من ذلك، كان كمال أتاتورك- نظرا للإصلاحات العميقة المدخلة في ظل "حكمه"- كان لا يثير البتة مخاوف الغرب. لقد بدا الإسلام بهدوئه وتفككه أكثر هشاشة، بيد أن النخبة الإسلامية في آسيا والشرق الأدنى والمغرب، كانت تنير الطريق إلى الصرامة في التحليل وإلى اليقظة السياسية.

---

1 – محاضرة ألقيت في 25 فيفري 1927 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الصرامة في التحليل واليقظة السياسية ستكونان المحورين اللذين سيستقطبان فكر ابن باديس ونشاطه في ذات الوقت. فانطلاقا من تأملات عميقة في وضع المجتمع الجزائري، المرتبط بانتمائه المزدوج للمنحى الجيوسياسي العربي الإسلامي ولمواجهته للدائرة الأوروبية التي تحيط به وتراقبه، راح ابن باديس يعد برنامجا واسعا للعمل.

غير أنه كان من البدء، واعيا بالصعوبات التي تنتظره - وهكذا فرض على نفسه إلزاما جليلا: إقناع النخبة ثم الشعب بكامله بهذه الفكرة القوة المحركة، أي أن الإستعمار عملاق ذو أقدام طينية، وبمعنى آخر أنه فزاعة عصافير.

وقد أسر إلينا الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان عونه ورفيق دربه بما يضعنا في الصورة، ويلج بنا صميم الموضوع: " لقد خلصنا أنا وابن باديس (1) من دراسة عميقة للمجتمع الجزائري إلى نتيجة مفادها أن الداهية التي أصابت الشعب الجزائري المسكين، والبلوى التي ابْتُلِيَ بها إنما جاءت من ناحيتين... الخ، إلى قوله : " لاسيما وأن هذه الثقافة قد طردت من مراكزها الطبيعية إلى زوايا بقع في جبال وعرة، وصحار محرقة. "

هكذا رسمت الطريقة ووضع منهاج العمل. فالقضية الجوهرية إذن هي قضية التربية والتعليم. وإذا كانت النظرة واضحة والسعي سديدا، فإن ما يسندهما من منعكس ورد فعل، يتعلق في آن واحد، بضرورة فتح مدارس وما يقتضيه هذا المطلب من شرط لازم لا غنى عنه، ألا وهو إيصال الخطاب السياسي.

http://www.al-maktabeh.com

عكف إبن باديس على تحقيق هذا المطلب منذ سنة 1913، لكن الطريق شاق ومليء بعوائق كأداء. وما انفرط عقد عام حتى جُنِّد الجزائريون وأرسلوا لدعم صفوف الجنود الفرنسيين على جبهة القتال, تماما كما سبق لهم أن جندوا قبل أربعين سنة، وأقحموا في أتون حرب لا شأن لهم بها، أعلنها نابليون الثالث على ألمانيا. وقد خسر نابليون عرشه فيها، وفازت فرنسا بالجمهورية. لكن الجزائريين الذين تركوا في ساحة الوغى عشرة آلاف قتيل، وكان عددهم فيها عشرين ألفا، عادوا ليستأنفوا حياتهم البائسة كشعب مستعمر مسلوب السيادة.

بعد الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) وتصريحات الرئيس ويلسون Wilson الواعدة المبشرة، والتي أحبطتها في وقت لاحق كل من بريطانيا في عهد اللويد جورج Eloyd George وفرنسا في عهد كليمانسو Clemenceau، لاحت بارقة أمل في الجزائر. ذلك أن الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر، حسب الفرصة مواتية، بعد أن نال شاراته كضابط في جبهات القتال الأوروبية, للتوجه على رأس وفد إلى باريس، وطرق باب مؤتمر فرساي Versailles لمحاولة منح الجزائر وضعية البلد الذي يمكن أن يتمتع بحماية جمعية الأمم المتحدة. لكن مسعاه قد فشل، وعاد الوفد بخفي حنين.

---

1 – لقاؤهما في البقاع المقدسة سنة 1913 .

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت خيبة الأمل كبيرة، غير أن الأمل ذاته كان في الأصل مشوبا بالحذر. و لم تمض أيام حتى سلك الأمير خالد سبيل المنفى والإغتراب.

ومرّت أيام، وإذا بابن باديس يكتب في زاوية مخصصة لنعي الأموات بمناسبة وفاة حفيد الأمير عبد القادر سنة 1936 ما نصّه: " لقد فقد الشعب الجزائري في شخصه قائدا محبوبا، وزعيما مخلصا وفيا. قَلَّ أن يجود التاريخ بأمثاله. وخسرت العروبة فيه بطلا من أجَلِّ أبطالها في الأزمنة الأخيرة". [1]

على أن وفاته لم تكن دون طائل. فنشاطه النضالي سيغدو موحيا بتطلعات جديدة أكثر حسما ونجاعة. ذلك أنه فتح السبيل لقيام حركات وطنية. وفي هذا السياق ظهر نجم شمال إفريقيا مثلا بكل ما شهده هذا الحزب من أحوال وتحولات خلال وجوده الرسمي،أو شبه الرسمي فيما بين سنة 1926 وسنة 1937، وهي أحوال وصروف جديرة بدراسات وبحوث أخرى.

أما ابن باديس ورفاقه، وفي مقدمتهم الشيخ البشير الإبراهيمي فإنهم بدءوا من البداية: أي من المسجد؛ إذ لابد من مباشرة التعليم باعتباره مطلبا عاجلا، ريثما تتوفر الأسباب والوسائل

1- راجع مجلة (الشهاب) عدد فبراير 1936.

http://www.al-maktabeh.com

لتشييد مدارس حرة. واختير المسجد كأنسب مكان للقيام بمهمة التدريس. ذلك أن التقاليد الحسنة في البلدان الإسلامية تقتضي بأن يزود كل مسجد بمجموعة من الكتب. وكانت تلك الكتب مما يحبسها الخواص وينذروها وقفا ينتفع به المؤمنون.

ومن المعلوم في هذا الصدد أن الملوك كانوا يتنافسون في مجال اقتناء الكتب. وكانوا يجدون في جمع الكتب وتوفير أكبر عدد ممكن من الوثائق والمستندات مجالا للإعتزاز والفخار.وكان ذلك شأن كبار الملوك المسلمين خلال القرن الرابع الهجري في كل من مصر، بغداد وقرطبة.

وبصدد المسجد ودوره، كتب ابن باديس يقول: " إن الصلة التي تربط المسجد بالتعليم هي نفس الصلة التي تربط المسجد بالصلاة. ولما كان المسجد لا يتصور بدون صلاة. فإنه لا يتصور أيضا بدون تعليم ".

ما أوضح هذا التحليل وما أجزله؛إنه عبارة عن كلمات بسيطة نافذة ،يتلقى رسالتها الشعب المحروم حتى ذلك الوقت من خطاب صافي اللهجة، وكلمة صريحة موحية، ولغة مباشرة مؤثرة.

كان لابن باديس أسلوبه الخاص فيالتعليم والتدريس. لم يكن مقتفيا فيه أثر القدامى من أقطاب المدارس التعليمية التقليدية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكانت دروسه المرتكزة على المجهود الذهني تستثير الذكاء، وتستدعي التفكير. بل إن الدرس الديني ذاته أو الفقه الذي تتخلله استطرادات وتطبيقات مما يجري في الحياة العامة من قضايا وأحداث. كان يسلك فيها سبلا تقوده إلى التاريخ أحيانا، وتجره إلى علم الاجتماع أحيانا أخرى، حيث لانعدم لمحة من لمحات الخيط السياسي الرفيع، إذ كانت تطل مواضيع يبلغ فيها الإمام شأوا بعيدا في الشرح والتحليل، ويستعمل فيها قصارى ما يملك من جهود وبلاغة، وأقصى ما يتحلى به من إخلاص وصدق لهجة، للدعوة إلى مبادئ العقل ومثل الحرية، ولتكوين إنسان جديد يكون أهلا للإضطلاع بما يجد من مسؤوليات خلقية جديدة ولمجتمعه.

لنأخذ هذا المقطع على وجه المثال: " من كان ينشد الشهرة الوطنية في أوسع مداها، فليدخلها من باب ترقية الأفكار وتنويرها لدى الأجيال الطالعة، ودعوة الآباء للإستجابة إلى مطلب الإسلام ومثله السامية ".

وسنرى كيف يتجه فكر ابن باديس إلى تأكيد مبادئ ثابتة وأساسية تحدد- انطلاقا من الإنسان إلى المجتمع- تلك المواقف المنشودة، وتبرز هذا العنصر أو ذاك من العناصر المُكَوِنة للأمة ومن مقوماتها ذاتها.

http://www.al-maktabeh.com

" تختلف الشعوب بعضها عن بعض بمقومات شخصيتها وخصوصياتها، تماما كما يختلف الأفراد فيما بينهم. ولا دوام لشعب بلا دوام مقومات شخصيته..، والهوية الوطنية هي مجموع تلك المقومات وتلك الخصوصيات. وهي اللغة التي بها يتكلم وفيها يتثقف، والعقيدة التي يقيم عليها أسس وجوده، وذكريات التاريخ التي بها يحيا، وعلى نهجها يرسم مستقبله. وكذلك الإحساس الذي يشاطر به من له نفس المقومات والخصوصيات".

أي طالب أو تلميذ بلغت فيه السذاجة أو الغباء ما بلغت، يتلقى مثل هذا الخطاب اللين والشديد في آن واحد ثم لا يهتزُّ لسماعه؟ إن الرجل قوي الحجة والإقناع حقا. وكأن الإنسان يقف أمام رجل دين ذاكرته مشحونة بمعارف علمية عالية، وفكره مشغول بتبليغ تلك المعارف وكأنها من أولويات الحياة الدينية. وهو إلى ذلك، يكتشف فيه محاميا رزينا حاد البصر، ولكنه هادئ متوازن، ومنافحا جريئا يتكلم في وقار وسكينة، وسياسيا حساسا،ومفكرا عميق التفكير.

وتكاد الفقرة الآتية تكون نتيجة منطقية لما قرأناه في الفقرة السابقة، وكأن أفكاره قد ازدادت على مرّ السنين وضوحا وصلابة في ألم التفكير، أمام ما كان يلاحقه به الإستعمار من مطاردات لا ترحم، وأمام الثقة التي يحملها له أتباع وتلاميذ لا يفتأ عددهم في ازدياد ونماء.

مكتبة المهتدين الإسلامية

" لا حياة لك إلا بحياة شعبك وبلدك ودينك ولغتك، وكل ما هو جميل رائق من العادات والتقاليـــد، وإذا أردت أن تضـــمن الدوام والإستمرار لكل ذلك، فكن ابن عصرك، مسايرا للـــزمن الذي تحيا فيه منسجما مع أسباب الحيـــاة، وســـبل التعـــايش والسلوك المثالي في المجتمع ".

يتبيَّن مما سبق، أن الحرص على "العصرية" (المودرنيزم) أمـــر وارد ومضطلع به. فأيٌّ مستمع لا يتلقى هذا النداء. بما يستحقه من حرارة الإستقبال..؟

لقد كان الإنقياد لمثل هذا النداء جماعيا، والإستجابة له واسعة شاملة. وهكذا شيّدت في أقل من ربع قرن مائة وخمسين مدرسة عبر التراب الجزائري، زيادة على عدد كبير من النوادي الثقافيـــة والمساجد الحرة، التي يحاضر فيها علماء أجلاء. ويتنـــاولون في محاضرتهم ودروسهم مواضيع مختلفة، قاصدين وراء ذلك تحفيـــز الهمم وبعث النهضة السياسية، وبث الروح الوطنية وإحياء الحَمِيَّة الدينية.

بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائـــريين ســـنة 1931 وتوليته رئاستها، تم توزيع الأدوار توزيعا دقيقا بمقتضى المنـــاطق الجغرافية، من ذلك أن الشيخ الإبراهيمي نائب رئيس الجمعيـــة، استقر في تلمسان، حيث شهدت دروسه ومحاضراته رواجا هائلا في الغرب الجزائري، بل حتى فيما وراء الحدود المغربية، زيـــادة

http://www.al-maktabeh.com

على ما كان يعالجه بمهارة فائقة وبصيرة العارف الحاذق، من مشاكل اجتماعية وسياسية على أعمدة جريدة (الشهاب) ثم (البصائر) بعد ذلك.

اهتم ابن باديس، وهو لا يفتأ يتفنن في برنامجه التعليمي ويطوره ويحسنه، اهتماما خاصا بترقية البنت باعتبارها الزوجة والأم في المستقبل. وقرر مجانية تعليم البنات ولو كانت وسائل أوليائهن المادية تسمح لهم بدفع أجر تعليمهن، وكان ذلك منه تشجيعا على ارتياد المدارس، وحثا على التعلم.

درس ابن باديس في (الجامع الأخضر) الذي بناه الباي حسين بن حسين بقسنطينة في القرن الثامن عشر، وخصصه للعبادة والتعليم. كان الإمام يعلم الأطفال والفتيان في النهار،ويخصص المساء لدروس يلقيها على الكبار في مواضيع تتصل بالحضارة الإسلامية.

وقد قاده تمسكه بمبادئ الحضارة الإسلامية، وتشبثه بمثلها إلى إعطاء أهمية خاصة لمكافحة آفتين اثنتين كانتا تبدوان له ذاتي منعرج خطير في المجتمع الجزائري، وأعني بهما: ظاهرة الطرقية وما يتبعها من شعوذة، وظاهرة التجنس بالجنسية الفرنسية.

فمن مخاطر الآفة الأولى أنها تبقي الشعب في حالة من الجهل الفاحش والظلامية المهنية، وفي حالة من البرودة أو السلبية

مكتبة المهتدين الإسلامية

المشينة. ومن مخاطر الآفة الثانية أنها تجتث الإنسان من أصله، وتفصله عن أمته، وتدمجه في مجتمع ينبذه ويلفظه، ويجرده من شخصيته ويحرمه منها. وأرادت الأيام ومصادفات التاريخ ونحن نسجل هذا بالمناسبة، أن يحارب أحد أصول ابن باديس وهو الهاشمي بن باديس باعتباره قاضي قسنطينة آنذاك، قرار مجلس الشيوخ سنة 1865، لأنه دعا إلى منح المسلمين الجزائريين الجنسية الفرنسية وفق شروط تتنافى ووضعيتهم كمسلمين.

كان ابن باديس غالبا ما يقوم، إلى جانب التعليم، برحلات يجوب فيها البلاد من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، داعيا الجزائريين إلى مناصرة برنامجه ومؤازرته في عمله. وكان بذلك يحشد الطاقات البشرية والمادية ويعبئها، ويؤسس الجمعيات المحلية التي كانت تضطلع بإنشاء مدارس وتنهض بأعباء التعليم. وتوقف في إحدى رحلاته تلك بمدينة الأصنام، لا لأن الجنرال بيجو Bugeaud فيما يبدو قد أطلق على هذه المدينة - كرمز سياسي - اسم أورليان فيل Orléans Ville، تنويها بنجل الإمبراطور لويس فيليب Louis Philippe، الدوق أورليان le Duc Orléans الذي مات في حادث بباريس، بل لأن في المدينة مُفتيا اسمه الشيخ ونوغي بومزراق. ولم يكن هذا الشيخ سوى نجل بومزراق المقراني الذي نفته محكمة الجنايات في قسنطينة عقب ثورة سنة 1871 إلى قلاع " كاليدونيا الجديدة "

http://www.al-maktabeh.com

والذي عاد من منفاه سنة 1904، لتوافيه المنية بعد عام من عودته تلك لدى ابنه المفتي بمدينة الأصنام.

دارت بين الإمام ابن باديس والمفتي محادثات طويلة تناولت التاريخ وتاريخ آل المقراني، وظروف كفاحهم بالإشتراك الوثيق مع الطريقة الرحمانية.

هكذا كان ابن باديس يعنى عناية خاصة بمسلك المقاومة الذي سلكه الشعب الجزائري. وكان يرى في تلك المقاومة الصامدة، ومواجهة المحتل الغاصب برهانا قاطعا على مدى تمسكه بالإسلام، وتعلقه باللغة الوطنية. وكان يعدها أيضا وبالخصوص، دليلا ثابتا مثله مثل العقيدة واللسان. ورفض أي شكل من أشكال المسخ الثقافي، وأبان عن استعداده للكفاح وتحفزه للقتال.

ألم يفض هذا التفكير بابن باديس إلى المهاجرة بما كان يسُرُّه ويختلج في صدره دائما ؟ لقد كان ذلك في يناير من سنة 1937، وأثناء محاضرة ألقاها بعنوان: (لمن أعيش؟) وفيما يلي مقاطع منها:

" أعيش للإسلام والجزائر.

أعيش للإسلام، لأن الإسلام هو الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها... ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم.. ويقرر التضامن الإنساني العام، بأن الإحسان إلى

مكتبة المهتدين الإسلامية

واحد إحسان إلى الجميع، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع... ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها، ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها... ويقرر شرائع الأمم، ويُهَوِّن عليها شأن الإختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات... ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق... ويحرم الإعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب.

أعيش للإسلام، وللإنسانية جمعاء، لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص... وأنا أشعر بأن مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة... وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه، لابد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الإتصال.

نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا... ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص، نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير، عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص.

http://www.al-maktabeh.com

وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، اللذين ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد، لغة وعقيدة وآدابا وأخلاقا وتاريخا ومصلحة.

ثم الوطن العربي الإسلامي، ثم وطن الإنسانية العام. وما مثلنا في وطننا الخاص- وكل ذي وطن خاص - إلا كمثل جماعة ذوي بيوت من قرية واحدة. فبخدمة كل واحد لبيته تتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية... فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها... ولكن لننفعها وننفع ما ما اتصل بها من أوطان الأقرب فالأقرب. هذا معنى قولي: إنني أعيش للإسلام والجزائر ".

يا لها من مشاعر إنسانية، ويا له من سمو في النظر،ويا له من درس واعظ رادع لدعاة العنصرية والمتشبعة قلوبهم بالتعصب العرقي وكراهية الغريب الأجنبي، ويا له من تصور عال لحرية الشعوب والأفراد.

أما الحرية فإنها تلك المحبوبة التي أغرم بها ابن باديس وتغنى بها في شعر منثور رائع كتبه سنة 1939، أي قبل سنة واحدة من التحاقه بجوار ربه. وهي التي وسمت آخر حياته المقتضبة، الحافلة بجلائل الأعمال، بعلامة بيضاء ناصعة تنير السبيل للحائرين، وتهزّ نفوس الغافلين، وتُحضّر همم أولي العزم من العاملين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ذلك لأن صيحة الحرية عندما تصدر عن صدر شخص قد شبع بالروح الإنسانية، فإنها تتصل بنفحات من العناية الإلهية، فيتحول الغم إلى أمل، ويغدو النحيب خلاصا، ويصير الألم وحدة شعور واتحادا بين القلوب. وإذا كان الغم والنحيب والألم مما يستتبع صفير الرصاص الملعلع، وانبجاس الدَّم الناضح، ورائحة الجثث الهامدة، فليس الذنب في ذلك ذنب هذا الإنساني. وإنما هو ذنب أولئك الذين كانوا السبب فيما حل من الهوان والضيم، بفعل تعنتهم، ورفضهم كل تفاهم، وبفعل ما يتصفون به من قصر النظر السياسي، والعمى الثقافي. فعلى عاتقهم تقع مسؤولية ذلك كله. أما الحرية فإنها ـ وقد دفعت ثمن مهرها الغالي ـ لابد منتصرة، تخرج من المحنة وقد عركتها ماتُمنّى به الإنسانية للأسف من أحزان وويلات.

وأين أنت أيتها الحرية ؟ أيتها الحرية العزيزة. تحتفل الأمم بأعيادك...، وقد أحبتك نفوس ما عبدت سوى الله ".

إنه لنشيد وطني، ترنيمة للحرية المُعْتدى عليها. ليس ابن باديس خلافا لجمال الدين الأفغاني أو عبد الرحمن الكواكبي بالذي يذكر المعتدي باسمه ويشير إليه برسمه.

إنه ليسائل الحرية ويستفهمها، يستوقفها ويبحث عنها. ثم هاهو يكشف القناع عن جسد مشوه معطوب. أيحتفل المستعمر بالحرية، ويتغنى بها المستوطن المعمر (المدمر) على أرض مغتصبة

http://www.al-maktabeh.com

بالقوة منذ زمن بعيد؟ هذا لعمري هو الإستفزاز بعينه. غير أنه، وقد أزيح القناع عن هذه الخدعة الماكرة، وافتضح أمر هذا الغشّ المُدلِّس، فلا مناص من أن ينشد ابن باديس نشيدا لحرية ضائعة، لحرية لابد أن تعود إلى ديارها طال الزمن أم قصر.

إن دعوة الحرية لتعود، توحي إلى القارئ وجوب تجنيد كل القوى وتعبئة جميع الطاقات، لكي يتحقق كل ذلك بفضل الإيمان وقوة العزيمة. لكن صور الشاعر المتلاحقة، وكلماته القوية الساحقة التي تقع في السمع موقع الصاعقة، والتلميحات المجلجلة هي التي تضفي على الشعر قوته الحقيقية وجماله الرائع. ولا يملك قارئه إلا أن تنازعه نفسه للقتال.

ومثل هذا التروع للقتال قد أعرب عنه في الضفة الأخرى شاعر آخر لا يمكن أن تلتقي مسالكه بمسالك ابن باديس، حين تحدث عن الحرية. إنه إنه بول إيلوار Paul Eluard، الذي قال:

وبسلطة الكلمة ونفوذها

أستأنف حياتي

أنا مولود لأعرفك،

وموجود لأسميك: الحرية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لقد كتب هذا الشاعر اسم الحـــرية على دفـــاتر الأطفـــال، ونقشه على جذوع الأشجار، وخطه في الرمال وفي صـــفحات الثلوج، كما يقول ذلك هو نفسه، لأنه وجدها، ولأنه كان يخشى ضياعها، أما ابن باديس، فإنه كان يبحث عنـــها دون أن يعثـــر عليها في قرارة نفسه، وهو الحرّ الأبيّ، ودون أن تكتحل بمشهدها عيناه، شاهرا كتبه كأسلحة مثقف لا حول له ولا قوة، ريثـــما يحين الحين، ويحيص الحيص، فتشهر أسلحة نوفمبر 1954.

- نشرت هذه المقالة بمجلة (المسار المغربي) .ع 2-3، الجزائر 1986.

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

البشير الإبراهيمي
المصلح البليغ المناضل

عندما طلبت مني مجلة (الثقافة) أن أشارك بمقالة أتناول فيها جانبا من جوانب حياة الشيخ البشير الإبراهيمي النضالية، لم أتردد لحظة واحدة في تلبية الطلب. فهناك عدة مجالات وميادين يمكن للمرء أن يكتب فيها، مما يتصل بنشاط هذه الشخصية الفذة وأعماله الجليلة، وقد اخترت الميدان الذي يمثل، في نظري، درجة الوعي السياسي العالية التي بلغها.

ليس المراد بهذه الكلمة هو أن نسعى، بجرة قلم قاصرة في حد ذاتها، إلى مجرد الإشادة برجل تجاوزت مكانته العالية، وسمعته الأدبية حدود بلادنا. إنما المقصود هو الإسهام في التعريف والإشادة بالعمل الذي قام به الوطنيون العظماء، وتقديمه للأجيال الصاعدة واللاحقة، في سياق الجهد المتواصل الذي أخذ فيه باحثونا ينفضون الغبار عن الوثائق والمستندات، ويسائلون التاريخ.

لقد كتب الكثير عن مقاومينا في القرن الماضي مثل: بوعمامة، والمقراني أو الأمير عبد القادر على الرغم من أن الصورة المرتسمة في أنفسنا عن هذا الأخير، صورة مجملة ضيقة، لأننا إذا استثنينا المطلعين من المثقفين أو الجامعيين، وجدنا أن أكثر ما نعرف فيه هو، رجل السيف لا رجل القلم، فرسه لا شعره، نضاله لا أفكاره الفلسفية. ولا ريب أن هناك مقاومين آخرين إلى جانب المقاومين بحد السلاح.

http://www.al-maktabeh.com

إن الشيخ البشير الإبراهيمي رجل طبع زمانه إلى جانب رجال عظماء آخرين مثل ابن باديس، العربي التبسي، مبــارك الميلــي وأمثالهم. فقد كان يتميز بعمق التفكير وسحر البيــان، يخلــب الناس خطيبا ويأسرهم كاتبا.

لقد ملك ناصية اللغة العربية، فكان خبيرا بأسرارها، ضالعا في أساليبها، بارعا في فنونها وآدابها، له عليهــا ســلطة وســلطان، تطاوعه كلما عالج موضوعا من المواضيع، وتنقاد له كلما اتخذها أداة للمحاججة والجدال. ليست طريقته في الكتابة أسلوبا يحتذي فحسب، إنما هي مدرسة ونموذج في جزالة اللفظ ومتانة العبــارة وقوة الحجة. فهو الساخر الــلاذع إن رام أســلوب الســخرية والهزل، لكنه يعرف حين يسخر، كيف يحتفظ بطــابع اللباقــة، الذي يضفي على حكمه وقراره مزيدا من الحدة والطلاوة.

أما إذا حاد عن سبيل السياسة، وسلك مسالك الأدب الرفيع، فإن له في سبك الألفاظ وحبك المعاني مقدرة لا تضاهى، يــأتي فيهما بما يسميه نقاد الأسلوب العربي "السهل الممتنــع". ولــو جازت المقارنة الأدبية لقلنا أنه أناطول فرانس في كتابــه "جنــة أبيقور" ولاسيما في فصل "الشك" منه.

إن ما يدهش القارئ فيه هو تلك الدرجة العالية من النضــج السياسي، والإنفتاح على الخارج. إنه لمن قبيــل التحــدي - في جزائر ممزقة مقهورة، احتفل فيها المستوطنون الفرنسيون بمــرور مئة عام على استعمارهم لها، بأبهة تنم عــن اطمئنــان إلى دوام

مكتبة المهتدين الإسلامية

الإستعمار وخلوده - أن يخوض المرء معركة بمثل ذلك الشمول والإستمرار.

لقد كانت المعركة شاملة، لأن جميع جوانب الإصلاح الإجتماعي كانت مستوعبة، فمن محاربة المعتقدات البالية، والضلالات والخرافات والبدع، إلى التربية الخلقية الصحيحة، والدعوة التي لا تتوقف عند نمط جديد من الحياة، يتفق مع الإسلام باعتباره دين التجديد والتحرير. كانت معركة دائمة متواصلة. لأنها كانت متأنية، إرادية ومطالبة حتى اليوم الذي جاء فيه دور السلاح. وقد لا نكون بحاجة إلى التحدث عن مدارس جمعية العلماء ومعهد ابن باديس بقسنطينة، أن ذلك معروف لدى الناس أجمعين، لذلك أعود إلى الجانب الذي اخترته من جوانب اهتمامات البشير الإبراهيمي الكثيرة.

* * *

كان للإبراهيمي رؤيتان اثنتان: المغرب العربي والمشرق العربي، المغرب العربي كمطمح وهدف، والمشرق العربي بأصدائه البعيدة، وألوانه وقبابه ومعاهده. وباختصار، كعالم تنتمي إليه الجزائر. ولمصر فيه رسالة ومسؤوليات. ألم يكتب مرة أن مصر هي البلد الوحيد الوارد اسمه في القرآن مثل يثرب ومكة ؟ لقد كان بلد النيل في نظره قادرا، بل ومن واجبه، أن يضطلع بدور فعال، ويعرب بصوت عال، عن تضامنه مع الشعوب العربية والمسلمة المضطهدة .

http://www.al-maktabeh.com

عندما انفجرت مأساة فلسطين، كتب سلسلة من سبع مقالات بعنوان "دموع على فلسطين" طرح فيها المشكلة لا على أنها مشكلة تستدعي البكاء والنحيب، كما قد يوحي به العنوان، بل على أنها مشكلة سلب واغتصاب واستعمار، مشنعا بالمسؤولين الحقيقيين أي الدول الغربية، مختتما قرار اتهامه بالكلمات لتالية: " أنا مريض، والموضوع طويل عريض، ولقد أصبحت بين أمرين: همٌّ يتجدَّدُ، وطبيب يتشدَّدُ، وإن حق الضمير لأوكد عندي من حق الجسد ".

ورد على صحفي عربي كتب ذات يوم عن "فلسطين الشهيدة" فقال تحت عنوان (ذوق صحفي بارد): " أماتت فلسطين حتى تصفوها بالشهيدة؟كلا، إن فلسطين حية ولكنها تجاهد، ومأزومة ولكنها تكابد، ولفألكم الخيبة.. أتدرون أن ذوقكم هذا لا يحلوإلا لخصوم فلسطين ؟ "

استقبل في شهر فبراير من سنة 1950 وفدا من الفنانين والممثلين المصريين ذا شهرة عالمية، يضم يوسف وهبي، وزكي طليمات، وأحمد علام، جاءوا ليشهدوا ما آلت إليه الجزائر، وهل كانت فرنسية حقا؟ فقام، وبقريحته المعهودة، وبلاغته المؤثرة البالغة، خاطب الضيوف برقة ولطف ولباقة،ولكنه اغتنم الفرصة ليرفع النقاش معهم إلى مستوى أعلى ويقول :

" إن لنا على مصر حقوقا، ولها علينا حق واحد. لها علينا الزعامة في الأدب والفن، والإمامة في العلم والمعرفة. ولنا عليها

مكتبة المهتدين الإسلامية

حق الأخ الصغير: أخذ باليد إلى الرشد، وتربية تقضي على السعادة ورعاية شاملة للخير والمصلحة. ولنا عليها حق الجار ذي القربى: حفاظ، وحماية، وإحسان. فهل قمنا نحن بما يقوم به الطفل البريء الساذج: محبة واحترام، وتقليد وائتمان، واتكلنا بعد ذلك على الله وعلى أنفسنا. وأما مصر، فنقول آسفين: إنها لم تعرفنا كما يجب أن تعرفنا، ولم ترع لنا ماضينا وتاريخنا المتصل بها." لقد كان ذلك بمثابة طرح قضايا مسؤوليات الدول والشعوب في بضع كلمات.

وما دمنا نتحدث عن مصر فلنتعرض لجامعة الأزهر التي لم تغب عن ذهن البشير الإبراهيمي، ولم تبرح تسترعي اهتمامه. فالأزهر في نظره، يجب ألا يكون محرابا لأصول الدين وعلم الكلام فقط، ولا قلعة للفكر الإسلامي فحسب، بل يجب أن يكون مركز إشعاع ثقافي منفتح على العصرانية يلتقي فيه الرجال وأفكارهم. ولماذا كان على ابن سينا (980 – 1037) أن يُدْعى (أفيسانAvicenne) ؟ وكان على ابن رشد (1126 – 1198) أن يُسمَّى (أفيرويس Averroès) إن الإغتصاب اللغوي مسلط على العالم العربي الإسلامي يحرمه حقه المشهود له به فيما قدمه من إسهام علمي، وأنجبه من حضارة عالمية.

لِنُطِل المقام بمصر ونتحدث فيها عن حركة الضباط الأحرار. فقد أوحت حركة أولئك الضباط الذين جعلوا من مصر جمهورية إلى كاتبنا فكرة عميقة، عبّر عنها في مقال بعنوان: (محنة مصر محنتنا)، قائلا: " تعاني مصر العزيزة هذه الأيام ما يعانيه الحر الأبيّ

http://www.al-maktabeh.com

أُكرِه على الضّيم وجُرِع السُّم، حتى إذا استيأس من الإنصاف، ونفد صبره خطا الخطوة الفاصلة، وأقدم على تحطيم القيد بنفسه، وعلى تمزيق الصحيفة التي أملتها القوة على الضعف.. صممت مصر على حل العقدة التي عقدها السيف يوم التل الأكبر... وفتحت عينيها على أفظع ما تفتح عليه العيون، تغرم ليغنم الإنجليز، وتجوع ليشبع الإنجليز، تموت ليحيا الإنجليز، وينهدم مجدها ليبني بأنقاضه مجد الإمبراطورية الإنجليزية، ويفرض عليها أن تعيش غريبة في وطنها، وأن تعاون على طمس حضارتها ومسخ عقليتها، والانسلاخ من شرقيتها والنسيان لماضيها...

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المعبرة عن إحساس الشعب الجزائري كله تعلن تأييدها للشعب المصري، وتضامنها معه في موقفه الحازم.. وإنه يعتقد أن كل مصري يخرج عن إجماع مصر فهو مدخول العقيدة، مغموز النَّسَب، وأن كل عربي لا يؤيد مصر فهو مارق من الأخوة الإسلامية الشاملة ".

إنه خطاب سياسي شديد الوضوح، تلقاه رئيس الوزراء المصري، فأعرب عن أحرِّ تشكراته لصاحبه.

* * *

لنعد إلى المغرب، أو بالأحرى إلى المغرب في باريس. لأن هذه المدينة هي التي التقى فيها سلطان المغرب محمد بن يوسف سنة 1951، وكان الملك قد عانى متاعب خطيرة، وتعرض لمشاكل حادة كانت مقدمة لإقدام فرنسا على خلعه سنة 1953.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كان هذا اللقاء الذي استغرق ساعة من الزمن موضوع مقال طويل كتبه الشيخ البشيرالإبراهيمي. وقد أوضح منذ البدء أنه ليس من عادته إطراء الملوك ولا الثناء عليهم، وأنه علم مما قرأه عن كثير من ملوك الإسلام ما زهده فيهم، وما كره إليه نظام الملكية، وأنه " عَلِم عِلْمَ اليقين أن أعمال الغابرين والحاضرين منهم هي التي أفضت بالإسلام والمسلمين إلى هذه المترلة من الحطة والهوان ". وأنهم كانوا بين وشوشات القصر ومؤامرات البلاط، يقضون أوقاتهم في متع المخادع ولذات المضاجع، أو في تجديد الحريم والتهتك في الليالي. إلا أن محمد بن يوسف قد سحره ببساطته وزهده، ويقظة عقله وفطنته، واطلاعه الواسع على أحوال زمانه، وحبه لوطنه. وبما يحمله من مطامح لشعبه ونزاهته واستقامته الخلقية، وتمسكه بالقيم الإسلامية الحقة، المجردة من كل معتقد فاسد، والعارية من كل ضلالة.

لم يكن قصده هو مجرد إسداء الثناء العاطر على ملك عربي مسلم ومغربي في آن واحد، بل كان قصده تأييد قضية عادلة، واستشفاف كفاح مجيد، وإسقاطه على نضال شعوب المغرب العربي. وكان الطابع الشمل للكفاح يفضي حتما، ما يفهم من الإلماح والإشارة،إلى استرداد الإستقلال،ولكن لا بثمن بخس زهيد، لقد كان الرهان من الشدة وبعد المنال ما يجعل الأخوة في السلاح هي وحدها القادرة على فرض النهاية السعيدة.

وهناك حادثة أخرى انتزعت منه صيحة ألم وغضب صادرة من القلب، لا وهي حادثة (المنصف) باي تونس سابقا، الذي

http://www.al-maktabeh.com

نفي إلى فرنسا ومات في مدينة بو Pau. لقد غاب هذا العجوز الشهم الذي وقع ضحية لشجاعته وغيرته الوطنية، في وقت أخذت تونس تسير فيه بعزم وثبات،، وراء رجل حازم عنيد، وخصب الخيال كبورقيبة، إلى الحرية والاستقلال.

وجدت تونس الحزينة صدى لألمها في الجزائر، فكتب الإبراهيمي يقول: " لو مات المنصف بالأغواط لطافت الجزائر بجثمانه عدة أشواط، ولذهبت فيه مذهب العرب في "ذات أنواط"، ولغسلته بالعبرات المسفوحة، وكفنته بألفاف القلوب، ودفنته في مستقر العقيدة والواجب من نفوسها ".

"ولو مات بأية بقعة من أرض الجزائر لكانت هي تونس نضرة واخضرارا، ولاكتسبت الجزائر بجميع أقطارها شرفا ممن مات ميتة الشرف فيها، ولقبست معاني عالية من الفداء والتضحية بعد عهدها، ولفغمتها نفحة ساطعة من عز الإمارة. حرمتها الأنوف الشم من أبنائها منذ أيام عبد القادر...، أي والله، لو مات المنصف في الجزائر لمات في وطنه وبين أهله، وفي أمة وفية متعطشة للعز والسيادة. "

" مات نابليون غريبا في جزيرة القديسة "هيلانة " ونابليون ممن زادوا في تاريخ فرنسا صحائف بيضاء، وفي مجدها الحربي أساطين رفيعة، فما كانت موتته الغريبة ثلمة في فرنسا، لأنه مات وفرنسا بين أيدي الفرنسيين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومات عبد الحميد أسيرا في سجنه، وعبد الحميد أكثر الخلفاء سيرورة على الأفواه، فما بكت عليه سماء ولا أرض، أنه مات وتركيا بيد الأتراك. لكن المنصف مات وتونس ليست للتونسيين. إنه مات وتونس ليست طليقة،وهي بالإنطلاق خليقة ".

هنا يأخذ الرجع السياسي، بمناسبة مأتم - وإنه لمأتم مذهل حقا - بعدا تاريخيا. فالذي يقرأ تلك الصفحات من الرثاء والتعزية، التي كتبت بلغة شعرية مؤثرة، وبأسلوب رصين متين، ا يسعه إلا أن يقف وقفة تأمل في الحياة والموت، في مصير الرجال وقدر الشعوب، وفي الثمن الواجب بذله بسخاء لانتزاع الحرية.

لا تمر على الإبراهيمي فرصة إلا اغتنمها، ولا حادث إلا استغله. فقلمه مسخرا أبدا لخدمة قضية من القضايا، وإذا بالقضية وراءها مدافع منافح، يجليها ببيان كأنه بيان سَحْبان[1]، وإذا بالجمهور قد تلقفها ورددها، وإذا بها وقد انتشرت قضية رابحة.

سافر إلى باريس في شهر أكتوبر من سنة 1950، رفقة الشيخ العربي التبسي الذي كان حينئذ مديرا لمعهد ابن باديس في قسنطينة. وكان الهدف من هذا السفر -كما بيَّنه هو بالذات -

1 – سحبان وائل: توفي عام 674 م، خطيب فصيح، ضرب به المثل .

http://www.al-maktabeh.com

الدفاع في العاصمة الفرنسية، باستعمال جميع المنابر الممكنة، عن قضيتين أساسيتين: أولاهما فصل الدين الإسلامي عن الحكومة في الجزائر، وحرية التعليم العربي. والثانية هي وضعية الجزائريين في فرنسا، وضرورة فتح مدارس لهم على يد جمعية العلماء، يتعلمون فيها اللغة العربية، ويجدون فيها ما لم يحفظ لهم معتقداتهم الدينية، ويبقي على صلاتهم بشعبهم.

وإذا كانت القضية الأولى المتعلقة بفصل الدّين الإسلامي عن الولاية العامة في الجزائر، قد أحيت النقاش الذي أثارته في الجزائر أحكام قرار مجلس الشيوخ سنة 1865، حيث قام ابن باديس آخر[1] بدور هام للدفاع عن وجهة النظر الجزائرية بوعي سياسي حاد، فإن القضية الثانية ما تزال حتى يومنا هذا هي الشغل الشاغل للسلطات الجزائرية، لا باعتبارها قضية حياة لائقة كريمة فحسب، بل قضية وجود ثقافي بالخصوص.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى أهمية الرّهان الذي أدركه الشيخ الإبراهيمي بسفره إلى باريس، آملا في أن يجد هناك كثيرا من الترددات والتحفظات لدى بعض الأوساط الثقافية، بل ولعله يثير مشاعر وُدٍّ وتعاطف أو تأييد معنوي، لمواجهة خطة كانت تهدف إلى مسخ الشخصية، وتحقيق الإدماج الثقافي.

1- الهاشمي بن باديس، قاضي قسنطينة (1865).

مكتبة المهتدين الإسلامية

عاد الإبراهيمي إلى باريس سنة 1929، حيث كانت منظمة الأمم المتحدة تعقد اجتماعا لها. وأقامت شعبة جمعية العلماء في باريس مأدبة عشاء تكريما لوفود البلدان العربية والإسلامية. وشهدت المناسبة ثلاث خطب ألقاها عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية، والشيخ البشير الإبراهيمي، والأستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السوري.

وقد ارْتَجَلَ الإبراهيمي خطابا أمام ضيوفه عده الجميع ذا مستوى عال. لقد كانت بالنسبة إليه فرصة غير منتظرة للتحدث في مشاكل جوهرية أمام مجمع سياسي له مثل هذه الأهمية. وبعد أن حيا الجمع "باسم الجزائر العربية المجاهدة الصابرة" قال بالخصوص:

"أحق أن باريس، وهي منبع شقائنا.. تنزل لحظة عن عادتها، فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الإجتماع الرابع؟ فلولا حقوق للأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا، لكنا نغفر لباريس جميع ما جرته علينا من جرائر، ولمحونا لها بهذه الحسنة جميع السيئات. ولكن تأبى علينا ذلك دماء في تونس تسيل، وشعب في المغارب الثلاثة يعذب، وشباب تفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعاهد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة.

http://www.al-maktabeh.com

فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المـــر من ثمـــراتها. وهيهـــات أن يسميها دار العلـــم مـــن لم ير منها إلا الظلم، هيهات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منـــــها إلا الظلمات. وهيهـــات أن يلقبها دار المســـاواة من لم تعاملـــه إلا بالإجحاف ".

لم يكن ذلك رفضا مرده إلى أي تنافر لغـــوي، أو عـــداء ثقافي عربي فرنسي. وإنما كان تعبيرا عن خيبة أمل، خيبة أمل في باريس تلك المدينة التي احتضنت ثورة سنة 1789، وأنجبت إعلان حقوق الإنســـان، تلك العاصمة التي لم تقم بـــدورها التحريري، والتي سمحت باسم مبـــادئ الحرية، بأن تُستْعمَر أوطان وتُستَعبد شعوب.

ولما لم يعد هناك من الكتاب من يكتب مثل لـــويس برترانـــد Louis Bertrand أنه يجب على فرنسا أن تتابع في الجزائر إنجاز ما لم تستكمله روما من عمل، ويقول: " أن الجزائر بلـــد لاتـــيني وليس بلدا إسلاميا، وإن هذا البلد لا تمثله القباب بـــل أقـــواس النصر". لم يجد الإبراهيمي بدا من أن يكضم غيظه ويكتم غضبه.

والآن، وقد سكتت الأسلحة ووضعت الحرب أوزارها، ومحت سكينة الهدوء صورة الإنفعال والغضب، وابتعد شـــبح الرعـــب وتلاشى جنون العنف، كان يمكنه لو طال بـــه الأجـــل، وهـــو المعروف بنظرته الإنسانية القائمة على التضامن بـــين شـــعوب

مكتبة المهتدين الإسلامية

العالم، أن يطرح معادلة العلاقات بين شركاء تقوم على أساس احترام الثقافات وتقدير الحضارات، وتستند إلى الإنفتاح الإيجابي. ذلك الإنفتاح الذي يجعل من اختلاف الناس في الألوان والأديان، عاملا أساسيا للإغناء لا للتصغير، والإعلاء لا للإذلال، والتقريب لا للقطيعة.

ثم التفتت إلى منظمة الأمم المتحدة فكتب بشأنها يقول:

"هذه المنظمة التي سُمِيَت بغير اسمها، حُلِيَت بغير صفتها، ما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه. وما هي إلا سوق تشترى فيه "الأصوات" بأغلى مما كانت تشتري به أصوات "الغَريض" *، و"معبد" غير أن الأصوات القديمة كانت فنا يمتزج بالنفوس، وموسيقى تتسرب إلى الخواطر. أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم وتُؤيِّد الإستعلاء والطغيان ".

تلك كانت نظرة الإبراهيمي إلى العاصمة الفرنسية باعتبارها رمزا للإغتصاب والقيود ومختلف الضغوط، وذلك كان رأيه في منظمة الأمم المتحدة بوصفها أداة لتصديق الإستعمارومباركة الإغتصاب، وتسويغ الاحتلال وحَبْك الدسائس الدولية.

---

* الغريض: المغني المجيد — الغناء المطرب.

http://www.al-maktabeh.com

وبعد خمس عشرة سنة من ذلك، وصف شارل ديغول المنظمة الأممية بقوله: "هذا الفلان" الذي يسمى الأمم المتحدة، لأنه كان يراها موسومة بالعجز والقصور. أما الإبراهيمي فكان يرى فيها بؤرة تنصب فيها مصائد للشعوب، ولا تتقرر فيها مصائرها. وما منهما في الواقع إلا مصيب في حكمه، كل حسب أحوال زمانه.

* * *

هذه إذن بعض الجوانب التي اخترتها، من بين أبرز المواضيع التي تمثل - فيما يبدو لي - محاور غالبة في تفكيره وعمله. ولقد كان من المفروض بالمناسبة أن استعرض بعض أشعاره التي نظمها في السجن عندما نفي سنة 1940 إلى الجنوب الوهراني. غير أنه وجدت من الصعب أن أختار قصائد أو أبياتا من بين الستة والثلاثين ألف بيت التي جادت بها قريحته الشعرية هناك. فإما الكل أو لا شيء بالمرة. ومن إنصاف شعر برز إلى الوجود تحت وطأة الاضطهاد، وفي ظل الغربة وضيقها.

لقد كان ألفريد دو ميسي Alfred de Musset على حق حين جعل بطل مسرحيته (لورنزكسيو- Lorrenzaccio) يقول: "الحماس شقيق الألم". وصحيح أن ألم النفس كان دائما ذلك الصديق الوفي للشاعر، فهو عندما يتألم تجود قريحته بالشعر والغناء.

مكتبة المهتدين الإسلامية

لقد كان الإبراهيمي كاتبا بارعا، أديبا ألمعيا وسياسيا محنكــا، وكذا شاعرا رقيق الشعر، إذ أن روح المكافح لا تخلــو مــن رقــة وحنــان.

يمكن لهذه المباحث والأفكار، وهذه التعاريف والأحكام، بــل يجب في رأيي، أن تهم الشباب قبل كل شيء، هذا الشباب الذي لم يكن له شرف معرفة كاتبنا القدير، كما لم يكن لــه الحــظ لقراءة أعماله، ذا الشباب الذي خصه الإبراهيمي بعناية، وبلحظة تأمل جديرة بأن نقف عندها.

" أتمثَّلُه واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخا له أخوة الدم. وكل مسلم أخا له أخوة الدِّين، وكل بشــر أخا له أخوة الإنسانية، ثم يعطي لكل أخوة حقها فضلا أو عدلا.

أتَــمثَّلُه حليف عمل، لا حليف بطالة، وجَلِيس معمــل، لا جليس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومُرْتاد حقيقــة لا رائد خيال".

" أتــمثله مقبلا على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلا علــى الإرتزاق إقبال النَّمل، تَجِدُّ لتجد، وتدَّخِر لتفتخر، ولا تبالي مــا دامت دائبة أن ترجع مرَّةً مُجَنَّحة ومرة خائبة...، يا شبابَ الجزائر هكذا كونوا.. أو لا تكونوا."

http://www.al-maktabeh.com

هكذا نرى إذن، أنه لا تقريظ ولا مدح، ولا تشنيع ولا قدح. إنما هو نداءٌ رزينٌ، مؤثِّرٌ ومتشدِّدٌ. إن من يبلغ السابعة عشرة من العمر ويفهم هذا الخطاب، رجل بلغ رشده قبل الأوان، بل وأكثر من ذلك، هو وطني غيور مُسَلَّح لمواجهة الحياة، مُعَدٌّ ومُرَوَّض للكفاح، وله فضلا عن ذلك، يَدٌ ممدودة إلى الأخوة المتعدِّدة الصِّلات والروابط.

-نشرت هذه المقالة بمجلة (الثقافة). ع87 ، ماي – جوان، الجزائر 1985.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر – 2007

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com